



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir



دراسة تحليلية
في السيرة النبوية
عصرها قبل الهجرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دراسة تحليلية في السيرة النبوية عصرها قبل الهجرة

كاتب:

عباس زريابخويي

نشرت في الطباعة:

الغدير

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

| | |
|----|--|
| ٥ | الفهرس |
| ١٢ | دراسة تحليلية في السيرة النبوية عصرها قبل الهجره |
| ١٢ | اشارة |
| ١٢ | تقديم |
| ١٣ | مقدمة المترجم |
| ١٦ | المقدمة المؤلف |
| ١٨ | القرآن و سيرة الرسول |
| ٢١ | الجزيرة العربية قبل الاسلام |
| ٢١ | اشاره |
| ٢٢ | النظام القبلى |
| ٢٢ | اهمية النسب داخل القبيلة |
| ٢٣ | حقيقة النسب |
| ٢٣ | الحلف |
| ٢٣ | الجوار |
| ٢٣ | الولاء |
| ٢٤ | الاستلحاق |
| ٢٤ | الخلع |
| ٢٤ | اهمية انساب القبائل في تاريخ الاسلام |
| ٢٥ | اقسام الطوائف |
| ٢٥ | اليمانى والنزارى او القحطانى و العدنانى |
| ٢٧ | تدوين الانساب |
| ٢٧ | مكة قبل الاسلام |
| ٢٧ | واد غير ذى زرع |

- ٢٨ الكعبة اول بيت
- ٢٨ فيه آيات بينات
- ٢٩ مكة تصبح مدينة
- ٣٠ قريش فى مكة
- ٣٠ مكانة قبيلة قريش
- ٣١ تسلط قريش على مكة
- ٣٢ نمو قدرة قريش وسيطرتها على مكة
- ٣٣ اعمال قصى فى مكة
- ٣٣ اسكان قريش
- ٣٣ قطع الاشجار
- ٣٤ تاسيس دار الندوة
- ٣٤ وضع الضرائب
- ٣٤ مناصب الحج
- ٣٥ المسؤوليات و المناصب الأخرى
- ٣٥ تغير الوضع الاقتصادى فى مكة
- ٣٧ تجارة قريش مع الخارج
- ٣٧ حملة ابرهه على مكة
- ٣٨ القرآن الكريم و اصحاب الفيل
- ٣٩ لايلاف قريش
- ٣٩ الاختلافات داخل قريش
- ٤٠ حلف المطيبين ولعقة الدم
- ٤١ عبد المطلب
- ٤١ اشاره
- ٤١ اعمال عبد المطلب

- ٤٢ نذر عبد المطلب
- ٤٣ حلف خزاعة مع عبد المطلب
- ٤٣ اصناف قريش
- ٤٣ الاحابيش
- ٤٤ الحياة المعنوية والاجتماعية في مكة
- ٤٤ اشاره
- ٤٧ الحج و العمرة
- ٤٩ سوق عكاظ
- ٤٩ ايام الحج
- ٥١ ادبان اخرى في مكة
- ٥٢ مراسم الزواج
- ٥٣ المساعة
- ٥٤ الشغار
- ٥٤ البحيرة و السائبة و الوصيعة و الحامي
- ٥٥ الازلام
- ٥٥ الميسر
- ٥٥ الكهانة
- ٥٦ الحنفاء و الحنيفة
- ٥٨ قضاء العرب
- ٥٩ الجاهلية
- ٥٩ سيرة الرسول من الولادة حتى البعثة
- ٥٩ الطبيعة المجتمع الاجاهلي الذي ولد فيه الرسول
- ٦٠ مولد الرسول
- ٦١ مصادر سيرة الرسول قبل البعثة

- ٦٢ وفاة عبدالله و مرحلة الرضاعة
- ٦٢ غسل القلب و تطهيره
- ٦٣ وفاة آمنه و عبد المطلب
- ٦٣ عناية ابي طالب برسول الله
- ٦٣ قصة بحيرا
- ٦٣ ايام الفجار و مشاركة الرسول فيها
- ٦٤ حلف الفضول و مشاركة الرسول فيه
- ٦٥ الزواج من خديجة
- ٦٦ اولاد الرسول من خديجة
- ٦٦ مشاركة الرسول في ترميم الكعبة
- ٦٧ سيرة الرسول من البعثة حتى الهجرة
- ٦٧ موقف الرسول من عقائد وعادات قومه قبل البعثة
- ٦٨ التحنث في غار حراء
- ٧٢ خلق العالم و خلق الانسان
- ٧٢ كيفية الوحي
- ٧٣ يا ايها المدثر
- ٧٣ المسلمون الاوائل
- ٧٣ على بن ابي طالب
- ٧٤ زيد بن حارثة المعروف بزيد الحب
- ٧٥ ابوبكر بن ابي قحافة
- ٧٥ الدعوة السرية و الدعوة العلنية
- ٧٥ رواية ابن اسحاق
- ٧٥ اعتراض على رواية ابن اسحاق
- ٧٦ تايد للنقد الثاني

- ٧٦ احداث الرجال و ضعفاء الناس
- ٧٧ الضعفاء و المستضعفون
- ٧٧ اكثر المسلمين الاوائل من الفقراء و المستضعفين
- ٧٧ اسماء المستضعفين طبقا لما اورده البلاذرى
- ٧٨ اشاره
- ٧٨ عمار بن ياسر
- ٧٨ خباب بن الارت
- ٧٩ صهيب بن سنان
- ٧٩ بلال بن رباح
- ٨٠ عامر بن فهيرة
- ٨١ ابوفكيهة
- ٨١ النساء المستضعفات
- ٨١ الذين ارتابوا فى دين آبائهم قبل الاسلام
- ٨١ اشاره
- ٨١ عبيدالله بن جحش
- ٨١ عمرو بن عبسة
- ٨٢ ابوذر الغفارى
- ٨٣ عثمان بن مظعون
- ٨٣ سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل
- ٨٤ اشهر اعداء الرسول فى مكة
- ٨٤ اشاره
- ٨٤ ابوجهل
- ٨٤ الوليد بن المغيرة
- ٨٧ ابواحيحة سعيد بن العاص بن امية

- ٨٧الحكم بن ابى العاص بن امية وعقبه بن ابى معيط
- ٨٨النضر بن الحارث
- ٩٠العاص بن وائل و منبه بن الحجاج و نبيه بن الحجاج السهمى
- ٩١امية بن خلف الجمحى
- ٩١ابوعزة عمرو بن عبدالله الجمحى
- ٩١ابوسفیان
- ٩١ابولهب
- ٩٢كيفية الدعوة
- ٩٢اشاره
- ٩٢فاصدع بما تؤمر
- ٩٢و انذر عشيرتك الاقربين
- ٩٣بداية معارضة قريش
- ٩٣اشاره
- ٩٣السبب الحقيقى لمعارضة قريش
- ٩٤الانذار
- ٩٥الاستهزاء
- ٩٥رد فعل قريش
- ٩٧رواية عروة بن الزبير
- ٩٧قريش تناظر و تطلب الدلائل و المعجزات
- ٩٨ذيل رواية عروة بن الزبير
- ٩٨الهجرة الى الحبشة و اسبابها
- ٩٨اشاره
- ١٠٠الهجرة الى الحبشة
- ١٠١سبب الهجرة

- ١٠٢ قصة السجدة و الغرائق
- ١٠٢ اشارة
- ١٠٣ نقد قصة الغرائق
- ١٠٥ قريش تتابع المهاجرين الى الحبشة
- ١٠٧ عودة المهاجرين
- ١٠٨ ما قامت به قريش ضد الرسول
- ١٠٨ اسلام حمزة بن عبد المطلب
- ١٠٩ اسلام عمر بن الخطاب
- ١١٠ محاصرة بنى هاشم اجتماعيا و اقتصاديا
- ١١٢ نقض الصحيفة
- ١١٣ وفاة خديجة و ابى طالب
- ١١٣ اسلام ابى طالب
- ١١٤ السفر الى الطائف
- ١١٥ الرسول يعرض دعوته على القبائل
- ١١٦ باورقى
- ١٢٦ تعريف مركز القائمة باصفهان للتمريبات الكمبيوترية

دراسة تحليلية في السيرة النبوية عصرها قبل الهجرة

إشارة

سرشناسه : زرياب خوي عباس ١٣٧٣ - ١٢٩٧
 عنوان و نام پديدآور : دراسة تحليلية في السيرة النبوية عصرها قبل الهجرة تاليف عباس زرياب خوي ترجمه على السيد هادي
 مشخصات نشر : بيروت : الغدير، ١٤١٧ق = ١٩٩٧م = ١٣٧٦.
 مشخصات ظاهري : ص ٢٧٧
 وضعت فهرست نويسي : فهرست نويسي قبلي يادداشت : عنوان اصلي سيره رسول الله
 يادداشت : كتابنامه ص ٢٧١ - ٢٧٠؛ همچنين به صورت زير نويس موضوع : محمد (ص ، پیامبر اسلام ٥٣ قبل از هجرت - ١١ق --
 سرگذشته نامه موضوع : اسلام -- تاريخ -- از آغاز تا ق ١١
 شناسه افزوده : هادي علي سيد، مترجم رده بندي كنگره : BP٢٢/٩/٤٣/٩٠٤٣ ١٣٧٦
 شماره كتابشناسي ملي : م ٨١-٢٣٢٢٠

تقديم

عصر ما قبل الهجرة يبحث المؤلف، في هذا الكتاب، في «سيرة رسول الله (ص) من الولادة حتى البعث». ويعنى بالجانب التاريخي من الموضوع فحسب، فيحقق الوقائع، ويبين صحة وقوعها وشروطها وملابساتها واسبابها. ولا يخفى ان المكتبة الاسلامية بامس الحاجة الى كتاب من هذا النوع، وذلك يعود الى امرين: اولهما: ان المؤلفات الاسلامية في السيرة، كما يقول ابن خلدون، «لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيرا ما وقع للمؤلفين والمفسرين وائمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا وسمينا، ولم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق و تاهوا في ببداء الوهم والغلط. وثانيهما: ان المؤلفات التي صنفها المستشرقون كان الغرض منها تلبية رغبات اقوامهم واهل ديانتهم، فجاءت لتبلي هذه الاغراض التي جعلتهم غير محايدون، فحرفوا الوقائع والاحداث، وراوا اليها من المنظور الذي يخدمهم ويضرب الاسلام، اضافة الى انهم ينفون الجانب الغيبي وينكرون جميع ما وراء المادة والحس. يحاول المؤلف، وهو يعي هذين الامرين، ان يفيدن ايجابيات المنهجين في الوقت الذي يتجنب فيه سلبياتهما. وقد اتبع بغية تحقيق ذلك منهجا موضوعيا يرى الى الاحداث التاريخية في سياقها التاريخي، فيرصد الظواهر التاريخية، ويتبينها ويصفها، وينفذ الى جوهرها، فيعرف حقائقها واسبابها الحقيقية، ويقدمها الى القارئ باسلوب سهل واضح. ويبدو انه استخدم ما يمكن ان نسميه «المنهج الاجتماعي النفسى» الذي يركز على معرفة الظروف الاجتماعية والشخصية التي اسهمت في نشوء الظاهرة وتكونها وتبلورها، ثم يبحث في تلك الظاهرة نفسها، فيقدم بذلك معرفة تاريخية تلبى الحاجة الى التحقيق والضبط وحسن الفهم. وقد توافرت في المؤلف الصفات التي يحتاجها هذا النوع من البحث فهو استاذ متمرس درس تاريخ الاسلام وسيرة النبي الاكرم (ص) عدة سنين في جامعة طهران، وقد مكنته خبرته الواسعة في معرفة المجتمع الجاهلي ومجتمع صدر الاسلام من الغوص مع الاحداث الى اسسها، فقدم للكتاب مبينا مشروعيته ومنهجه، ومهد لموضوعه ببحث ثلاث قضايا هي: الجزيرة العربية قبل الاسلام، وقريش في مكة، والحياة الاجتماعية في مكة، ثم بحث في الموضوع الاساسى وهو سيرة الرسول من الولادة حتى البعث. وقد توخى المترجم الامانة والدقة في نقل المادة الى اللغة العربية، اضافة الى العناية بسلامة اللغة وجمالها ومراعاتها اساليب اللغة التي ينقل اليها. وان كان المؤلف قد انتهى الى نتائج لا يوافق عليها، فانه اكتفى بالإشارة الى ذلك بتعليقات موجزة في الهامش. ويسر مركز الغدير ان يقدم هذا الكتاب

القيم الى قرائه آملا ان يكون قد قام بما يخدم ديننا الحنيف ونبيه الكريم (ص) مركز الغدير للدراسات الاسلاميه بيروت.

مقدمة المترجم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على صفوة خلقه وامين وحيه وحجته على خلقه الذي بعثه رحمة للعالمين ليخرجهم من ظلمات الجهل الى نور العلم ومن حضيض الارض الى آفاق السماء، ثم الصلاة والسلام على اهل بيته وحمله امانته ومستودع علمه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين. وبعد فاننا يمكن ان نحصر الدراسات التي كتبت حول السيرة النبوية في طائفتين رئيسيتين: الاولى: في فقه السيرة. والثانية: في توثيقها. ونعني بفقه السيرة التدبر في احداثها ووقائعها والتامل في كل ناحية من نواحيها. لناخذ منها الدرس والعبرة. ونجعلها تشع في حياتنا بكل ابعادها سياسية واجتماعية واقتصادية. لقد كانت السيرة النبوية تجسيدا علميا معصوما للاسلام وتطبيقا لتعاليمه السامية في انقى صورها واطهر معانيها. وتستهدف الدراسات في هذا الحقل، تفجير تلك المعاني واستنطاق الوقائع والمواقف النبوية لتزهو بها حياتنا ويخضر مايبس من عروقها وجف. ولا شك ان البحث في هذا الباب لا يتسق، ويستقيم الا اذا حسم الامر في ركنين سابقين يشكلان معا القاعدة التي تستند اليها هذه الدراسات: الاول: حجية السيرة وما فيها من قوة الزامية وطاقه تنجزية وهذا ما تعهد به علم الاصول، بل وعلم الكلام حتى اصبحت امر بديها لا تجد بين المسلمين من يناقش فيه ايا كان مذهبه: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا). الثاني: توثيق السيرة، وهذا بحث تاريخي مجاله علم التاريخ، وقد عنى به المسلمون عناية فائقة حتى انهم جاوزوا فيه غيرهم من الامم وقد توزعت اعمالهم في هذا المجال على محورين رئيسين: ١ الاعمال التي كان غرضها الاساس حفظ السيرة من الضياع وتسجيل وقائعها قبل ان يطويها النسيان. ولما كان هذا الغرض نصب اعين المحدثين والمؤرخين فقد شغلهم عن غيره وانطلقوا يسجلون كل ما مت الى النبي (ص) بصله من قول او فعل. واكتفوا من التثبت من صحة الخبر والحادثة، باثبات السند فحسب. يقول الطبري في مقدمة: مما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارؤه ان يستشعنه سامعه من اجل انه لم يعرف له وجهها صحيحا، ولا معنى في الحقيقة فليفهم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا وانما اتى من بعض ناقله الينا، وانما ادينا ذلك على نحو ما ادى الينا». ولو جزنا الطبري وتوغلنا ابعده في عمق التاريخ لوجدنا الجيل الاول من كتاب السيرة امثال عروة بن الزبير (٩٤ هـ) وابان بن عثمان بن عفان (١٠٥ هـ) ووهب بن منبه (١١٠ هـ) وكذلك الجيل الثاني والثالث كابن شهاب الزهري (١٢٤ هـ) وموسى بن عقبة (١٤١ هـ) ومحمد بن اسحاق (١٥٢ هـ) والواقدي (٢٠٧ هـ) لوجدنا هم جميعا قد جروا على نفس المنوال واثبتوا الغث والسمين هذا ان لم يتزيدوا هم من عند انفسهم في اضافة شيء غريب او اسقاط آخر اصيل لهذا كان من الطبيعي جدا ان تجد الراوي ياتي بالروايات المتعارضة عن الواقعة الواحدة بحيث يستحيل ان تصح معا، دون ان كيلف نفسه عناء الموازنة بينها او ترجيح بعضها على بعض. ولم تكن هذه سنة المؤرخين وحدهم بل والمحدثين كذلك. وهذا ما اشار اليه ابن حجر بقوله: «ان الحفاظ يعتمدون في روايتهم على الاحاديث الموضوعه مع سكوتهم عنها على ذكرهم الاسانيد، لاعتقادهم انهم متى اوردوا الحديث باسناده فقد برئوا من عهده واسندوا امره الى النظر في اسناده». ٢ ولما اكتملت المادة التاريخية للاجيال التالية واستوى للمتأخرين ما جمع المتقدمون، جاءت فكرة النقد والتعليق، وكان ابن هشام، من اوائل الذين مارسوا هذا العمل، وتوالت الاعمال بعده تباعا. لقد ظهر ابن هشام في عصر كانت الرواية الشفهية قد تراجعت فيه وانحسر دورها الى حد ما. فقد اثقلت الذاكرة العربية آنذاك وكان عليها ان تحفظ اضافة الى ما توارثته من اخبار العرب احاديث النبي واحداث السيرة ووقائعها. لكن ذلك لم يحط من شان الرواية الشفهية ولم يززع من مكائنها الموروثة اداة اولى في النقل المامون والتوثيق المعترف فرغم ظهور الكتب وانتشارها كان من الصعوبة بمكان التمييز بين المؤلف الذي قصد ان تروى مادته والمؤلف الذي دونها. وظلت الكتابة تزداد اهمية خصوصا في مجال السيرة كلما ابتعد بالناس الزمن عن الصدر الاول وجفت منابع السيرة الاساسية المتمثلة في المشاهدة العينية والمصاحبة اليومية له لصاحب السيرة (ص). وحين فتح ابن هشام عينيه على الدنيا كان بينه وبين الصدر الاول بطنان او ثلاثة بطون مما منحه حرية اكثر في التصرف

والإضافة والحذف. فلم يكن مجرد راو لسيرة ابن اسحاق التي سمعها من زياد البكائي (١٨٣ هـ) بل كثيرا ما اضاف اليها اشياء لم يذكرها ابن اسحاق واسقط امورا اخرى اثبتها الاخير. وقد اوضح ابن هشام منهجه في نقده لسيرة ابن اسحاق بقوله: «وانا ان شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر اسماعيل بن ابراهيم ومن ولد رسول الله من ولده واولادهم لاصلابهم، الاول فالاول، من اسماعيل الى رسول الله (ص)، وما يعرض من حديثهم وتارك ذكر غيرهم من ولد اسماعيل، على هذه الجهة للاختصار، الى حديث سيرة رسول الله (ص) وتارك بعض ما يذكره ابن اسحاق في هذا الكتاب، مما ليس لرسول الله (ص) فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس شيئا لشيء من هذا الكتاب ولا تفسيره له، ولا شاهدا عليه، لما ذكرت من الاختصار، واشعارا ذكرها لم ار احدا من اهل العلم بالشعر يعرفها واشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته ومستقص ان شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به». وصارت سيرة ابن هشام هذه فيما بعد محورا لاعمال كثيرة تناولتها بالشرح والتعليق حينما والنقد والاختصار حينما آخر منها على سبيل المثال كتاب (الروض الانف) لعبد الرحمن السهيلي (٥٨١ هـ) فكان يتعقب ابن اسحاق وابن هشام بالتحريير والضبط حينما، وبالشرح والزيادة حينما آخر. ثم كتاب (الذخيرة في مختصر السيرة) الذي فرغ منه مؤلفه برهان الدين ابراهيم بن محمد الشافعي سنة (٦١١ هـ) وبعد هذا بقرن ظهر كتاب (مختصر سيرة ابن هشام) لعماد الدين ابوالعباس الواسطي وكان اختصارا فحسب. وشيئا فشيئا تنبه المؤرخون المسلمون ومنهم كتاب السيرة آلى ضرورة الالتفات بالنقد والتمحيص الى جانب آخر من المادة التاريخية ذلك هو موضوع هذه المادة والمسألة التي تعالجها. بعبارة اخرى تجاوز سند الخبر الى متنه والعبور من مسألة ضبطه وتحرييره الى الموضوع الذي يعالجه والاحداث الذي تكتنفه، فقد كتب النويري (٧٣٢ هـ) في موسوعته (نهاية الارب) قائلا: «واما من ينسخ التاريخ فانه يحتاج الى معرفة اسماء الملوك والقابهم ولغاتهم وكناهم.. وكذلك اسماء المدن والبلاد والقرى والقلاع والرساتيق والكور والاقاليم». فلكى يكون الراوى دقيقا فيما ينقل من مادة تاريخية عليه من الان فصاعدا ان يكون اضافة الى وثاقته ذو خبرة بموضوع مادته لانتشبه عليه الالفاظ ولا تختلط عليه الاماكن والاسماء والوقائع. وتطور هذا النوع من النقد ليبلغ اعلى درجات نضجه على يد المؤرخ ابن خلدون (٨٠٨ هـ) الذي بلغ اهتمامه بهذا الجانب ان قدمه على الجانب الاخر فصار عنده نقد الخبر من الداخل اهم من نقده من الخارج. ولم يشا ان يترك ذلك دون ان يضع له قواعد واضحة وضوابط عامة بينها بقوله: «لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل لم تحكم فيها اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني، ولاقيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق. وكثيرا ما وقع للمؤلفين والمفسرين وائمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا، ولم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في ببداء الوهم والغلط». وبعد ان يورد ابن خلدون شواهد عديدة على هذه الاشتباهات يختم كلامه بتقرير يقول فيه: «فاذن يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والباق والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق او ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على اصول الدول والملل ومبادئ ظهورها. واسباب حدودها ودواعى كونها واحوال القائمين بها واخبارهم، حتى يكون مستوعب الاسباب كل حادث واقفا على اصول كل خبر. وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده في القواعد والاصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا والا زيفه واستغنى عنه. وما استكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك حتى انتحله الطبرى والبخارى وابن اسحاق من قبلهما وامثالهم من علماء الامم، وقد ذهل الكثير عن هذا السر فيه». وبهذا انفتح امام المحققين باب واسع من ابواب التاريخ واصبحت المادة التاريخية برمتها موضعا للفحص والمناقشة ومعرفة صدقها او كذبها من طريق آخر غير تعديل الراوى او جرحه. ولعل من الاسباب التي صرفت المؤرخين المسلمين عن الاهتمام بهذا الجانب من النقد فى وقت مبكر هو طبيعة الدوافع التي حفزتهم على كتابة التاريخ. لقد كانت فى اغلب الاحيان حوافر دينية بحيث يمكننا القول ان منا شىء

التاريخ الاسلامي كانت من شىء دينية، بل ان التاريخ كله قد ولجه المسلمون من باب الحديث. فكان المحدث هو الاخبارى نفسه الى ان انفصلت الشخصيتان وصار الاخبارى غير المحدث لكنه بقى ادنى منه مرتبة واكل قدرا. كان (الاسناد) اى تتبع سلسلة الرواة هو موضع اهتمام المحدث والغاية التى ينشدها فى جهده وعمله وحين يصح الحديث بتعديل رواته وتوثيق ضبطه وتحريه لابقى العمل به وليس هناك من مسوغ لمناقشة المتن وتطبيق القواعد المعروفة عليه. وهذا ما اشار اليه ابن خلدون فى مقدمته قائلا: «انما كان التعديل والتجريح هو المعتبر فى صحة الاخبار الشرعية لان معظمها تكاليف انشائية اوجب الشارع العمل بها (متى) حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة العدالة والضبط. اما الاخبار عن والواقعات فلا بد فى صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب ان ينظر فى امكان وقوعه وصار فيها ذلك اهم من التعديل ومقدما عليه اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط. وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة واذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الاخبار بالامكان والاستحالة ان ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران». وبذلك اصبح التاريخ الاسلامي جميعا حقبة حقبة بل واقعة واقعة موضعا للدراسة والتحقيق من هذا الجانب. وقد اجتذبت السيرة النبوية اكثر اهتمام الدارسين بهذا التاريخ وصارت محورا لعمل المحققين وميدانا لمجهودات متواصلة منذ عدة قرون حتى يومنا هذا. ورغم هذه الجهود ما زالت السيرة لنبوية بامس الحاجة الى الدراسات النقدية الجادة التى يمكنها الخراق الحجب والتاثير على مواضع الخروق التى احدثتها اصابع الكذابين والقصاصين واهل الملل والنحل. والدراسة التى بايدنا هى من دراسات المجموعة الثانية غرضها التحقيق فى الوقائع والتدقيق فى صحة ما ينسب الى رسول الله (ص) من الناحية التاريخية بمعنى ان موضع اهتمامها هو التاريخ فحسب فلم تدرس من السيرة الا- ما كان تاريخا وما وقع منها فى هذا المجرى ولهذا كانت الحادثة موضع اهتمامها لا الحديث والواقعة النبوية لا القول النبوي. فهى ليست دراسة قهية فى السيرة النبوية ولا كلامية ولاسياسية بل هى دراسة تاريخية حصرت اهتمامها بهذا الجانب فحسب وحين يكون للواقعة اكثر من وجه تاريخي وغيره آكحادثه الاسراء والمعراج، ووقعة الغرانيق وما الى ذلك، فاننا نجد المؤلف لم يبحث فيها الا بعدها التاريخي، اى مسالة وقوع هذه الحادثة وعدم وقوعها مع الكشف عن ملابسات ذلك الوقوع ويترك ما فى الحادثة من قيمة اعجازية او مداليل آكلامية او تشريعية لمجالاتها الخاصة. وقد سعت الدراسة جاهدة لان تضع الامور فى سياقها الطبيعي وترجع الظواهر الى اسبابها الحقيقية التى اخفت رؤوسها تحت السطح. ولم تنهج فى اثبات ما ينسب للسيرة او ينفى عنها المنهج الكلاسيكى المعروف، من التدقيق فى سند الواقعة وقضايا الجرح والتعديل، وما الى ذلك، بل انتجتها منها اجتماعيا نفسيا يركز على تحليل الظروف والملابسات الاجتماعية والسياسية الشخصية التى اكتنفت تلك الواقعة والخروج من خلال هذه المقارنات بترجيح جانب على آخرنفسيا او اثباتا. وقد اكسبت المؤلف تجربته الطويلة فى هذا الميدان قدرة جيدة على تشخيص الظواهر وامتدته بخبرة واسعة مكنته من سبر اغوار المجتمع الجاهلى ومجتمع صدر الاسلام ليغوص مع الاحداث التى تبرز على السطح الى جذورها، فهو لا يكتفى عادة بالوصف العام الذى لا يلامس حقيقة الاشياء ولا يهتدى الى كنهها. وقد اختلط المؤلف له منهجا فى هذه الدراسة اراد له ان يكون كما يبدو وسطا بين منهج بعض المؤرخين المسلمين المحدثين والمنهج الاستشراقى التشكيكى فى دراسة التاريخ. فحاول ان يلتقط من الاول ايجابياته ويتجنب فى الثانى مخاطره وسلبياته. وربما مال فى بعض تحليلاته الى هذا الطرف او ذاك فقد اخذ على المستشرقين مثلا نفهم للجانب الغيبى فى دراسة السيرة ونكرانهم لكل ما وراء المادة والحس. بينما لم يتفق مع بعض المسلمين فى اعتبارهم السيرة النبوية ظاهرة سماوية حضة مقطوعة الصلة بالناحية البشرية وصيرورتها فى الزمان والمكان. وجريا على هذا المنهج بدا المؤلف دراسته بمقدمة تمهيدية درس فيها طبيعة المجتمع الجاهلى قبل الاسلام والعناصر المؤثرة فيه والقيم والنظم التى كانت تحكمه وتؤثر فيه وخاصة النظام القبلى وما يترتب، وما يتصل به من اهتمام بالانساب وضبط لها باعتبارها الخيط الوحيد الذى يجمع اولئك الناس المنتشرين فى صحراء مترامية الاطراف لا يوجد فيها استقرار دائم ولا وطن دائم ولا سلطان دائم. لقد ثابر المؤلف واجتهد فى تحليل المجتمع الجاهلى وحاول ان يتعقب العناصر المؤثرة فيه الى ما بعد الاسلام ويكشف عن دورها فيما بعد فى نشوب النزاعات وانشاء التحالفات فى العصر الاسلامي، وقد مال المؤلف فى

بعض هذه الابحاث الى الجانب الثانى (اى المنهج الاستشراقى) مما جعله ينتهى الى نتائج لا نتفق معه فيها، اشرنا الى بعضها فى الهامش بتعليقات مختصرة. لكن ذلك لا يضعف الدراسة ولا يقلل من اهمية الجهد المبذول فيها. واخيرا نتقدم بجزيل الشكر والامتنان الى مركز الغدير للدراسات الاسلامية الذى احتضن هذه الدراسة وعمل على نشرها بعد ان مر على نقلها الى العربية اكثر من اربع سنوات. داعين المولى جل شاناه ان ياخذ بايدينا جميعا لما فيه خير امتنا وخدمته ديننا الحنيف ونبيه الكريم (ص) و آخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين. على السيد هادى ١٨ جمادى الاخرة ١٤١٧ هـ ٣٠/١٠/١٩٩٦ م بيروت لبنان.

المقدمة المؤلف

اتفق جماعة من الاخوة العلماء، على تاليف سلسلة كتب فى حياة الرسول (ص) والائمة المعصومين (ع) على النحو الذى يلى حاجات عصرنا الراهن، ويستجيب لطموحات المعاصرين الفكرية والنفسية، وقد تحمل كل واحد من هؤلاء الاخوة الكرام الكتابة فى حياة واحد او اثنين من هؤلاء العظام، وعهدوا الى بالبحث فى سيرة الرسول (ص) والكتابة فى هذا الامر المهم، نظرا لمعرفةهم باشتغالي فى تدريس تاريخ الاسلام وسيرة النبي الاكرم لعدة سنين فى جامعة طهران. هذا وقد الفت كتب عديدة فى سيرة الرسول (ص) يمكننا رغم تعددها وتنوعها تصنيفها الى مجموعتين رئيسيتين تنقسم كل واحدة منهما الى مجاميع اصغر. المجموعة الاولى: وهى الكتب التى صنفها المؤلفون المسلمون ابتداء من القرن الهجرى الثانى الى يومنا هذا، وكان الهدف منها سد حاجة المسلمين وتلبية رغبتهم الشديدة فى الاطلاع على حياة الرسول. وكان من الطبيعى ان تزداد الاضافات والاسقاطات التى تنسجم مع مذاهب المؤلفين كلما ابتعدنا عن عصر الرسول وكما زادت العقائد وكثرت الفرق والنحل فى العالم الاسلامى. وكلما اقتربنا من عصر الرسول (ص) كلما قل الحذف والاسقاط وكذلك الاضافات والزوائد المذهبية. اما التعصبات القومية والقبلية فستبقى تلقى بظلمتها الثقيل على السيرة النبوية وتترك آثارها عليها. لقد انتقل ميدان المواجهة بين قبائل جنوب الجزيرة وشمالها من السهول والصحرا والمدن الى الشعر والحديث والتاريخ والقصة، وقد ظهرت آثار هذه النزاعات وامثالها حتى على كتب السيرة. المجموعة الثانية: وهى الكتب التى صنفها المؤلفون الاوروبيون او الاجانب غير المسلمين، بشكل عام. وكان الغرض منها كذلك تلبية رغبة اقوامهم واهل ديانتهم فى الاطلاع على حياة رجل ربما يكون قد ترك اكبر الاثر فى التاريخ. اليهود المتعصبين، الذين يعتبرون نبي الاسلام (ص) ذلك الانسان الذى وجه الى دينهم اقوى الضربات، والحق به اعظم الاضرار، فلا يسعهم والحالة هذه ان ينظروا اليه نظرة محايدة خالية من الخصومة، فحرفوا الوقائع والاحداث بالصورة التى تخدمهم وتضرر بالاسلام. وقد تعرض ايمان المفكرين والمؤرخين المؤمنين بالكنيسة والقائمين عليها الى هزة عنيفة منذ القرن التاسع عشر فما بعد نتيجة لظهور افكار عصر النهضة منذ القرن الثامن عشر، ونال الكتاب قدرا اكثر من الحرية، ولم يعودوا مجبرين على متابعة اصحاب الكنيسة، اضعف الى ذلك نفوذ الروح العلمية والتحقيقية فى طريقه كتابة التاريخ، فقد تبدلت طريقته ولهجة كتاب تاريخ الاسلام وسيرة الرسول (ص) فى اوربا، وآلت بالتدريج الى النقد العلمى للمصادر وابتداء وجهات النظر المحايدة والمجردة عن العصبية الدينية والقومية بدلا عن النهج السابق، وبذلت المساعى للتحقيق فى حياة نبي الاسلام (ص) وسيرته بنفس القدر المبذول للتحقيق فى سيرة موسى وعيسى (ع) وكنفوسىوس وزرادشت وامثالهم. ورغم ان التحقيق العلمى فى المصادر والوثائق والروايات المرتبطة بتاريخ صدر الاسلام اعطى نتائج مهمة نسبيا من وجهة نظر كتابة التاريخ، وطرح جانبا اكثر آرا مصادر تاريخ الاسلام المتحيزة والناجمة عن العصبية، فقد برز خطر آخر فى هذا النوع من الكتابة قتل بصيص الامل الذى اوجده النفس التحقيقى غير المنحاز، وابدله الى حالة من الياس، ولم يكن ذلك فى تاريخ الاسلام فحسب بل ظهر بنفس الشدة بل اكثروا خطر فى تاريخ الاديان والمذاهب الاخرى. لم يكن هؤلاء الكتاب ينظرون الى الدين باعتباره شيئا فوق الطبيعى، انما تعاملوا معه تعاملهم مع سائر الشؤون الاجتماعية، ولم يكن ثمة فرق فى نظرهم بين الدين وباقي الامور والظواهر الاجتماعية، والتحقيق فى تاريخ و ظهور الاديان لديهم كالتحقيق فى تاريخ السياسة والاقتصاد والشؤون الحربية وتغلب بعض الاقوام والدول على بعض، ولذلك صار الدين عندهم

امرا دنيويا. وان خطر تحول الدين الى امر دنيوى من شأنه ان يززع ايمان وعقيدة اولئك المشتاقين المتطلعين الى معرفة سير العظام من اصحاب الرسالات وتاريخ ظهور الاديان، وهذا هو خطر «تدوين التاريخ» الذى يرى ان معرفة كل شىء يجرى فى اطار التاريخ ومن خلال تطوره، ولا يقيم اية اهمية «للصورة» و «الماهية» و «المثال»، وهكذا يصبح الدين امرا طبيعيا ناشئا عن غريزة الخوف او المصالح الاخلاقية او العامل الاقتصادى او ما شابه ذلك، لان تاريخ تطور كل شىء يجرى فى اطار الطبيعة، وتنطوى «الكتابة التاريخية» و «انباء التاريخ» على خطر اهم، ذلك هو خطر الوقوع فى النسبية ونسبية الامور وخصوصا الاخلاقيات، فموجب هذه النظرة يجب ان تكون حقيقة الامور متحققة فى تطورها ونموها، اذن ليست هناك حقيقة مطلقة كتلك التى يذهب اليها اصحاب الاديان ويدعون لها، كما لا توجد قيم اخلاقية مطلقة، كل شىء مرتبط بطبيعته السياسية غير الثابتة، وله فى كل حالة وآن حقيقة تختلف عن الحالات السابقة واللاحقة لها. ولكن اثبتت الهزات والاضطرابات والتحويلات الاجتماعية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ان عدم الايمان بحقائق مسلمة وثابتة وغير قابلة للتغير، لا يسلب المجتمعات البشرية قدرتها على تحسين اوضاعها الاجتماعية والاخلاقية فحسب بل ويجعل العلاقات الاجتماعية والاخلاقية فى حالة مؤسفة من الضعف والانحلال، ومهما كانت القوانين الوضعية صارمة وشاملة ومهما بذل من جهد لتطبيقها لا يمكنها ان تحل محل قوانين الاديان الابدية الحاكمة على القلوب والمهيمنة على اعماق نفوس البشر، ففى بناء المجتمعات تكون القوانين الوضعية كالقوانين والقواعد الهندسية التى يستخدمها المهندسون والمعماريون فى تشييد المباني. فلو فقدت المواد الانشائية اللازمة وارىد اقامة مبنى طبقا للقوانين الهندسية من الورق والمقوى مثلا، فقد يبدو مثل هذا المبنى جميلا ومستقرا من الخارج، ولكنه سرعان ما ينهار عند تعرضه لابطس هزة، كما هى عليه الاين المجتمعات التى بلغت قمة الرفاه الاقتصادى التى يجرى فيها تطبيق القوانين الوضعية بشدة وصرامة، نجدها تعيش الفساد الاخلاقى والاجتماعى اكثر من اى مكان وزمان آخرين. اذا لا يمكن النظر الى الدين على انه مجرد ظاهرة تاريخية، ولا يمكن قراته من خلال التطورات والتحويلات التاريخية الصرفة، فالنظرة التاريخية الى الدين شىء لازم لكنه غير كاف، فاذا ما حاولنا متابعة ظهور وانتشار دين ما على ضوء الموازين التاريخية المتاحة، فيجب ان يتم ذلك من خلال الانتباه الى كمال «الصورة» و «المثال» وخلودهما، فهما الحاکمان على تلك التطورات والتحويلات والملازمان للدين فى جميع مراحلها، وهما اللذان يحفظانه من السقوط فى حضيض النسبية، بل يجب ان نعتبر ذلك اصلا، اما مراحل التطور والتحول والمجريات التاريخية فهى فرع. يقول الشاعر الايرانى مولوى: انك لترى صورة القمر والنجوم مستقرة على ماء يجرى باستمرار [١]. ان الامور الطبيعية فى عالم الطبيعة والامور الانسانية ومنها التاريخ، انما هى بناء - على طبيعتها الزمانية - دائما فى حالة حركة وتجدد وسيلان، وهذا من الامور المسلمة تقريبا لدى الجميع باستثناء اولئك الذين ينكرون الحركة، اما الامور غير المادية وغير الطبيعية فهى ليست فى معرض الكون والفساد، وليس لها صيرورة، بل ان وجودها ثابت ومتحقق من الاول ولا تخضع للحركة والتغير، واثبات ذلك من شؤون العلم الالهى وما ورا الطبيعة، ونحن نبحثه هنا على انه من الامور المسلمة او باعتباره اصلا موضوعيا ثابتا. كذلك الذات الالهية المنزهة عن المادة والتركيب والحاكمة على الكون والمهيمنة عليه، هى الاخرى ابدية لا تتغير، وكذلك القوانين الالهية الحاكمة على العالم والهادية له بحكم الله، هى الاخرى ابدية لا تتغير، ومن هذه القوانين قانون الحركة والسيلان وتطور الامور الطبيعية الذى هو ثابت وابدى. فقانون التطور الذى يبين تطور الموجودات وتغيرها الدائم هو نفسه ثابت وابدى من ناحية انتسابه الى ما ورا الطبيعة و ذات البارى. ان الاديان الالهية ابدية وازلية وثابتة كقانون الحركة والتكامل من ناحية انتسابها الى ذات البارى تعالى، اما من ناحية وجودها فى عالم الطبيعة وفى المجتمعات الانسانية فانها تابعة الى قوانين الطبيعة ومنقادة للحركة والاستمرارية والتطور. ولا - بد لمن يؤرخ للاديان الالهية ان ياخذ بنظر الاعتبار كلا الجانبين الطبيعى والالهى، فهو فى اطار الطبيعة والمجتمعات الانسانية مشمول بقوانين الزمن والتاريخ والحركة، ومن جهة كونه الهيا وكونه فوق الطبيعة ثابت وازلى، هذا هو سر التوافق والتوافق بين الاية الشريفة (ان الدين عند الله الاسلام) «آل عمران: ١٩». الناظرة الى الجانب الالهى الخالد، والاية الشريفة (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى) «المائدة: ٣». الناظرة الى سير الدين فى مجرى الطبيعة والتاريخ. ولكن ينبغى الانتباه

الى ان تلك سنة الهية، والسنة الالهية غير قابلة للتغيير والتبدل، فكل شىء فى عالم الطبيعة ومنها التاريخ يجرى طبقا لاسباب والمسببات القانونية، اى العلة والمعلول. كل شىء فى الطبيعة- بناء على ارادة الله الازلية- مقهور للطبيعة ومحكوم لاحكام تلك السنة، لكن لا يمكن للنظرة المتفحصه الا ان تلمح اليد الخفية الغيبية والمشية الالهية فى سير هذه الاحداث الطبيعية وضمن هذا التسلسل من العلل والمعلولات. واخيرا فانه لا بد للمؤرخ والمحقق من عينين ينظر باحديهما الى عالم الغيب والارادة الالهية، وبالأخرى الى عالم الحس وعالم الطبيعة ويرى فيها اسبابه ولوازمه، ينبغى ان يتمتع بالنظرتين ولا يكون احادى النظرة والاتجاه. فرغم ايماننا حين نستعرض احوال النبى الا-كرم (ص) بانه مبعوث من قبل الله سبحانه وتعالى وانه هادى البشرية، وان دينه اكمل الاديان، وهو خاتم الانبياء، وان رسالته فوق الزمان والمكان، ومصونة عن التغيير والتبدل، ولكننا لا نملك الا ان نتابع سير الاحداث التاريخية وفقا لما يجرى فى الطبيعة وعالم المادة، فنبى الاسلام (ص) كاي بشر آخر ولد من اب وام، ثم كبر وتزوج، واخيرا ارتحل عن هذه الدنيا. فالولادة والموت، والرشد والبلوغ، والشباب والشيوخه، انما هى امور حتمية يواجهها كل كائن حى، ولا يوجد فى حياته (ص) من هذه الناحية امر معجز خارق للعادة، واذا ما حكمنا عليه (ص) من خلال التاريخ فيجب ان تنسب الاءمور الخارقة للعادة والمعجزات والكرامات الى الجانب الالهى فيه، ونتحدث فى ذلك على ضوء معتقداتنا. واذا ما سكت التاريخ عن هذه الناحية، فلا نبدل سكوته هذا الى نعى وانكار وتؤكد فى باب المعجزة على معجزته التاريخية فقط، وهى القرآن الكريم الذى ثبت انه ابدى، ولا يستطيع احد ان ياتى بمثله، وقد انجز الله وعده وتعهد بحفظه من اى تغيير او تبديل طيلة الاربعة عشر قرنا الماضية، وسيبقى الى الابد. فضلا عن هذا، فان اى امر معجز نسب اليه، له وجهان وجانبان كوجهى العملة الواحدة، لا يمكن فصلهما، احدهما الهى غيبى، فنحن على يقين ان لا شىء يخرج عن ارادته سبحانه وتعالى، ومهما بدا الامر مستحيلا فى عالم الطبيعة، فانه خارج عالم الطبيعة امر ممكن وقابل للتصور. والجانب الاخر هو الجانب الطبيعى الذى نعتقد فى حدوده ان جميع ما ينسب الى الانبياء (ع) من معجز وامور خارقة للعادة قابلة للتعليل والتفسير من ناحية عالم المادة والطبيعة، واذا ما ظهر عجز فى تحليلها وتعليلها فان ذلك عائد الى عجزنا نحن، وما اكثر الامور الطبيعية فى هذا العالم التى ما زالت عقول البشر عاجزة عن ادراك كنهها وتفسيرها! وسنسى مع ذلك الى توجيه تلك المسائل بما تتيحه لنا مداليل الايات والاحبار الشريفة، وبما لا- يذهب بنا بعيدا عن الذوق والسليقة، توجيهها لا يتنافى وقوانين الطبيعة الظاهرة المانوسة لدينا. وهذه التوجيهات التى ستطرح فى مناسباتها من الوقائع التاريخية وحوادث حياة الرسول (ص) لا تعنى خوضنا فى المسائل الكلامية والاعتقادية، فنبحث مثلا بمناسبة الاسرا والمعراج مسألة المعراج الجسمانى والروحانى، فهذه الأمور ومثالها من مسائل علم الكلام الاسلامى، ولا صلة لها بالتاريخ. ولانها ذكرت فى سيرة الرسول (ص) فنسبها الى استعراضها بالقدر الذى تدعو الحاجة اليه، وسيكون ذلك فى نطاق سيرة الرسول (ص) والتاريخ، وسنصرف النظر عن المعجزات التى نسبت اليه (ص) والتى لا صلة لها بحادثة او واقعة تاريخية معينة، اذ تنعدم هنا العلاقة بالتاريخ وتدخل المسألة فى مباحث علم الكلام ومسألة اثبات النبوة الخاصة.

القرآن وسيرة الرسول

لا يمكننا قول شىء فيما يخص القرآن الكريم، فوق ما يقوله القرآن نفسه، وهذه الاية الشريفة التى تقول: (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) «البقرة: ٢» هى بيان لصفيتين مهمتين فى القرآن الكريم: كونه قطعيا، وكونه هاديا، وتعنى قطعيتها بالنسبة للمسلمين شيئين، احدهما: صدوره القطعى من قبل الله تعالى، والاخر: ان جميع آيات هذا الكتاب العظيم سمعت بلسان عربى مبين نطق بها الرسول (ص)، وحفظت بدقة وحرص متواصل طيلة اربعة عشر قرنا، وستبقى هكذا محفوظة على مر العصور وتعاقب الايام، وما نقصده بهذا الحديث ان القرآن الكريم من اوثق الوثائق الباقية عن الرسول (ص) واكثرها يقينية. واذا ما تردد البعض من غير المسلمين فى قطعيه صدور القرآن الكريم عن الله سبحانه وتعالى، فانهم لا يترددون بصدور كلماته وآياته عن الرسول (ص) نفسه، ولا قيمة لتردد قلة معدودة فى هذا المجال، وربما سنتعرض لهذا الموضوع فى مباحث قادمة بصورة استدلالية اكثر تفصيلا. وكون القرآن قطعى

الصدور عن الرسول (ص) (اي مع قطع النظر عن كونه وحيا الهيا) فان ذلك وحده يجعله وثيقة لها قيمة تاريخية خاصة بالنسبة لحياة الرسول (ص). اما ما يمكن استخلاصه بشكل واضح من الاية الشريفة، ان القرآن الكريم بلحاظ الموضوع كتاب هداية وارشاد وليس شيئا آخر، وما نجده من كثرة الايات التي تتحدث عن حياة الانبياء امثال: يوسف وموسى ونوح وابراهيم وعيسى عليهم السلام، او التي تتحدث عن مصير بعض الاقوام من قبيل عاد وثمود وقوم لوط وامثالهم، انما هي متعلقة بالدرجة الأولى بموضوع الهداية والتوجيه، وهكذا الايات التي تتحدث عن سيرة الرسول (ص) وشؤون حياته وما واجهه من احداث وتطورات في اثنائها هي الاخرى تتعلق بموضوع الهداية قبل اي شيء آخر، ويتضح هذا المعنى عند ادنى تأمل فيها. ولكن ذلك لا يمنع من ان تكون تلك الايات بمثابة وثيقة قطعية يستند اليها كتاب السيرة لمعرفة حياة الرسول (ص) والاحداث التي حفت بها حياته الشريفة. وبذلك يكون القرآن الكريم اعظم الوثائق التاريخية اتقاناً، واكثرها قطعية بالنسبة الى بعض ما حدث للرسول (ص) اثناء حياته، وهو يؤيد ما ورد حول حياته (ص) في المصادر الأخرى. ولكن نظرا لان مسألة الهداية هي الموضوع الاساسي لهذه الايات، فانها لم تات في القرآن الكريم بنظم وترتيب تاريخي، بل جاءت في مواضع ومناسبات اخرى يرتبط اكثرها بالهدف الاساسي للقرآن الكريم. مصادر سيرة الرسول (ص):

بدا تدوين سيرة الرسول (ص) في الوقت الذي اصبحت الحاجة اليها محسوسة، وقد استشعر الناس بهذه الحاجة عندما فقدوا تدريجيا عددا كبيرا من الصحابة (ص) الذين كانوا شهودا على احداث كبرى في حياته، وكان المسلمون، من غير العرب واهل البلاد المفتوحة، يستشعرون عظمة الدين الجديد بعمق ويتوقون لمعرفة احوال صاحب الرسالة (ص)، فقد كان اهل المدن الاسلامية الكبرى من الكوفة والبصرة ودمشق ومصر والرى في اتم الشوق واللهفة لمعرفة وقائع ايام الرسول (ص) وصدر الاسلام، وقد اصبح العدد المحدود من اصحاب الرسول (ص) الذين ما زالوا على قيد الحياة مرجعا اوليا ومصدرا اساسيا يرجع اليه في هذا المجال، ثم اخذ المحيطون بهم والرايون عنهم والذين اطلق عليهم (التابعون)، يحتلون نفس الموقع تدريجيا. وكانت مرجعية التابعين من اولاد الصحابة في المدينة، سيما اولاد المهاجرين الذين هم اقرب الناس اليه (ص)، اكثر وضوحا من غيرها، وتؤكد هذه المرجعية اكثر حين يكون لدى التابعي نفسه شوق ورغبة في الاطلاع على حياة الرسول ووقائع صدر الاسلام، وتذكر كتب السيرة والحديث علمين بارزين من التابعين هما: ابان بن عثمان بن عفان، ابن الخليفة الثالث والمتوفى عام (٨١ او ١٠٥هـ) والاخر ابو عبدالله (عروة بن الزبير بن العوام الاسدي) المتوفى عام (٩١هـ) وابوه من اشهر اصحاب الرسول (ص)، ولكن لاسباب سياسية كما يبدو لم يمض العمل بتدوين سيرة الرسول (ص) ايام الامويين الا ببطء، ولم تسمح المصالح والمطامع السياسية لهذا العمل ان يتقدم رغم شوق الناس وتعطشهم الشديد اليه. والسبب في ذلك هو ان بنى امية كان اكثرهم من اعداء الدعوة الاسلامية ايام انطلاقتها الاولى، وعلى راسهم زعيم هذه العائلة ابو سفيان، الذي كان من الاعداء الرسول (ص)، وهو الذي قاد معارك كفار قريش ضد المسلمين، ولم يسلم هو وابناؤه وعدد آخر من بنى امية الا في السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة. فكتابة تاريخ الاسلام وتدوين حياة الرسول (ص) واستعراض فتوحاته، التي كان خصمه الرئيسي فيها وعدو الاسلام الاول بنى امية واجداد الخلفاء الامويين وعشيرتهم، ان تاريخا كهذا لا يسر هذا البطن الا اذا حرف كثير من الاحداث والوقائع بالشكل الذي يخدم مصالح بنى امية. هذا وقد كان اهل المدينة (اي الانصار) قد اوقعوا بالمكيين والقرشيين، وخصوصا بنى امية، ضربات قوية، ولم يقفوا الى جانب عثمان بن عفان الأموي في الثورة التي آلت الى قتله، فمن الطبيعي في مثل هذه الحالة ان تكون ثمار تدوين سيرة الرسول (ص) لصالح الانصار، وهذا ما لا يسع خلفاء بنى امية قبوله. ومن جانب آخر كان بنو هاشم، وهم اسرة الرسول (ص)، قد بذلوا التضحيات الجسام في تلك المعارك، وابروا من الشجاعة والاقدام شيئا عجيبا، وكان امير المؤمنين على بن ابي طالب (ع) قد قتل جماعة من رؤوس بنى امية في معركة بدر، في الوقت الذي كان خصمه الرئيسي ومدعى الخلافة من بنى امية هو معاوية بن ابي سفيان. فلا يمكن لبنى امية ان يرتضوا تدوين تاريخ، يحتل اعداؤهم موقع الصدارة فيه دفاعا عن الاسلام وتأييدا له، ويحتل اجدادهم موقع الاعداء الالدا للاسلام ودعوته، اللهم الا ان يكتب تاريخ ليس فيه ذكر لاعمال بنى امية، ولا اشارة لمعاداتهم الشديدة للاسلام. وهناك من الشواهد التي في ايدينا ما يؤكد هذا الامر بل يجعله اقرب الى اليقين. احد هذه

الشواهد روايةً ينقلها الزبير بن بكار في الموفقيات، [٢] جاء فيها: «قدم علينا سليمان بن عبد الملك، [٣] حاجا سنة اثنتين وثمانين، وهو ولي عهد، فمر بالمدينة، فدخل عليه الناس، فسلموا عليه، وركب الى مشاهد النبي (ص) التي صلى فيها، وحيث اصيب اصحابه بأحد، ومعه ابان بن عثمان وعمر بن عثمان، وابو بكر بن عبدالله بن ابي احمد، فاتوا به قباء، ومسجد الفضيخ، ومشربة ام ابراهيم، واحد، وكل ذلك يسألهم، ويخبرونه عما كان، ثم امر ابان بن عثمان ان يكتب سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومغازيه، فقال ابان: هي عندي قد اخذتها مصححة ممن اثق به، فامر بنسخها، والقي فيها «الى عشرة من الكتاب، فكتبوها في رق، فلما صارت اليه نظر فاذا فيها ذكر الانصار في العقبين، وذكر الانصار في بدر، فقال: ما كنت ارى لهؤلاء القوم هذا الفضل، فاما ان يكون اهل بيتي غمصوا عليهم، واما ان لا يكونوا كذلك. فقال ابان بن عثمان: ايها الامير، لا يمنعنا ما صنعوا بالشهيد المظلوم من خذلانه، ان القول بالحق، هم على ما وصفنا لك في كتابنا هذا. قال: ما حاجتي الي ان انسخ ذاك حتى اذكره لامير المؤمنين، لعله يخالفه، فامر بذلك الكتاب فحرق. وقال: اسال امير المؤمنين اذا رجعت، فان يوافقه، فما ايسر نسخه! فرجع سليمان بن عبد الملك فاخبر اباة بالذي كان من قول ابان، فقال عبد الملك: وما حاجتك ان تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل، تعرف اهل الشام امورا لا تريد ان يعرفوها. قال سليمان: فلذلك يا امير المؤمنين، امرت بتخريق ما كنت نسخته حتى استطلع راي امير المؤمنين. فصوب رايه. وكان عبد الملك يثقل عليه ذلك، ثم ان سليمان جلس مع قبيصة بن ذؤيب، فاخبره خبر ابان بن عثمان، وما نسخ من تلك الكتب، وما خالف امير المؤمنين فيها، فقال قبيصة: لولا ما كرهه امير المؤمنين، لكان من الحظ ان تعلمها وتعلمها ولدك واعقابهم، ان حظ امير المؤمنين فيها لوافر، ان اهل بيت امير المؤمنين لاكثر من شهد بدرا، فشهداها من بنى عبد شمس ستة عشر رجلا من انفسهم وحلفائهم ومواليهم، وحليف القوم منهم، ومولى القوم منهم، وتوفى رسول الله (ص) وعماله من بنى امية اربعة: عتاب بن اسيد على مكة، وابان بن سعيد على البحرين، وخالد بن سعيد على اليمن، وابو سفيان بن حرب على نجران، عاملا لرسول الله (ص) ولكني رايت امير المؤمنين كره من ذلك شيئا، فما كره فلا تخالفه. ثم قال قبيصة: لقد رايتني وهو يعنى عبد الملك وعدة من ابناء المهاجرين، مالنا علم غير ذلك حتى احكمناه، ثم نظرنا بعد في الحلال والحرام. فقال سليمان: يا ابا اسحاق، الا تخبرني عن هذا البغض من امير المؤمنين واهل بيته لهذا الحي من الانصار وحرمانهم اياهم، لم كانا؟ فقال: يا ابن اخي، اول من احدث ذلك معاوية بن ابي سفيان، ثم احدثه ابو عبد الملك، ثم احدثه ابو ك. فقال: علام ذلك؟ قال: فوالله ما اريد به الا لاعلمه واعرفه. فقال: لانهم قتلوا قوما من قومهم، وما كان من خذلانهم عثمان رضى الله عنهم فحقدوا عليهم، وتوارثوا ذلك الحقد، وكنت احب لامير المؤمنين ان يكون على غير ذلك لهم، وان اخرج من مالي، فكلمه. فقال سليمان: افعل والله. فكلمه وقبيصة حاضر، فاخبره قبيصة بما كان من محاورتهم. فقال عبد الملك: والله ما اقدر على غير ذلك، فدعونا من ذكرهم، فاسكت القوم». وتتضمن الرواية المذكورة، التي نكاد نطمئن الي صحتها، نقاطا مهمة، الاءولى: رغبة الجيل الثالث بعد الرسول في الاطلاع على سيرته (ص). والثانية: ان هذه السيرة قد دونت منذ القدم، فاخذها ابان بن عثمان وهو من التابعين عن احد الثقات وربما كان من اصحاب رسول الله (ص). وعلى هذا يمكننا القول ان هناك من بين الصحابة من كان يدون احداث ذلك العصر، ويؤيد ذلك خبر مروى عن عبدالله بن عمر بن العاص انه كان يكتب كل ما يسمعه من الرسول (ص) في كتاب اطلق عليه (الصحيفة الصادقة) [٤] ولا تدل الرواية على تدوين الوقائع والاحداث بل تنص على تدوين الحديث. والنقطة المهمة الأخرى التي هي محل بحثنا ان بنى امية كانوا يكرهون انتشار سيرة الرسول (ص) وتدوينها لاسباب سياسية او عصبية عشائرية، او بصورة اكثر تحديدا بسبب الاحداث الدامية التي وقعت بين الانصار وبنى امية. وهناك روايات تتحدث عن ان عبد الملك بن مروان كان قدسال عروة بن الزبير كتب بعض الاسئلة المتعلقة باحداث صدر الاسلام واجابه الاخير عليها. وربما كان يمكن اعتبار ذلك دليلا على رغبة عبد الملك في الاطلاع على سيرة النبي (ص) لو كان ما سال عنه عبد الملك ذا قيمة واهمية او من المسائل الحساسة كفضائل بنى هاشم ومناقب الانصار، انما كانت حول مسائل اخرى من قبيل خروج ابي سفيان لمعركة بدر، او وقائع معركة خالد بن الوليد في فتح مكة وغير ذلك. ومن ضمن الروايات التي تحكى معارضة بنى امية لتدوين السيرة، خبر جاءنا عن خالد بن عبدالله القسري، حاكم العراقين

في عهد هشام بن عبد الملك، والمقتول في السجن عام ١٣٥ او ١٣٦ هـ، حيث يقول الخبر الذي اوردته صاحب الاغانى: ان خالد بن عبدالله طلب من العالم والمحدث المشهور محمد بن شهاب الزهري ان يكتب له السيرة، فقال له: فانه يمر بي الشيء من سير علي بن ابي طالب صلوات الله عليه اذكره؟ فقال: لا، الا ان تراه في قعر الجحيم. [٥] وكان خالد واليا من قبل هشام بن عبد الملك، ورغم وجود الصفات الجيدة من السخاء والفصاحة الا انه كان رجلا بخيلا ومتهما في دينه، وبالفساد وخصوصا الفساد الاخلاقي، حيث نقل عنه في شبابه انه: كان في حدائته يتخنت ويتبع المغنين والمخشين متهما ويمشى بين عمر بن ابيريعه وبين النساء في رسائلهن اليه [٦]. رغم هذا كله لم يستطع بنو امية الوقوف امام رغبة الناس وشوقهم في الاطلاع على السيرة، فشرعت شخصيات عظيمة وعلماء كبار، امثال: ابن شهاب الزهري، وابو الاسود، وموسى بن عقبة، ومحمد بن اسحاق، وابو معشر السندی بتأليف وتدوين سيرة الرسول (ص). ومن اهم تلك الاثار، التي وصلت الينا واشملها: سيرة محمد بن اسحاق بتلخيص ابي محمد عبد الملك بن هشام الحميري النحوي المتوفى (٢١٨ او ٢١٣ هـ) كما انها تعتبر اقدم واثق كتاب حول الرسول (ص). ومصادرنا الاساسية في كتابنا هذا، اولاً: ذلك التلخيص (اي تلخيص ابن هشام) المعروف بسيرة ابن هشام، وثانياً: تاريخ الطبري، الذي ينقل سيرة ابن اسحاق بطرق اخرى (اي عن رواة آخرين نقلوا عن محمد بن اسحاق، امثال سلمة بن الفضل، ويونس بن بكير. والثالث: سيرة ابن اسحاق عن نسخة القرويين، وهي النسخة التي وجدت في مكتبة القرويين في مدينة فاس المغربية، وبتحقيق محمد حميد الله عام ١٩٧٩ م، وقد طبعت في المغرب، ونسخة القرويين برواية يونس بن بكير. ومن مصادرنا الاخرى: كتاب (المغازي) لمحمد بن عمر الواقدي (طبعة لندن، ١٩٦٦) وطبقات ابن سعد كاتب الواقدي (منشورات زاخاو، برلين) وكتاب (انساب الاشراف) للبلاذري (ج ١)، وكتب اخرى سنشير اليها اثناء البحث.

الجزيرة العربية قبل الاسلام

اشاره

لم يكتشف تاريخ شبه الجزيرة العربية بشكل علمي الا في القرن التاسع عشر، ففي هذا القرن توغل السياح وعلماء الاثار في الصحرا العربية، و عثروا على كثير من الاثار والمجسمات القديمة التي وجدوها موزعة في الاجزا المأهولة منها، وخاصة في القسم الجنوبي الغني جدا بتلك الاثار. واستطاعوا بعد جهود مضيئة قراتها وتحليل النقوش التي كانت عليها والخروج بنتائج علمية قيمة، ازاحت الستار عن تاريخ قديم، ولولا- هذه الدراسات لكانت تلك الاثار تترقد في باطن الارض حتى هذه اللحظة. وطبقاً لهذه الحفريات ثبت ان هناك حضارات مهمة نمت وترعرعت فوق هذه الارض قبل مولد المسيح (ع)، وخضعت لملوك وحكومات متعددة فرضت سيطرتها على هذه البلاد، ولسنا الان بصدد هذا البحث الذي يشكل اليوم قسماً مستقلاً في الدراسات الشرقية، ذلك ان تلك الحضارة كانت قد زالت وانتهى امرها قبل مولد الرسول (ص) في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، وكان الناس قد نسوا لغتهم وكتابتهم القديمة حتى ان الخط الحميري ما كان يقرأ الا من قبل علماء معدودين في ذلك العصر وبصعوبة بالغة. وقد وجدت اللغة العربية المتداولة حالياً، والتي نزل بها القرآن الكريم على صدر الرسول (ص)، رواجاً ملحوظاً في القرن السادس الميلادي بين البدو والقبائل التي استوطنت القسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية، وظهر شعراً عرب نبغوا في نظم الشعر واطهروا ثرا اللغة العربية ونضجها وقدرتها على حمل ثقافات وافكار غنية، وكانت هذه اللغة قد انتشرت حتى غطت شبه الجزيرة العربية من الشمال الى اقصى الجنوب. وقد رافق الانتشار اللغوي هذا انتشار للعادات والانماط الحياتية التي كان عليها اهل البادية واصحاب اللغة الاصيليون، وسادت في الجنوب كما في الشمال النظم القبلية والاعراف العشائرية نفسها باستثناء بعض المدن في اليمن. وقد تزايد نفوذ هذا النظام القبلي حتى خضع له اهل المدر في مدن مكة والطائف ويثرب، واستحكم بهم تماماً. ولا يمكننا فهم سيرة الرسول (ص) وادراك المعاني الحقيقية لمواقفه مع افراد قبيلته، ومعرفة العلاقات التي كانت تربط قريش بباقي القبائل، وكذلك تقييم حروب الرسول (ص) ومغازيه، الا بدراسة المجتمع

العربى آنذاك والاحاطة باوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ونقصد بهذه الاوضاع نظام القبائل العربية فى ذلك الزمان الذى كان يحكم كما اشرنا سابقا شبه الجزيرة العربية باكملها تقريبا، ولهذا ستتفتى الحاجة لدراسة التاريخ القديم لشبه الجزيرة العربية وما سجله علماء التاريخ وخبرا الاثار عن تلك الادوار القديمة من تاريخ هذا الجزء من العالم.

النظام القبلى

القبيلة: وحدة اجتماعية يدعى افرادها انحذارهم من اب واحد حتى لو كان هذا الاب بعيدا جدا ويعيشون حياة اجتماعية واقتصادية مشتركة. والحياة الاقتصادية المشتركة، هى عبارة عن امتلاك مرعى ومرتع مشترك، والاشتراك فى سوق القبائل المتنقل، وكذلك الانتقال، من مرعى الى مرعى ومن واحة الى اخرى بصورة جماعية، اما الاشتراك فى الحياة الاجتماعية فيتحقق من خلال طاعة رئيس القبيلة او شيخ العشيرة كما يطلق عليه فى شبه جزيرة العرب، ومشاركة افراد القبيلة جميعا فى الحروب والغزو والدفاع عنها، واخذ القصاص وتسلم الديات، ديات قتلى القبيلة من قبيلة القتال، وكذلك دفع دية المقتول الى قبيلته، واتخاذ قرار التحالف مع القبائل الاخرى، او بالعكس، اى الخروج من التحالف وفك عرى الاتحاد، وغير ذلك من امور يشترك افراد القبيلة الواحدة فيها. ويتضح من هذا ان النظام القبلى من شؤون اهل البادية وسكان الصحرا، ولهذا فهو نمط من الحياة متقدم زمنا على نمط حياة المدن، ويعتبر هذا الاخير اعلى مرتبة منه، واكثر تعقيدا من ناحية التطور الاجتماعى. وتعتبر المسؤولية المشتركة لافراد القبيلة، فى الدفاع عن مصالحها الاقتصادية والاجتماعية، من اهم خصائص النظام القبلى، وفيما اذا جفت الصحرا وعجزت مواردها عن تلبية حاجة القبيلة وتوفير مستلزماتها الغذائية والمعيشية فيسكون ابناء القبيلة جميعا امام مسؤولية مشتركة لغزو القبائل، بل القرى والمدن المجاورة، لتأمين الحياة الاقتصادية لجميع افراد القبيلة، وقد اورثت هذه المسؤولية المشتركة لافراد القبيلة، فى الحروب الدفاعية والهجومية، حالة من الشجاعة والاقدام والجلد عند افراد القبائل لا يملكها اهل المدن بصورة عامة. فالحياة الاجتماعية المتطورة تستدعى تقسيم الاعمال بحيث تكون جماعة معينة مسؤولة عن توفير مستلزمات العيش، بينما تتحمل جماعة اخرى قضايا الدفاع وحماية مصالح المجتمع. وكان هذا الاحساس المشترك بالدفاع عن المصالح الحيوية هو المسؤول عن بروز سمة التعصب فى المجتمع الجاهلى، وهى حالة من التضامن الوثيق بين افراد القبيلة الواحدة فى الامور الاقتصادية والمعيشية، ما لبثت ان تحولت الى امر معنوى روحى كالشعور بالاعتزاز والفخر والشرف بالانتماء الى القبيلة، ولولا هذه المشاعر والاحاسيس، ما كان الانسان القبلى مؤهلا للتحرك والحضور الى ساحة الدفاع متى ما دعت الحاجة. ومن هنا صارت الشجاعة والتعصب والشرف والتفاخر بالوحدة القبلية، التى كانت تشكل غالبا من المحافظة على الانساب وعلى سمعة الاء والاجداد من ان يمسها شىء، صفاتا مشتركة لافراد القبائل البدوية بشكل عام، ولا تشاهد مثل هذه الصفات بين سكان المدن بصورة عامة، سيما ما يخص الانساب والمحافظة على اسماء الاء والاجداد التى كانت غائبة فى المدن الا عند الاشراف والاعيان، ولم يتقن اهل المدن فن معرفة القبائل والاحلاف التى تجمعها والتفرعات والافخاذ التى تنشا منها.

اهمية النسب داخل القبيلة

رغم الدور الاساسى الذى تلعبه العوامل الاقتصادية والاجتماعية فى حفظ كيان القبيلة، يبقى للنسب مكانته الخاصة كما تمتاز به القبائل عن بعضها البعض، ويحدد لها شخصيتها الذاتية دون ان تختلط مع بعضها. لهذا كان ابناء القبائل يسعون جهدهم لحفظ اسماء آباءهم واجدادهم، وبذلك لا يحفظون نسبهم، اى هوية قبيلتهم، فحسب، بل ويستحضرون مفاخر القبيلة ومناقبها، ليستحفظوا الهمة، ويزيدوا التعصب حدة وقوة. وكان سكان المدن لا يشعرون بالحاجة الملحة لمثل هذه الأمور، رغم حاجتهم الى عوامل الفخر والشرف لتحقيق الانجازات الاجتماعية المهمة، لكن ليس بتلك الشدة التى كان عليها اهل البادية، وكان عمر ينتقص من انباط العراق ويقول: ان هؤلاء ينسبون انفسهم الى قراهم ومحال سكنهم عندما يسألون عن اصلهم ونسبهم. وكان يوصى العرب بالمحافظة على انسابهم

لكى ينتسوا اليها عندما يسألون عن اصلهم [٧].

حقيقة النسب

يقول ابن خلدون فى مقدمته: ان النسب امر وهمى ليس له حقيقة، وتكمن اهميته فى ربطه للاقارب بعضهم مع بعض وتعصبهم لبعضهم. [٨] ولعل هذا القول ينطوى على شىء من المبالغة، لكنه لا يفتقر الى الحقيقة تماما، فمن خلال مطالعة علم الانساب لدى العرب نجد فى التحالفات القبلية التى تنظم فيها القبائل الضعيفة الى القبائل القوية، ينسب اهل القبائل الضعيفة انفسهم الى القبائل القوية التى تحالفوا معها، الى ان يودى ذلك بمرور الزمن الى نسيان انتمائهم الى قبائلهم الاصلية، ولا يبقى امامهم سوى نسب واحد هو نسبهم الى القبيلة القوية، ويصدق نفس الامر فى حالة الاستلحاق والجوز والولاء بالنسبة الى الافراد.

الحلف

كانت الاحلاف والمواثيق من الامور الشائعة جدا لدى العرب، فرضتها المتطلبات السياسية وضرورات حفظ الكيان القبلى من الزوال، حيث تتفق قبيلتان او اكثر بشكل كلى او فى امور معينة على ان يدافعا عن بعضهما، ويتحدا معاضد العدو المشترك، ويتم هذا الاتحاد فى مراسم خاصة منها القسم او الحلف، ولهذا سمي بالحلف او التحالف، او ما الى ذلك من الفاظ اشتقت من المعنى نفسه، كما تجرى مراسم اخرى بهذه المناسبة سنشير الى بعضها ضمن الحديث عن حلف «المطيين». ولهذه الاحلاف آثار كبيرة على النسب كما اشرنا سابقا فغالبا ما ينتهى ابناء القبائل المتحالفة الى نسب واحد بمرور الزمن ويصيرون وكانهم ابناء قبيلة واحدة.

الجوار

من الاعراف التى كانت شائعة لدى العرب والتى فرضتها طبيعة الحياة الصحراوية والقبلية. فكان الفرد او القبيلة الضعيفان يلجآن الى من يجاورهما ويلوذان به خوفا من الافراد او القبائل الاقوى. فهما يطلبان الجوار، وفى حالة قبول لجوئهما او (جوارهما) من قبل الفرد او القبيلة (المجيرة) فسيعتبر الاعتدا على هؤلاء بمثابة اعتدا على الفرد او القبيلة المجيرة، ويحدث احيانا ان يسترد الجوار بطلب من المجير او غيره، وكل من اعطاء الجوار او استرداده لا يتم الا باعلانه على عامة القوم.

الولاء

وهو من العوامل المهمة فى تعيين النسبة الى القبائل حتى اشتهرت بين العرب مقولة «الولاء لحمه كالحمة النسب». وكان الولاء على عدة انواع، منها ولاء «العنق»، ويتحقق هذا فيما اذا اطلق شخص عبدا، فسينسب ذلك العبد المحرر الى عشيرة الشخص الذى حرره واطلقه، ويسمى مولى فلان «المحرر»، والمولى هو الشخص المتحرر. ولهذه الحالة احكامها الخاصة فى الفقه فى باب الموارث وغيرها. ويرتبط هذا (المولى) او الشخص المتحرر بالقبيلة التى حررته وينسب اليها، ولكن مع اضافة كلمة (بالولاء)، اى ان نسبه الى هذه القبيلة ولاء لاهلها، ويحصل الولاء ايضا من المعاشرة والحلف والتعاهد كما حدث ليهود يثرب مع قبيلتى الاوس والخزرج. وكان يطلق اسم المولى على غير العرب جميعا بعد الفتوحات الاسلامية، ولوحظ نوع من الاصرار الشديد على ان يطلق اسم المولى على غير العرب خلال ايام الدولة الاموية. وينطوى التعبير بالمولى على شىء من الاستصغار والتحقير، فالمولى رغم انه اعلى فى المرتبة الاجتماعية من العبد، الا انه ادنى من المالك. وفى مقدمة ابن خلدون فصل «فى ان البيت والشرف للموالى واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا- بانسابهم»، يقول: «فشرف المولى من شرف مواليه، وبنائهم من بنائهم، فلم ينفعه نسب ولادته»، ويروى فى هذا الباب حديث عن الرسول (ص): «مولى القوم منهم».

الاستلحاق

والاستلحاق من الموارد التي يتم فيها الغاء النسب الاصل واكتساب نسب جديد مكانه، وذلك عندما يلحق شخص من عائلة او قوم معينين شخصا آخر بنفسه كابن له او اخ، ويدعى الشخص الذي يلحق بنسبه بنسب آخر ب (الدعى) والجمع (ادعاء)، وسرى كيف ان زيد بن حارثة صار يدعى زيد بن محمد (ص)، وبهذا نزلت الاية (٤) من سورة الاحزاب: (وما جعل ادعى آءكم ابناءكم ذلكم قولكم بافواهم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل). وهنا نهى صريح عن (التبني) واتخاذ (البنوة). اما الاية التي تليها فتقول: (ادعوهم لابائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما اخطاتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيمًا) «الاحزاب: ٥»، فبعد هذه الاية اصبح زيد يسمى باسم ابيه زيد بن حارثة. ولعل من المناسب ان نذكر الحادثة التي وقعت في خلافة معاوية، حيث قام معاوية باستلحاق زياد بن ابيه بنسبه، وخالف بذلك صريح الاية الشريفة السابقة، الدال على ان الاب غير الشرعى ليس ابا في الاسلام، كما ان اثبات ذلك في الموارد المشكوكه من الأمور الصعبة جدا ان لم تكن المستحيلة.

الخلع

وبعكس الاستلحاق كان هناك الخلع عند العرب، حيث يتم التبري من الاشخاص الذين يرتكبون الجرائم والاعمال الشنيعة التي من شأنها ان تلحق العار بعوائلهم وقبائلهم التي ينتسبون اليها، لذا تبادل القبيلة او الاب الى اعلان المتبرئ من ذلك الشخص على الملا العام، وبعد ذلك تكون الجهة المتبرية غير مسؤولة عن الجرائم التي يرتكبها، وغير ملزمة في دفع الدية عن الخلع. ويسمى مثل هذا الشخص ب (الخلع)، ويحدث احيانا ان يتحد الخلاء مع بعضهم في وسط البادية ليكونوا قوة تهدد الطرق والقوافل. كان قيس بن الحدادية من خلاء العرب المشهورين، وهو من قبيلة خزاعة، وكان شجاعا وشاعرا، قام بقطع الطرق على القوافل فطردته خزاعة وتخلت عنه، واعلنت ذلك في سوق عكاظ، وقالت: انها لن تكون بعد الان مسؤولة عن جرائمه، وقد وردت اخبار قيس بن الحدادية (حدادية بضم او كسر الحاء هو اسم امه) في كتاب الاغانى لابي الفرج الاصفهاني. [٩] ومن بين الذين خلعوا من قبائلهم في عهد الاسلام يعلى الاحول الاردبي وهو شاعر وقاطع طريق [١٠].

اهمية انساب القبائل في تاريخ الاسلام

تؤكد الاية (١٣) من سورة الحجرات على هذا الموضوع حيث تقول: (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم..). والدلالة الالتزامية لهذه الاية الشريفة هي رفض واستنكار العصبية القبلية والخصومات العنصرية والتفاخر بالانساب، وكلها من الظواهر التي اشتهرت بها العرب، وبلغت حدا جعل القبائل العربية لاتعرف شيئا اسمه قوم او امة (العرب) ولم تكن تفهم معنى للوطنية او القومية، وللقبيلة او الشعب احيانا، الذي هو اكبر منها (مجموعة من القبائل يجمعها نسب واحد) معنى يشبه معنى المدينة عند اليونانيين او معنى الامة عند الكثير من شعوب العالم في القرون الحديثة. ويطلق على اهل البادية «الاعراب» كما يطلق اللفظ نفسه بنوع من الاستخفاف على البدو الرحل في الصحرا دلالة على خشونتهم وجفاف اخلاقهم. وقد وردت كلمة (عربي) في اللغة العربية التي كانت لغة عامة القبائل، ونادرا ما كانت تستعمل كلمة (العرب) بالمعنى نفسه الذي استعملت فيه بعد الاسلام، وقد وردت اشارة في (سورة الحجرات) الى الحرب التي نشبت بين طائفتين من المسلمين في المدينة (الاوس والخزرج) على اثر عدا قبلي وتخاصم عشائري (تفسير الطبري في ذيل هذه الاية من سورة الحجرات). ولم يات الاسلام، وهو دين التوحيد، للقضاء على التمييز القبلي فحسب، وانما جاء ليمحو التمييز العنصري بشكل عام، وان معنى التوحيد في مراتبه الدنيا هو ايجاد الوحدة

بين الناس تحت شعار الاسلام. ولم تسنح الفرصة امام هذه التعاليم الالهية السامية لتأخذ طريقها الى قلوب المسلمين بحيث تجعل مفهوم توحيد الناس والمساواة فيما بينهم، التي لم تزل هدف الانسانية المنشود، واقعا معاشا. وفي هذه السورة نفسها اي سورة الحجرات، توجد اشارة الى هذا المعنى، فبعد ان تشجب الاية الشريفة النزاع والتفاخر القبلي تاتي الاية التالية لتقول: (قالت الاعراب آما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم..) «الحجرات: ١٤» ويدل مجيء هذه الاية بعد تلك الاية مباشرة على ان المقصود بالايمان هو الايمان بهذا المبدأ على الصعيد الاجتماعي، اي الايمان بالمساواة ورفض التمايز القبلي والتفاخر بالانساب، وهذا ما لم يستقر بعد في قلوب العرب ووجدانهم. وفي الوقت الذي اختفت فيه المفاخرات النسبية والعداوات القبلية اثناء الفتوحات الاسلامية، نجد انها قد عادت بعد تفجر الحروب الداخلية ايام خلافة امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع)، واستفحلت في النصف الثاني من القرن الهجري الاول، فكانت من اهم الاسباب التي ادت الى سقوط الدولة الاموية. والى هذا السبب يعود الرواج الواضح لعلم الانساب في القرن الهجري الاول، حيث كانت التحالفات القبلية الكبرى بامس الحاجة لمعرفة انسابها وشد الاواصر فيما بينها لتدافع عن كيانها وتقاوم اعداها، اضافة الى ان تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام يتلخص ككل في التنازع والتخاصم القبلي والتفاخر بالانساب، الامر الذي ادى الى تطور علم الانساب لتمييز القبائل المختلفة بعضها عن بعض. ورغم ان الحروب التي خاضها الرسول (ص) كانت بين الاسلام والكفر، وبين التوحيد والشرك، الا انها كانت في لباسها الدنيوي والمادي تتحول الى حرب بين القبائل، ففي الوقت الذي كان الرسول (ص) يقود المهاجرين في معركة بدر، كان ابو سفيان يقود كفار قريش، والاثنان كانا من قريش، الا انها كانت في واقعها حربا بين قريش من جانب وقبائل الاوس والخزرج من جانب آخر، فبعد معركة احد نجد شعرا قريش يتغنون بانتصارهم على الاوس والخزرج، ويتفاخرون بذلك النصر. فضلا عن هذا فان الاية الشريفة من سورة الحجرات، تذكر ان معرفة القبائل والطوائف والاطلاع على انسابها انما هي من اجل تشخيص هوية الافراد، ولان التاريخ هو عبارة عن تاريخ الاحاد والافراد اذا ما قطعنا النظر عن جانبه العام والانتزاعي فلا يمكن معرفة هؤلاء الاشخاص والاحاد في التاريخ الاسلامي الا عن طريق الاحاطة بالقبائل والانساب، ومن هنا يمكن ادراك الاهمية الخاصة لمعرفة القبائل وانسابها في فهم التاريخ الاسلامي.

اقسام الطوائف

كانت القبيلة اشهر وحدة اجتماعية واكثرها شيوعا وتداولوا في حياة العرب في الجزيرة العربية، ولا نجد تعريفا محددًا لها اكثر من كونها اشتراك في النسب وطرق المعيشة والامور الاجتماعية الاخرى، فليس من المعروف او الواضح عدد العوائل او الافراد الذين تتكون منهم القبيلة الواحدة. وتوجد تقسيمات اخرى اكبر من القبيلة او اصغر منها، تنقسم فيها القبيلة الى فروع متعددة، وهذه الاخرى غير محددة في عدد العوائل او الافراد الذين تتكون منهم، واشهر هذه التقسيمات ما ذكره (النويري) في (نهاية الارب) [١١]. حيث اعتبر (الجذم) و (الجماهير) و (الشعب) و (القبيلة) من الاقسام الكبرى بينما الصغرى عبارة عن (العمارة) و (البطن) و (الفخذ) و (العشيرة) و (الفصيلة) و (الرهط). واختلف ايضا في تحديد مصاديق هذه الاسماء، فبينما جرت العادة على اعتبار قريش قبيلة مثلا، نجد علماء الانساب لا يوافقون على ذلك بل يجعلونها عادة عمارة، اما القبائل فهي امثال: مضر، وربيعة، وبنو مخزوم، وبنو عبد مناف، او بنو هاشم، اما بنو امية فهم بطن، ويعتبر العباسيون فصيلة، وكذلك الطالبيون، ويذكر النويري في نسب الرسول (ص) بنو عدنان، ويقول: انهم «جذم»، ويطلق على معد «جمهور»، وعلى نزار «شعب»، وعلى مضر «قبيلة»، وعلى خندف «عمارة»، وعلى كنانة «بطن»، وعلى قريش «فخذ» وعلى قصي «عشيرة»، وعلى عبدمناف «فصيلة» ويسمى بنو هاشم «رهط».

اليمنى والنزاري او القحطاني و العدناني

كانت القبائل في صدر الاسلام تنقسم الى شعبتين او شعبين كبيرين يمناني ونزاري. وقد حدث ذلك بسبب ما ظهر من خصومات

ونزعات قبليه بين مجموعتين من القبائل. وليس خافيا ان الخصومات القبليه كانت موجوده قبل الاسلام، وكانت فى اغلبها خصومات وحروبا تنشأ لعوامل اقتصاديه او معيشيه او لاسباب ثاريه، اما على شكل خصومات شامله بين ما يسمى باهل الجنوب واهل الشمال، او القحطانيين والعدنانيين، فهذا ما لم يلحظ قبل الاسلام. ويرجع اصل هذه المسأله الى هجره القبائل من الجنوب او اليمن الى الشمال، فكانت القبائل التى هاجرت من الجنوب ووجدت لها مراتع شتويه هناك، قد احييت هذه المسأله التى كانت قد طرحت بصورتها العامه المبهمه، حيث ارجع الشماليون نسبهم الى نزار او معد او عدنان، واخيرا الى اسماعيل بن ابراهيم (ع)، ولهذا اصبح جميع هؤلاء يسمون فيما بعد بالعرب المستعربه (اي المتعربين)، فمن المعروف ان اسماعيل و ابراهيم ليسا من العرب، وصار ابناء اسماعيل عربا بعد ان استوطنوا شبه الجزيرة العربيه فى جزئها الشمالى، وقد انتسبت قريش، التى كانت تستوطن مكه، الى نزار بن معد بن عدنان، ولهذا صار يطلق على القرشيين (النزاريين) او (المعديين) او (العدنانيين)، اما سكان المدينه وهم فى الغالب من قبيلتى الاوس والخزرج فهم يمانيون جاءوا من الجنوب. وحتى الخصومات التى حدثت بين قريش وقبيلتى الاوس والخزرج لم تكن موجوده قبل الاسلام، ولم ير لها اثر يذكر فى الشعر الجاهلى، بعكس النزاع بين الاوس والخزرج داخل المدينه نفسها حيث كان قد بلغ الذروه قبيل الهجره، وكاد ان يهدد الطرفين بالفناء. واكتسبت قبيلتا الاوس والخزرج اسما جديدا بعد هجره الرسول (ص) الى المدينه، فصاروا يسمون ب «الانصار» اما الذين هاجروا من مكه الى المدينه فصاروا يدعون ب (المهاجرين). ولم يظهر فى حياه الرسول (ص) خلاف واضح بين المهاجرين والانصار، اما بعد وفاته (ص) فقد احدثت مسأله الخلافه تنافسا شديدا بين المهاجرين والانصار، او بين قريش وقبيلتى الاوس والخزرج، ويمكن الاشارة هنا الى ظهور بعض الخصومات القديمه بين الاوس والخزرج انفسهم، التى انتهت لصالح قريش وحسنت الخلافه لها. وقد ساهمت الفتوحات الاسلاميه وهجره العرب الى بلدان اخرى خارج شبه الجزيرة العربيه واستقرارهم فى مدن مثل الكوفه والبصره، فى تجميد الاختلافات واختفائها مؤقتا. حتى جاء الخليفه الثالث عثمان الاموى القرشى الذى قتل بيد الانصار (اهل المدينه)، فقد تحول هذا الحدث الى حجه رفعها معاويه لتحريك الناس، وتعبثها للمطالبه بدم عثمان والانتقام من قتلته، وتبدلت هذه الخصومه بين الانصار (وهم من قبائل الجنوب او اليمن) من جانب والمطالبين بدم عثمان من جانب آخر الى خلاف بين عرب الجنوب وعرب الشمال او بين اليمانيين والنزاريين، هذا مع ان قياده الطرفين المتخاصمين فى معركه صفين كانت من قريش (امير المؤمنين ومعاويه)، وقد بلغ النزاع بين القبائل مبلغا عظيما بعد مقتل عثمان ومعركه صفين وعاد كما كان قبل الاسلام، غير ان المسائل الاقتصاديه وقضايا قطع الطرق لم تعد موجوده بين الطرفين، بل تجلى الخلاف على شكل نزاع بين طائفتين كبيرتين من العرب اليمانيين والنزاريين. وقد زادت العوامل السياسيه هذا النزاع اتساعا واخرجه على شكل خصومات عرقيه (لا نقصد بالعرفق هنا المعنى المعروف اليوم، بل نقصد به ذلك الامر الذى يصنف الناس على اساس الدم او الجنس او ما يشبههما من الامور الاخرى، ويفصل فصلا اصطناعيا بين جماعتين كبيرتين من البشر، ويؤدى الى ظهور النزاع واثاره الضغائن بينهما). وصل الخلاف بين هاتين المجموعتين من القبائل النزاريه واليمانيه الى الحد الذى اوقد بينهما نار الحرب وحدثت معارك داخلية ايام الدوله الأمويه ادت الى ضعفها ومن ثم سقوطها، وقد هيات هذه الاختلافات فرصه جيده للشعرا والخطباء ليدكوا نار الاحقاد ويذكروا الطرفين بامجادهم ومناقبهم، ولم يكن النزاريون او المعديون او العدنانيون، ومنهم قريش والرسول (ص) والخلفاء جميعا، بحاجة ماسه الى البحث عن مفاخر وامجاد اخرى، اما الجنوبيون من اهل اليمن، فقد كانوا فى صدد تحويل هذه الخصوصيه الجغرافيه الى خصوصيه عرقيه، فكما ان الشماليين نسبوا انفسهم بموجب العهد القديم الى اسماعيل، نسب الجنوبيون انفسهم الى قحطان (او يقطان كما فى العهد القديم) ومن هنا صار يعرف اليماني والنزارى بالقحطاني والعدناني فى التاريخ الاسلامى. ونريد بهذا التفصيل ان نوضح ان تصنيف القبائل العربيه الى مجموعتين كبيرتين عدنانيه وقحطانيه، كان قد ظهر بعد الاسلام.. فرغم ان القبائل العربيه كانت تحرص فى تاريخها قبل الاسلام على معرفه انسابها واستحضار آباءها واجدادها كوسيله من وسائل حفظ كيانها وحمايه وحدتها.. الا ان تلك السلسله النسيبه لم تصل الى حد تقسيم القبائل العربيه جميعا الى قسمين رئيسيين او ثلاثه اقسام او اربعه.

تدوين الانساب

اتضح ان القبائل كانت قبل الاسلام تحرص على حفظ سلسله نسبها، وكان يوجد بين افرادها من له الخبرة والمعرفة اكثر من غيره، فكانوا يرجعون اليه عندما يشكل الامر عليهم، وكان جبير بن مطعم اكثر افراد قريش معرفة في علم الانساب اثناء خلافة عمر بن الخطاب، وكان اخذ علمه عن ابي بكر. [١٢] وهو احد الثلاثة (جبير بن مطعم، ومخرمة بن نوفل، وعقيل بن ابي طالب) الذين استعان بهم عمر عندما عزم على تشكيل ديوان العطايا لتحديد اعطيات الناس وانسابهم [١٣]. ونتيجة لتفاقم حالة التنافس والتخاصم بين القبائل نشأت الحاجة الى خبرا يهتمون بشؤون الانساب ويدونوها. وظهرت فعلا طائفة من هؤلاء الذين عرفوا ب (النسابة)، وقد الفوا كتابي ذلك، اشهرها واهمها واكثرها شمولا كتاب (جمهرة الانساب، لهشام بن محمد الكلبي). وبهذا يتضح ان تدوين انساب العرب وجمعها بالشكل الذي ورد في كتب التاريخ والانساب، قد حدث بعد ظهور الاسلام، وقد دونها المؤلفون وجمعوها من افواه الناس، وبالاستعانة بالنسابة الذين كانوا يحفظون الانساب عن ظهر قلب. ونظرا للعصبيات القبلية الشديدة وما ورد من روايات عديدة حول تزوير الانساب والحاق بعضها ببعض لاسباب سياسية، فان الاعتماد الكلي على المعلومات التي وردت بهذا الشأن في كتب السير والاخبار، قد لا يكون عملا علميا تتوفر فيه الدقة اللازمة، خصوصا ان احتفاظ شخص واحد بمثل هذا العدد الهائل من الاسماء لمدة طويلة قد لا يكون امرا عاديا، سيما اذا كان الاعتماد على الذاكرة وحدها. غير ان الكتابة في سيرة الرسول (ص) والتأليف في تاريخ صدر الاسلام، ربما لا يحتاج الى اكثر من معرفة اجمالية، باحوال العرب في ذلك العصر، وكيف كانوا ينظرون الى التركيب القبلي، وما هي الطبقات التي كان عليها المجتمع العربي، والانساب التي تنتمي اليها القبائل المكونة لهذا المجتمع؟ فكل ما كان من عصبيات وخصومات ومفاخرات مبني على هذه الامور الادعائية. اما التحقيق او التفصيل في هذه المسألة، فهو عمل مستقل، وينبغي ان ينظر اليه على انه بحث منفصل عن السيرة والتاريخ، اذ لو انتهى هذا التحقيق الى نتائج علمية غير تلك النتائج التي عرفت عن ذلك العصر ونقلت عنه، فسوف لن يحدث ذلك شيئا على مسار التاريخ. ان العصبيات والمشاجرات جميعا كانت مبنية على اساس ما يعرفه هؤلاء من معلومات، وما يعتقدون به من الصحة والخطا، لا- على اساس ما هو ثابت حقا وواقعا. ومن اجل ادراك تاريخ الاسلام وسيرة الرسول (ص)، لا بد من الاطلاع على اوضاع مدينتي مكة والمدينة ايام ظهور الدعوة الاسلامية، ومعرفة القبائل التي كانت تستوطن هاتين المدينتين، وبناء على هذا سنحاول اولا- تسليط الضوء على اوضاع قريش واحوال مكة في تلك الفترة، اما الاحاطة باوضاع مدينتي الحجاز الاخرين: المدينة والطائف، ودراسة شؤون القبائل التي كانت تعيش فيهما، فمرجه الى محله.

مكة قبل الاسلام

واد غير ذي زرع

جاء في الاية (٣٧) من سورة ابراهيم: (ربنا انى اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون). تنص الاية الشريفة على ان مكة بنيت بواد غير ذي زرع اي غير صالح للزراعة واد يقع بين سلاسل جبلية صخرية، واذا ماسقط عليها المطر احيانا فانه ينحدر بشدة محدثا سيلًا. تقع هذه المدينة في الحجاز في الجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية بين البحر الاحمر وجبال سراة التي تمتد من الشمال الى حدود اليمن، وتبعد مكة عن ميناء جدة الواقع على البحر الاحمر مسافة (٧٠) كلم. واصبحت هذه المدينة المقدسة، بفضل وسائل المدينة الحديثة، من اهم المدن العامرة في شبه الجزيرة العربية، اما موقعها فلم يكن مناسبًا، كما عرضته الاية الشريفة، للعيش والسكن والعمارة، اذ تتواجد المدن عادة في الوديان الخصبة، او بالقرب من الانهار الجارية، او على سواحل البحار، او في السهول الخضراء. وكان كلما اجتمع اهل البادية وبدو الصحرا في مكان معين، وبدوا يشتغلون بالزراعة وتربية الحيوانات، تكونت طبقة جديدة من اهل المشاغل الاخرى غير الزراعية،

كالحرفيين والتجار الذين يقومون بالمبادلات التى كان يحتاجها المزارعون، وتهيئته الوسائل الزراعيه واصلاحها، ومع مرور الزمن تكونت مدن تضم اناسا يعملون بغير الزراعة وتربية الحيوانات، وعملهم الاساس هو الحرف والصناعات المختلفه التى نشأت الحاجة اليها نتيجة الاشتغال بالزراعة والاستقرار فى تجمعات سكنيه كبيره، وهكذا ظهرت طبقات اخرى من التجار والصرافين والعمال والملاكين والحكام. وبنيت فيما بعد مدن على ضفاف الانهار وفى سواحل البحار لاغراض تجاريه، ومنذ الثورة الصناعيه وحتى الان اخذت تشاد المدن الصناعيه بالقرب من المناجم وحول المصانع الكبرى، وقد اتضح الان افتقاد مكه فى اول بنائها لكل مبررات نشوء المدن، التى مر ذكرها، ولهذا يطرح السؤال التالى: ما الذى دعا الى بنائها؟. ان الهدف من ورا بناء هذه المدينه المقدسه كان هدفا دينيا منذ اللحظات الاولى طبقا للايه الشريفه، بمعنى انها انشئت للعباده، يعبد فيها ابراهيم وبعض افراد اسرته ربهم الى جواريته المقدس (عند بيتك المحرم) ولانها كانت غير آلهه وتنعدم فيها الحياه، فقد توجه ابراهيم الى ربه طالبا منه ان يجعل افئده من الناس تهوى اليهم، لكن يبقى السؤال: لماذا ينشا مثل هذا المبنى المقدس والمعبد الالهى فى مثل هذا المحيط الجاف والقاسى؟.

الكعبه اول بيت

قال تعالى: (ان اول بيت وضع للناس للذى ببكه مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا) «آل عمران: ٩٦، ٩٧». تؤكد الايتان الشريفتان على ان الكعبه المشرفه الواقعه فى مكه، هى اول بيت وضع للناس، وهنا يبرز السؤال الثانى: كيف تكون الكعبه اول بيت، ومكه اول مدينه، ونحن نعلم يقينا بوجود مدن ومعابد اقدم منهما بنيت منذ القدم فى مصر وكلدن وآشور والصين والهند؟. والجواب يكمن فى قوله تعالى: (وضع للناس) فالمعابد التى بنيت فى العصور القديمه كانت خاصه بمدن وقبائل معينه، كما يعكس ذلك بوضوح تاريخ الاديان القديمه والاقوام البائده، فقد وقعت معارك عديده من اجل السيطرة على المعابد، ودارت بين الاقوام المختلفه حروب داميه كان هدفها تحطيم معابد الاقوام الاخرى وحرقتها، وغالبا ما كانت تعتبر سيطرة قوم ما على المعابد والاصنام علامه على تغلبهم وانتصارهم، بينما تواجه الاقوام المغلوبه التى تحرم من معابدها، وتسلب منها آلهتها، التدهور والتبعيه والانهيال القومى والثقافى، وربما الزوال والفناء. وهكذا فان جميع تلك المعابد تشارك فى كونها معابد خاصه بقوم دون قوم، وبمكان دون آخر، خلافا للكعبه المشرفه التى وضعت للناس كافه، من اى عنصر او مكان كانوا. وهنا سيطرح السؤال السابق نفسه بالحاح اشد: ما هى الحكمة من وضع مثل هذا المكان المقدس فى هذه الارض الجافه القاحله؟.

فيه آيات بينات

يجب ان نبحت عن جواب هذا السؤال فى طيات الايه الشريفه التى تقول: (فيه آيات بينات) يقول الطبرى فى تفسير هذه الايه من سورة آل عمران: ان واحده من هذه الايات مقام ابراهيم، والاخرى الحجر الاسود، والثالثه الحطيم. ومن المستبعد ان يكون الحطيم الجدار المبنى على شكل نصف دائره، ويقع حجر اسماعيل بينه وبين الكعبه من تلك الايات الالهيه التى تشير اليها الايه الشريفه. اما الحجر الاسود فهو من اوضح تلك الايات واهمها، ومن المحتمل جدا ان يكون بناء الكعبه لاجله. لقد ورد فى الروايات ان الحجر الاسود نزل من السماء، وسنشير فى المواضع المناسبه الى ان كل حادثه دينيه لها جانبان: احدهما الهى غيبى، والاخر طبيعى مادى. ولو كانت جميع الايات الالهيه تظهر للناس على شكل قضايا ربانيه خارقه لقوانين الطبيعه، او بعبارة اخرى على صوره معجزات، فلن يبقى مجال للانكار والتغاضى، وبالتالي سيؤمن اشد الناس كفرا واكثرهم عنادا فى التاريخ الاسلامى، امثال ابى جهل وابى لهب. اما اذا خلت الايات الربانيه من الجانب الالهى الغيبى، واصبحت لا تختلف عن غيرها من الاءمور الطبيعه، فسيكون لايمان بعض الناس وكفر بعضهم الاخر معنى ومغزى. فالآيات الالهيه والقضايا الغيبيه يجب ان تتجلى فى هذا العالم باللباس المادى الطبيعى، ولا ينبغى ان تكون خارقه للنواميس الكونيه والقوانين الطبيعه فى الوقت الذى يستطيع فيه الانسان الواعى ذو البصيره ان يدرك المعانى الغيبيه ويلمح

الاثار الالهية فى تلك الايات والعلامات. ولا يوجد تناقض بين ان يكون هذا الحجر الاسود مرسلا من السماء وبين ان يكون احد الاجسام والاحجار السماوية الكثيرة جدا المعلقة فى الفضاء، والتي تسقط على الارض بدرجات حرارية عالية جدا نتيجة احتكاكها بالغلاف الجوى وتأثرها بقوة الجاذبية الارضية، واذا اعتبرها الانسان المادى مجرد حجر هوى من السماء، فان الانسان المؤمن الذى يعتقد بالقدرة الالهية والايات الربانية سيرى فى ذلك آية اخرى من آيات البارى جل وعلا. واخيرا فان كثيرا من الايات الالهية تتحول الى امور عادية غير مثيرة تلفها نفوسنا نتيجة تكررها فنعتاد عليها، امثال النجوم والسماء والارض والقمر وطلوع الشمس وغروبها، التى صارت ظواهر عادية لا تلفت نظرنا بسبب مشاهدتنا لها يوميا، علما ان كل جرم من هذه الاجرام وكل جسم صغير نراه على هذه الارض، انما هو عالم من الايات والغرائب قائم بذاته. هذا فى الوقت الذى نظر الى الظواهر الأخرى بمزيد من الاستغراب والخشية، كالحسوف والكسوف والصواعق والزلازل، لانها لا تحدث الا نادرا، كما سن لها الشارع المقدس صلاة خاصة سميت بصلاة الايات، التى يجب على المكلف اداؤها عند حدوث احدى تلك الايات. فسقوط الحجر من السماء، يعتبر هو الاخر امرا غير عادى، يلفت انظار الانسان الواعى الى عالم آخر غير العالم المعاش يوميا والمتكرر على مدار الساعة. لقد لفت هذا الحجر، الذى سقط من السماء فى مكة، انظار عدد من الناس (وربما كان منهم ابراهيم واسماعيل) كانوا يعيشون هناك، الى وجود قوة عظيمة فوق هذه القوى الاعتيادية، ولا يمكن ارجاعها الى تلك الاصنام الجامدة والارباب المفتعلة. وقد كان ابراهيم (ع)، طبقا لما يعرضه القرآن الكريم، يفكر منذ الصغر بهذه القدرة العظيمة التى هى اكبر من الشمس والقمر والنجوم، وكل الاصنام التى كان الناس يعتقدون انها هى التى تمثل تلك القوة الخارقة قد تحطمت، وكان هذا ايضا من دواعى الالتفات الى القدرة العالية المتفوقة على هذه القوى العادية. لا يمكن ان يكون هذا الحجر الاسود الهابط من السماء الها وصنما لقبيلة دون اخرى او لقوم دون قوم، لقد جاء هذا الحجر من جهة اخرى فى هذا الفضاء معبرا عن تلك القدرة العظمى، اذن لماذا لا نتوجه اليه؟، ونجعل من موضع سقوطه معبدا نعبد فيه تلك القدرة العليا التى يخضع الجميع لها؟ وقام ابراهيم (ع) بمساعدة ابنه اسماعيل او شخص آخر قبله ببناء جدار حول هذا المكان على شكل مكعب بواسطة احجار رصف بعضها على بعض حتى وصل ارتفاعها الى ما يساوى قامه انسان او اكثر، ثم وضع الحجر الاسود فى احد اركان هذا المبنى، ولاول مرة وقف ابراهيم (ع) يصلى الى حجر آخر، وربما تكون صلاته هذه صلاة يقصد بها وجه الله وحده، وفى مكان لا يختص بقبيلة او قوم دون غيرهم. وهذا ما اشارت اليه الاية الشريفة (١٢٧) من سورة البقرة: (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم). وبهذا اصبحت الكعبة اول بيت وضع للناس جميعا، فقد اسس ليعبد فيه رب الناس جميعا، والههم الذى لا شريك له، وبهذا فهو اقدم من معابد اليهود والنصارى، لان ابراهيم (ع) جدا ليهود والعرب، وليس هناك فى العالم اجمع من معبد وضع لله وحده اقدم منه، تقول الاية الكريمة (١٢٥) من سورة البقرة: (واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود).

مكة تصبح مدينة

بعد ان استقر ابراهيم (ع) وذووه فى هذا المكان، اخذ الناس يترددون اليه ويقصدونه للزيارة او لغيرها، ثم استوطن آخرون المكان نفسه للعمل على خدمة الزوار والمسافرين، واخذ هؤلاء يبنون المنازل لتأمين سكنهم وسكن الحجاج القادمين من اماكن بعيدة، وهكذا لم يمض وقت طويل حتى تم تشييد هذه المدينة فى ذلك الوادى القاحل الخالى من الزرع والحياة. كانت القوافل تنقل الامتعة، وخاصة المواد الصمغية والعطرية، من جنوب شبه الجزيرة العربية الى شمالها، ليستخرج منها الطيب فتعطر به المعابد والمنازل فى الشام وفلسطين وآسيا الصغرى وايطاليا. وكانت هذه القوافل تحتاج الى محطات استراحة على الطريق، وتمثل مكة فى موقعها الذى بنيت فيه محطة استراحة جيدة، وقد زادت بها الابار، التى حفرت فيها لتوفير الماء للزوار والمستوطنين، اهمية، حيث كانت ترد اليها القوافل التجارية التى ارهقها الطريق الصحراوى الطويل، وهكذا تحولت مكة بمرور الزمن الى مدينة دينية تجارية، استقطبت اهتمام

القبائل التي وقعت بينها معارك عديدة منذ القدم من اجل السيطرة عليها. فخضعت اولاً الى سيطرة قبيلة جهرم، ثم خزاعة التي استمرت هيمنتها حتى طردها قريش وحلت محلها. وقد اشتغل القرشيون كسدنة لبيت الله الحرام، يوفرون المستلزمات الضرورية لزواره، ويسهرون على صيانه وحمايته وامنه، واهتموا من جانب آخر بتوفير سوق جيدة لتجار الجنوب والشمال لعرض بضائعهم وبيعها لتجار الشام والعراق وباقي انحاء شبه الجزيرة العربية.

قريش في مكة

مكانة قبيلة قريش

تصنف قبيلة قريش ضمن القبائل الشمالية او المعدية او العدنانية في التصنيف الاساسي الذي يقسم العرب جميعاً الى قسمين رئيسيين: الجنوبيين والشماليين او اليمانيين والنزاريين، او القحطانيين والعدنانيين، وتنتمي قريش الى فرع كنانة من قبائل مضر ضمن القسم العدناني، ويرجع نسب الرسول (ص)، وكذلك خلفاء بني امية وبني العباس واكثر زعماء المسلمين في صدر الاسلام، الى هذه القبيلة، واذا ما اعتبرنا قريش قبيلة، فان تفرعاتها وشعبها يمكن ان نطلق عليها افخاذاً وبطوناً، ومن اراد الاطلاع اكثر على التاريخ الاسلامي لا بد له من الاحاطة بهذه التفرعات التي سيرد ذكرها كثيراً في التاريخ الاسلامي عند الحديث عن الرموز الاسلامية والشخصيات المرموقة التي تنتهي الى تلك الافخاذ والبطون. فهر بن مالك: تنتهي كافة بطون قريش وافخاذها الى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، لذلك فهو الجد الاعلى لقريش. قريش الظواهر: هناك بطنان من اولاد فهر بن مالك يطلق عليهما (قريش الظواهر)، هما بنو الحارث وبنو المحارب، وكانوا يستوطنون خارج مكة، والى بني الحارث ينتهي نسب عبيد الله بن الجراح، وينتسب الضحاک بن قيس الفهري، الذي قتل في معركة (مرج راهط) بين بني امية وانصار الزبير، الى بني المحارب، وكان الضحاک على راس انصار الزبير في تلك المعركة. غالب بن فهر: تلتقى طائفة بني ادرم ببطون قريش الأخرى في غالب بن فهر، اما البطون الأخرى فجدتها لؤى بن غالب. لؤى بن غالب: وهو الجد الرابع لبطن بني كعب وبني عامر وبني اسامة وبني خزيمه، وكعب بن لؤى جد الرسول (ص)، ويعتبر عمرو بن عبد ود العامري الذي قتل على يد امير المؤمنين (ع) في معركة الخندق من مشاهير هذا البطن. كعب بن لؤى: يعتبر كعب بن لؤى جد الرسول (ص)، الجد الثاني لبطن بني عدى وبني الهيصص. ويعد عمر بن الخطاب اشهر شخصيه في بني عدى، وكان بنو الهيصص بطنين، هما بنو سهم وبنو جمح، واشهر رجال بني سهم عمر بن العاص الداعدا امير المؤمنين على بن ابي طالب (ع)، بينما كان صفوان بن امية وعثمان بن مظعون اشهر بني جمح جميعاً. مرة بن كعب بن لؤى: يلتقى البطنان: بنو تيم، وبنو مخزوم، باجداد الرسول (ص) بمره بن كعب بن لؤى، وبرز رجال بني تيم: ابو بكر بن ابي قحافة، وليس بين بني مخزوم او بني يقظة رجل اشهر من خالد بن الوليد، وابي جهل بن هشام الد خصوم الرسول (ص) في مكة واكثرهم عنادا، هذا وتنتسب ام سلمه زوجة الرسول (ص) الى البطن نفسه. بنو زهرة: ويعتبر كلاب بن مرة بن كعب جد الرسول (ص) جد لبطن بني زهرة ايضاً، ومنهم ام الرسول (ص) آمنه بنت وهب، وكذلك الصحابي عبد الرحمن بن عوف. بنو اسد وبنو عبد الدار: وتلتقى هاتان الطائفتان بنسب الرسول (ص) بواسطة قصي بن كلاب، واشهر افراد بني اسد زوجة الرسول (ص) خديجة بنت خويلد، والزبير بن العوام، والى بني عبد الدار يعود نسب بني شيبه سدنة الكعبة المشرفة. بنو امية وبنو عبد المطلب: يجتمع بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو امية في عبد مناف، ويتقسم بنو امية الى قسمين: بنو امية الاكبر، ومنهم: عثمان بن عفان، وابو سفيان وابنه معاوية، ومروان بن الحكم. وبنو امية الاصغر ويسمون (بالعبلات). بنو هاشم: واليهم يعود نسب الرسول (ص) وامير المؤمنين على بن ابي طالب (ع)، فهما من اولاد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، ولعبد المطلب بن هاشم، طبقاً لقول بعض علماء الانساب، اثنا عشر ولداً، هم: عبد الله، ابو طالب، الزبير، عبد الكعبة، العباس، ضرار، حمزة، حجل، ابو لهب، قثم، عيذاق الحارث. وعبد الله هو ابو الرسول (ص)، وابو طالب والد امير المؤمنين على بن ابي طالب

(ع)، والعباس جد خلفاء بني العباس. وفي حياة الرسول (ص) اشتهر كل من حمزة وابي لهب، احدهما اكتسب شهرته بنصرة رسول الله (ص) ووقوفه الى جانب دعوة ابن اخيه، وهو حمزة، بينما اشتهر ابولهب بعدائه للرسول (ص) وايدائه لاصحابه، وتكذبه لدعوته (ص). ولم يعقب من ابناء عبد المطلب سوى اربعة، هم: العباس، وابوطالب، وابو لهب، والحارث. [١٤] وهناك اختلاف في اسماء بعض اولاد عبد المطلب وعددهم، حيث قال بعضهم: انهم عشرة اولاد.

تسلط قريش على مكة

انشئت مكة اولاً كمدينة دينية للزوار الذين يقصدونها من انحاء مختلفة، ثم ما لبث ان اشتغل اهلها بالتجارة، وبعد ان تكاثر اولاد اسماعيل حسب رواية ابن اسحاق في اطراف مكة، كانت هناك قبيلتان قد تركتا اليمن بحثاً عن المرتع والمنزل كما يبدو هما (جرهم) و (قطورا)، قد وصلتا مكة، ووجدتا هناك مدينة نالت اعجابهما لما وجدت فيها من الماء والكلأ، فوضعتا فيها الرحال، واستقرتا هناك [١٥]. يفهم من تلك الروايات ان اولاد اسماعيل (ع) وهم سكان مكة الاصليون اخذ عددهم يتزايد حول مكة وفي اطرافها، فبدأوا يحفرون الابار، ويزرعون الاشجار، وبعد فترة تحول ذلك الوادي (غير ذي زرع) الى واد عامر، ويفهم مما جاء عقب تلك الرواية ان مكة كانت محطة للقوافل القادمة والذاهبة، غير ان الرواية لم توضح اهداف تلك القوافل، وهل انها كانت تقصد الزيارة والعبادة فحسب، ام انها كانت تقوم بنشطة تجارية ايضا في هذه البلدة؟ وطبقاً لتلك القصة التي اوردها ابن اسحاق، فان ابناء القبيلتين «جرهم» و «قطورا» كانوا ابناء عم، وكان «مضاض» زعيماً لقبيلة (جرهم)، بينما اتخذت (قطورا) سميدع، رئيساً لها، واستقر سميدع بقومه اسفل مكة، بينما استوطن (مضاض) مع قومه اعاليها. وقد فرضت الطائفتان ضرائب مالية على القادمين الى مكة، فكانت جرهم تأخذ هذه الضرائب من الزوار القادمين الى مكة من اعاليها وقبل دخولهم اليها، بينما كانت «قطورا» تأخذ الضرائب نفسها من زوار مكة الداخلين اليها من اسفلها. ويبدو ان اهل مكة لم يشتغلوا بعد بالتجارة، وكانوا يعتمدون في تامين معيشتهم على ما تدره عليهم حيواناتهم، وما يتقاضونه من ضرائب مالية من الزوار. ويبدو ان هؤلاء الزوار الذين كانوا يتوافدون الى مكة بهدف الزيارة وتادية المراسم العبادية المتبعة كانوا في الوقت نفسه يقدمون بعض الاموال والهدايا الى الكعبة، وهذا ما دعا كل من القبيلتين (جرهم) و (قطورا) الى ان يهجروا اليمن ويتجهوا الى مكة بهدف السيطرة عليها والاستحواذ على هذه الاموال التي كانت تهدي الى الكعبة، وكذلك لتقاضى الضرائب المالية المفروضة على الزوار القادمين الى هذه المدينة الدينية. وقد ادى هذا الطمع الذي قاد كل من «جرهم» و «قطورا» الى ان يتركوا اليمن ويستوطنوا مكة الى التنازع، بل والتقاتل فيما بينهم، كل يريد السيطرة والاستئثار بالمنافع، وحسبت نتيجة الصراع لصالح (جرهم) وانتصرت علينظيرتها (قطورا). [١٦]. وحين سيطرت جرهم على مكة لم تبادر الى طرد ابناء اسماعيل من هذه المنطقة، بل قامت بتوثيق العلاقات معهم ويجاد الصلات المختلفة التي من شأنها ان تشدهم وتقارب فيما بينهم، ولكي يجنبا المدينة (القتل والفساد والتخريب) عمدوا الى ابرام معاهدة صلح فيما بينهم، التزموا بموجبها بحفظ حرمة المدينة وعدم القيام باى عمل من شأنه هتك حرمتها وتعكير صفو الحياة فيها. لقد اسهم هذا الوضع في اعطاء اهمية اضافية لهذه المدينة، وادى الى تزايد عدد الزوار الوافدين اليها، وبالتالي الى تضاعف مواردها المالية. وفي هذا الوقت كانت حالة (اولاد اسماعيل) قد تدهورت، وتحولوا من حاكمين لهذه البلدة الى محكومين فيها، واخذ عددهم يتزايد تدريجياً، بينما كانت الطبقة الحاكمة تبدو اقل عدداً، لكنها قد استأثرت (الطبقة الحاكمة جرهم) بجميع الموارد لنفسها، وعاشت حياة مترفة دب فيها الفساد والتهتك، وكانت لا ترعى الا ولا ذمة، ولا تتورع عن ارتكاب مختلف الاعمال التي تتناقض وحرمة هذه المدينة المقدسة، فقد شهرت السلاح بوجه كل من عارضها، واخذتهم بالشدة والقسوة، ثم عم شرها حتى شمل حجاج البيت، فذاقوا منها كل اذى ومكروه. ولغرض التباهي بالاموال واكتساب المزيد من الثروات التي تنفقها للانفاق على الملذات، لجأت الطبقة الحاكمة الى زيادة الضرائب المفروضة على الزوار، بل وذهبت الى ابعد من ذلك عندما بدأت يبيع بعض الحلى والهدايا الثمينة التي كانت توضع في الكعبة وتعلق على جدرانها. وقد اتخذ ابناء اسماعيل موقف

الصمت امام هذه الاعمال مراعاة كما يبدو لقرابتهم من الطبقة الحاكمة، واملا في الحصول على شىء من موارد المدينة وعائدها، ولم يعترض احد من اولئك الذين كانوا يعيشون داخل مكة على جرهم، بل بدأت الاعتراضات تثار عليها من قبيلة قوية اخرى كانت تسكن اطراف مكة هي (قبيلة خزاعة). استفادت قبيلة خزاعة، التي كانت قد جاءت من اليمن من اخطاء جرهم وفسادها، فحشدت حولها المعارضين، وفي مقدمتهم قبيلة بكر، وترجع الى بنى بكر بن عبد مناة، وهي من كنانة، ومن القبائل التي كانت تستوطن شمال شبه الجزيرة العربية، وانضم اليها كذلك اولاد اسماعيل الذين ضاقوا ذرعا بتصرفات «جرهم»، وبهذا استطاعت خزاعة ان تخلع جرهم عن عرشها، وتحل محلها في حكم المدينة والسيطرة على مواردها الكبيرة التي كانت تاتيهم دونما عناء. بعد السيطرة على الكعبة نشب الخلاف بين الفاتحين الجدد خزاعة، وبكر بن عبد مناة حول الرئاسة، وبعد فترة من الخصومة والنزاع استقرت الامور لصالح بطن من خزاعة ترعى (غبشان). وقد اوجد تسلط خزاعة وضعا جديدا في مكة، فحتى مجيئها كان اولاد اسماعيل ما زالوا يحافظون على بقايا تعاليم دين التوحيد رغم خضوعهم لسيطرة (جرهم)، هذا ما تنقله الروايات التي تتحدث عن تاريخ ما قبل الاسلام، وربما اعتبر ذلك برهان على ان ابناء اسماعيل تبعوا آباءهم في البقاء على عقيدة التوحيد وعبادة الله وحده. غير ان سيطرة جرهم، القبيلة القادمة من اقصى جنوب شبه الجزيرة العربية، ادى الى ضعف هذه العقيدة التوحيدية، وافساد بعض تعاليمها، وقد جاء في الرواية: «انه كان اولاد معد على بقية من دين اسماعيل». ولكن انتهى كل شىء بعد ان سيطرت خزاعة على الامور، واعادت الاوضاع الى سابق عهدها من الشرك وعبادة الاوثان، وهكذا استحكم الشرك في مكة. وقد نسبت هذه الاعمال في تاريخ ما قبل الاسلام الى احد زعماء خزاعة المسمى عمر بن لحي، وقيل انه تعلم عبادة الاوثان من اهل الشام وجاء بها الى مكة، ويبدو ان سبب نسبة عبادة الاصنام التي كانت عليها خزاعة الى عمر بن لحي، يعود الى كون هذا الاخير زعيما لهذه القبيلة التي يعتقد اكثر علماء انساب العرب بانها جاءت من اليمن. وقد خالف بعض النسابة ذلك، وقرروا اعتمادا على بعض الروايات ان خزاعة من عرب الشمال. [١٧] وبما ان هؤلاء كانوا كبقية العرب من عبدة الاوثان، فقد فرضوا عقيدتهم تلك على اهل مكة، وطبعوا المدينة بطابعهم الخاص. وقد نقلت خزاعة اعرافا اخرى الى مكة، حاربها الاسلام فيما بعد ونهى عن متابعتها، وتركزت هذه الاعراف حول الابل والاغنام التي كانوا يمتنعون عن تناول لحومها في اوقات معينة او يهدونها الى اصنامهم، حيث نهى القرآن الكريم عن ذلك في الاية الشريفة (١٠٣) من سورة المائدة: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام). لكن لم تبلغ عبادة الاصنام في مكة في عهد خزاعة درجة تختفى معها كل معالم عقيدة التوحيد من تعظيم بيت الله واقامة مراسم الحج، حتى انهم كانوا يرددون اثناء الطواف شعار التقديس لله ولاوثانهم، ويعترفون بان الله هو المالك الحقيقي الذي تستمد منه اصنامهم قوتها، الا- انهم كانوا يشركون في عبادته تعالى، حيث يهتفون «لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك» [١٨].

نمو قدرة قريش وسيطرتها على مكة

في الوقت الذي كانت فيه مكة تخضع لسلطة خزاعة، كانت بطون قريش وافخاذها متفرقة وموزعة على مناطق متباعدة لا يجمعها مكان واحد، وكانت السلطة تنتقل في خزاعة بالوراثة الى ان وصلت الى آخر زعيم لهم، وهو حليل بن حبشية او (حبشية). ويبدو ان هذا الرجل لم ينجب سوى الاناث، وكانت (حبى) احدى بناته التي زوجها من قصي بن كلاب زعيم قبيلة قريش في حينها [١٩]. وعلى رواية زيد فان قصي كان قد ذهب الى ديار «قضاة» مع امه التي كانت قد تزوجت احد رجالهم، ونظرا لابتعاده عن موطن الاهل، واغترابه، فقد سمي (قصي) اشارة الى ابتعاده وغربته. وكان قصي قد عاد الى مكة ثانية، على اثر حادثة واستطاع بما كان يتمتع به من شجاعة وبساله ان ينال اعجاب رئيسها في عهده «حليل بن الحبشية» فزوجه بنته (حبى). وربما كان حليل يهدف من وراء هذا الزواج الى استمالة قريش، والتي كانت قد تزايدت قوتها كثيرا، وكذلك استمالة قضاة التي تربطها بقصي صلة رحم عن طريق امه. وقد عجز (حليل) في آخر عمره عن ادا مهامه في ادارة شؤون الكعبة ورعاية زوارها، فسلم مفتاح الكعبة الى ابنته حبى، التي سلمته بدورها الى

زوجها قصى بموافقة ابيها، وقد احسن الزوج ولما كان عليه من ذكاء وطموح استثمار الفرصة، فاخذ يفرض سيطرته على مكة، ويمد نفوذه الى الكعبة ليستولى على مواردها، وكان مما اعانه كثيرا على ذلك اسناد قبيلته «قريش» له، ووقوفها الى جانبه، اضافة الى الدعم الذى حظى به من قبيلة زوج امه «قضاعه»، وكانت كلالا القبيلتين على جانب من القوة والنفوذ. وقد بدأت خزاعة، بعد وفاة حليل، تخشى قصى وتخاف من تعاضم نفوذه، فبادرت الى اخذ مفتاح الكعبة من حبي، فما كان من قصى الا الاهابه بقريش واحلافها من بنى كنانة وقضاعه للوقوف الى جانبه ومساندته فى نزاعه مع خزاعة، فلبوا دعوته، وحضروا فى موسم الحج الى مكة، اعرابا عن تاييدهم له، واستعدادا للتضحية فى سبيل نصرته. ثم طلبوا الى خزاعة ان تعيد مفتاح الكعبة الى قصى كما سلمه له حليل، غير ان خزاعة رفضت ذلك، فنشب القتال بينها وبين قريش وقضاعه، رغم حرمة المكان (مكة) وحرمة الزمان (ايام الحج)، واخيرا توقف القتال بين الطرفين بتدخل بعض القبائل للاصلاح، ووافقا معا على ان يحكم بينهما رجل من كنانة. ويفهم من فحوى القصة التى ينقلها الازرقى: ان الغلبة كانت لقريش وحلفائها فى هذه المعركة، الامر الذى دفع خزاعة الى الموافقة على الصلح والتحكيم، وهذا ما تؤيده ايضا كثرة القتلى بين بنى خزاعة. كان الحكم من بنى بكر بن عبد مناة، وهم من بنى كنانة المحالفين لخزاعة، ويبدو ان غموض موقف بنى كنانة فى هذه الحرب، ووقوف بعض افرادهم الى جانب قريش، ووقوف البعض الاخر الى جانب خزاعة، واتخاذ بعضهم الحياد، هو الذى دفع قريش لقبول الحكم البكرى الكنانى. وجاء حكم القاضى وهو يعمر بن عوف لصالح قريش وقصى، فقصى ان لا دية للدماء التى اريقت فى هذه المعركة، وان تعود السدانة (سدانة الكعبة) وحمايتها والسهر على مصالحها لقصى، لان حليل كان قد اعطاه اياها. وفى هذا المجال اختلاف بين رواية ابن اسحاق ورواية الازرقى، حيث جاء فى رواية ابن اسحاق ان يعمر بن عوف قد قضى بان لا دية لدم خزاعة، بينما قضى بالدية على خزاعة لما اهرقته من دماء قريش، وسبب ذلك كما هو واضح ان الحق كان مع قريش فى هذا النزاع، وتتحمل خزاعة، التى خاضت حربا ظالمة، دية ما سفكته من دماء قريش. لكننا لا نرى صحة مثل هذا الحكم، اذ يكفى خزاعة ضعفا اقصاؤها عن رئاسة مكة وسدانة الكعبة فضلا عن ان تتحمل دية قتلى اعدائها، وان يصل بها الضعف الى درجة قبولها بمثل هذا العار، وبناء على ذلك فاننا نرجع صحة رواية الازرقى. وهناك نقطة افتراق اخرى بين الروايتين، اذ يعزو ابن اسحاق سبب النزاع الى خلاف حصل بين قصى وبطن الصوفة حول بعض الموارد التى كانت تحصل عليها هذه الاخيرة فى موسم الحج، ولكن هناك غموض فى روايته من ناحية الجهة التى كانت تملك مثل هذه الموارد آنذاك، وهل هى الصوفة، او آل صفوان؟ لذا تصبح رواية الازرقى اكثر قبولا، هذا مع احتمال ان تكون رواية الازرقى قد لاحظت هذا الابهام وبادرت الى تصحيحه. وبغض النظر عن هذه التفصيلات، فان قريش كانت قد فرضت سيطرتها على مكة بمساندة قضاعه، ولعل مسألة التحكيم جاءت لتعطى هذه السيطرة طابعها الشرعى، وتضفى عليها لباسا من الحق، بدلا من ان تكون نتيجة القوة والقهر. وجاء فى رواية الازرقى ان قرار القاضى كان قد نص على عدم اخراج خزاعة من مكة، [٢٠] بينما جاء فى رواية اخريان قصى اخراج خزاعة وبنى بكر من مكة. [٢١]. وقد تكون الرواية الاخيرة هى الاقرب الى الصحة، باعتبار ان مكة لم تكن بتلك السعة التى تستوعب قريش مع خزاعة التى كانت تسكنها اصلا.

اعمال قصى فى مكة

اسكان قريش

كان اول عمل قام به قصى هو اسكان قريش فى مكة، فقام اولاً طبقاً لرواية ابن اسحاق بتقسيم مكة بين بطون قريش، واعطى كل جماعة منازلها التى اقامت فيها.

قطع الاشجار

امر قصى بقطع الاشجار التي كانت في الحرم ليتسنى لقريش البناء فيه، في وقت كان الناس يتخوفون من قطع الاشجار التي كانت في مكة باعتبارها جزءاً من الحرم. وهناك رواية اخرى تقول: ان الناس ظلت على عبادتها بالامتناع عن قطع اشجار الحرم حتى ظهور الاسلام، وكان عبدالله بن الزبير اول من خالف هذه السنة باباحته قطع اشجار الحرم [٢٢].

تأسيس دار الندوة

ان تأسيس مثل هذه الدار التي كانت بمثابة ناد يتم فيه تداول مختلف شؤون المدينة، يعتبر عملاً جديداً لم يسبق لاهل البادية ان شاهدوا مثله، وكان قصى طبقاً للروايات هو الذي اسسها في مكة، مع ان مكة كانت قد تحولت الى حاضرة منذ من، وسكنها قبل قريش كل من «جرهم» و «خزاعة». وظل يسودها النظام القبلي حتى ظهور الاسلام، وهكذا كان حال المدن الاخرى في شبه الجزيرة العربية، مثل الطائف التي كان يسكنها بنو ثقيف، ويثرب التي استوطنتها قبيلتا الاوس والخزرج، فجاء تأسيس دار الندوة على يد قصى كاول علامة على وجود مدينة بالمعنى الصحيح، كما ان النظام الذي وضع لادارة هذا النادي كان هو الاخر من الأمور الملفتة للنظر وقتها، حيث نص على ان يكون ابناء قصى جميعاً اعضاء في هذا النادي بينما لا يستطيع ابناء بطون قريش الاخرون ان يحصلوا على العضوية الا بعد بلوغهم الاربعين. ويعتبر ذلك اوضح دليل على اعتقاد قريش بضرورة المحافظة على الشرف العائلي، الذي هو من خصائص النظام القبلي، ويعبر شرط بلوغ الاربعين عن اصرار قريش على ضرورة بلوغ عضو النادي مرحلة النضج والكمال العقلي التي لا- تتحقق، في نظر قريش والعرب جميعاً، الا- بعد بلوغ هذا السن. ولم تكن الوظائف التي انيطت بهذا النادي باقل طرافة والفاتا من شروط دخوله، فكانت في معالجاتها الاجتماعية وتحدياتها الادبية والعرفية تشكل دالة للباحث الاجتماعي الذي يريد معرفة الشعوب وتقليدها. كان من مسؤوليات النادي تحديد سن البلوغ، وتزويج الفتيات، وعليه ان يعلن بلوغ الفتاة ذلك السن ويزودها بلباس خاص.. ومن واجبات النادي ايضاً ختن الذكور من الاطفال. وكان ينبغي ان يتم التزويج بعد موافقة اعضاء النادي، هذا اضافة الى ما كان يقوم به من اعمال سياسية وحربية، كاعلان الحرب، واقامة المراسم الخاصة باستقبال وتوديع القوافل، وجعل باب هذه الدار او تلك الى البيت الحرام. والجدير بالملاحظة ان هذه التشريعات والقرارات التي تصدر عن دار الندوة كان ينظر اليها من قبل قصى على انها سنن مقدسة تجب طاعتها في الحياة وبعد الممات كالتعاليم الدينية، قال ابن سعد: يتبعون امره كالدين لا يعمل بغيره في حياته وبعد موته. [٢٣].

وضع الضرائب

وجاء في رواية ابن سعد ان قصى كان قد فرض ضرائب مالية على الداخلين مكة من غير اهلها، وكان يعشر من دخل مكة سوى اهلها. [٢٤] فكان على من ينوي زيارة مكة وادا الحج ودخول الكعبة ان يدفع مقداراً من المال، يسهم من خلاله في تأمين ما تحتاجه هذه المدينة الدينية من نفقات وما تحتاجه الكعبة من صيانة وامور اخرى، وشكلت هذه الضرائب المالية مورداً لا باس به، مما اثار طمع القبائل، فثارت بينها الحروب والمعارك للسيطرة على هذا الوادي القاحل (غير ذي الزرع).

مناصب الحج

استحدث قصى بعض المناصب، ووزع المسؤوليات المختلفة لتسهيل امر الحج والقيام بالخدمات اللازمة للحجاج باحسن صورة ممكنة، فجعل حراسة الكعبة وخدمتها والسهر عليها والوقوف على ابوابها مسؤولية مستقلة اسمها (الحجابه)، واوكل مهمة القيام بها لجماعة من قريش اسمها «الحجابه». ثم امر جماعة آخرين بالقيام بشؤون سقاية الحاج وتوفير ما يلزمهم من مياه الشرب، وكان هؤلاء يعدون مخازن خاصة للمياه من الجلود، يضعونها الى جانب الكعبة، ويقفون عليها ايام الحج ليسقوا الحجيج منها. واستحدث قصى

ضريبة سماها «الرفادة» وهي مساهمة حالية يدفعها القرشيون سنويا، لتقدم بين يدي قصى في موسم الحج، الذي ينفقها بدوره على الحجيج الفقرا الذين لا يستطيعون توفير ما يلزمهم من زاد ومؤونة اثناء الحج. ووزع قصى تلك المناصب بين ابنائه، فجعل حجابة دار الندوة ورئاستها لعبد الدار الذي كان يحبه كثيرا، وجعله ايضا حامل لوائه، واعطى سدانة البيت وقيادة الحجيج لعبد مناف. وفي رواية اخرى لابن اسحاق: ان جميع هذه المناصب اسندت لعبد الدار [٢٥] لما كان يتمتع به من مكانة خاصة واحترام وتقدير بين ابناء قصى. وبعد معاهدة (حلف المظيين) صارت سقاية الحاج والرفادة من شؤون ابناء عبد مناف [٢٦].

المسؤوليات و المناصب الأخرى

استحدثت بعد قصى مناصب ومسؤوليات جديدة، ظلت تنتقل بين بطون قريش حسب الشرف والمكانة الاجتماعية وطبقة النسب التي تؤلف المنظومة القبلية داخلها، وبمرور الزمن صارت هذه المناصب ارثا كالمناصب السابقة تتداوله بطون معينة من قريش حسب الترتيب الطبقي الذي كان عليه المجتمع المكي، واستمر هذا الوضع الى ان ظهر الرسول (ص) في مكة، طبقا لما رواه ابن هشام ومحمد الكلبي [٢٧]. وفي هذا الوقت كانت السقاية قد اصبحت بيد العباس بن عبدالمطلب، الذي احتفظ بهذا المنصب بعد فتح مكة، وكان ابوسفيان بن حرب صاحب لوا قريش، ويطلق على اللوا اسم (العقاب)، ويحمل اللوا عادة القائد اثناء المعركة، وكلما رفض القائد حمل اللوا وجب على ابي سفيان بن حرب حمله وقيادة المعركة. وكان من الأمور التي استحدثت فيما بعد (الاشناق) وهو من شؤون الدية، ويحق لمن يتسلم هذا المنصب ان يعين الدية التي تقع على القبيلة حسب رايه، وكان لا يقبل ذلك من احد غيره، وقد صار هذا المنصب لبنى تيم، وعندما بعث الرسول (ص) في مكة كان قد تسلمه ابو بكر. ومن المناصب المستحدثه ايضا منصب (القبه) ومنصب (الاعنة)، وقد عهد بهما الى بنى مخزوم، حتى تولاهما خالد بن الوليد، ويبدو انهما كانا يختصان بشؤون الحرب والتجهيزات الحربية، كتهيئة الخيم والخيول والمؤن وما شابه ذلك. ويبدو ان الحاجة قد دعت قريش الى استحداث منصب باسم «السفارة» يتولى صاحبها تمثيل قريش في المفاوضات التي تجرى لحل نزاعاتها الحربية مع الاطراف الأخرى، كما ينوب عنها في جميع المحادثات القبلية التي تعقد عادة لحل الخلافات بين القبائل حلا سلميا، وكان هذا المنصب قد وقع قبل الهجرة النبوية بيد بنى عدى التي انتدبت له عمر بن الخطاب، احد ابرز شخصياتها آنذاك، بينما تسلم صفوان بن امية منصب الاشراف على اجرا القرعة (الايثار والازلام) وهو من بنى جمح الذين عهد اليهم بهذا المنصب. وجعلوا ادارة الاوقاف والاموال التي كانت تهدى لاصنام قريش في بنى سهم، وكان المسؤول عنها حينئذ الحارث بن قيس، وقد اطلق على هذه الادارة اسم (الحكومة والاموال المحجرة). ومن المناصب المستحدثه ايضا (العمارة)، وذلك لتنظيم شؤون البيت الحرام، وعدم السماح بارتكاب الاعمال المخالفة للقواعد العامة، او تداول الاحاديث السيئة، او رفع الاصوات بما لا ينسجم والاصول العامة داخل الحرم، واوكل هذا الامر لبنى هاشم. وهناك منصب آخر اطلق عليه (حلوان النفر)، اذ يلجا عادة في ايام الحرب الى الاقتراع لتعيين رئيس او قائد فخرى للحرب، ويشارك في هذه القرعة جميع الذكور من بنى هاشم، صغيرهم وكبيرهم. ففي حرب الفجار وقعت القرعة مثلا على العباس بن عبدالمطلب كقائد فخرى ورمزي للحرب، وكان حينها طفلا ليس الا. وهكذا يتضح الفرق بين هذا المنصب ومنصب حمل لوا (العقاب).

تغير الوضع الاقتصادي في مكة

تم لقريش السيطرة على مكة في اواخر القرن الخامس الميلادي، فقد ولد الرسول (ص) عام (٥٧٠م) وكان عبدالله والد الرسول (ص) قد توفي في الايام الأولى لولادته (ص)، وليس بين عبدالله وقصى سوى ثلاث بطون (عبدالمطلب وهاشم وعبد مناف)، وكان عبد مناف كبير السن حين سيطر قصى على مكة، وبناء على ذلك، فان الفترة بين عهد قصى وعام (٥٧٠م) لا يمكن ان تكون اكثر من (١٠٠ عام) في اقصى احتمالاتها، لذلك يمكننا القول ان سيطرة قريش على مكة كان في حدود اواخر القرن الخامس الميلادي.

ويبدو ان اشتغال قريش بالتجارة تم بعد سيطرتها على مكة وهيمنتها على الحج، حيث اخذت تتاجر مع بلدان اخرى خارج الحجاز وشبه الجزيرة العربية، واصبحت مركزا تجاريا مهما يربط بين سواحل البحر الاحمر والبحر المتوسط وجنوب شبه الجزيرة العربية والعراق، وذلك لوقوعها في قلب الطرق التجارية التي تصل بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، ولا- يعنى هذا انعدام النشاط التجارى قبل سيطرة قريش على مكة، فهناك نشاط تجارى سابق بين الروم وبلاد الشام وجنوب شبه الجزيرة العربية والمحيط الهندي، اذ كانت القوافل التجارية تاتي بالعطور من الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية الى البلاد المتقدمة، وتعود بمصنوعات هذه البلاد الى شبه الجزيرة العربية. لكن هذا النشاط التجارى، كانت تقوم به اقوام اخرى غير اهل مكة، وربما كانت مكة فقط محطة استراحة وتزود للقوافل التجارية القاطعة للصحراء، والدليل على ذلك اننا لم نجد في اخبار (جرهم) وخزاعة وهم سكان مكة الاصليون ما يدل على انهم كانوا يعملون في التجارة، كما اننا نجد من الروايات ما يؤكد ان عبد مناف احد ابناء قصي هواول من قام بعقد صفقات تجارية كبيرة مع جيرانه، وحاز على قبول البدو بمرافقة القوافل التجارية وحمايتها. ويبدو ان القرشيين استفادوا كثيرا من التجارب المرة التي مر بها القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية في حدود عام (٥٢٥ م) فما بعد، والتي انتهت الى سيطرة الاحباش على اليمن. كان لتلك الحوادث التي وقعت في اوائل القرن السادس الميلادي في اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية علاقة وطيدة بالوضع الاقتصادي والسياسي العام لتلك المنطقة، وكانت الامبراطورية الرومانية تسعى لفرض سيطرتها على سواحل المحيط الهندي والبحر الاحمر لتأمين الطريق امام القوافل التجارية العائدة اليها. وكانت تحاول ضمن هذا المسعى ان تجد لها موطى قدم داخل شبه الجزيرة العربية، وقد شجعتها مسيحية ملك الحبشة على ذلك ووجدت فيه فرصة مهمة لسط النفوذ. وقد وقف الملك الحميري اليهودي (ذو نواس) بوجه النصارى في شبه الجزيرة العربية والحبشة، فقام ملك الحبشية بتجهيز قوة عسكرية بحرية، وشن هجوما على اليمن بمساعدة الروم، وبعد حوادث عديدة تمت له السيطرة عليها وقتل ملكها (ذو نواس). ثم قام الاحباش بتنصيب احد المسيحيين الحميريين المسمى (سميفع) ملكا على اليمن، [٢٨] وقتل هذا على اثر تمرد كبير حدث ضده، وفتح الباب من جديد لتدخل الاحباش الذين اعدوا سيطرتهم على اليمن، واستمرت هذه السيطرة الى عهد ابرهة (ابراهيم). ورغم ان هذا الاخير حبشى، ويبدو انه كان يتبع النجاشي ظاهريا، الا ان ادارته لشؤون اليمن كانت مستقلة. استمر حكم ابرهة لجنوب شبه الجزيرة العربية مدة اربعين عاما تقريبا، وكان قد فرض على القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية حكما صارما وقويا طيلة هذه الفترة حتى قام بهجومه الشهير على مكة عام (٥٧٠ م)، والذي واجه فيه الفشل الذريع، وبعد هذه الحملة الفاشلة بدا حكمه يتصدع الى ان سقط بعد تدخل الفرس، وانتهى بذلك حكم الاحباش لجنوب شبه الجزيرة العربية. وكان ابرهة قد بلغ في حكمه لليمن من القوة والهيبة درجة جعلت اباطرة عصره (امبراطور الروم وملك الفرس وملك الحبشة وملك الغساسنة وملك الحيرة) يتسابقون فيما بينهم لخطب وده والفوز برضاه، فكان سفراؤهم يتوافدون عليه الواحد بعد الاخر، وكان ذلك من الامور التي سجلها ابرهة وتركها في تاريخه. [٢٩]. لقد اعطى هذا الوضع شبه الجزيرة العربية بعدا عالميا، فتحفزت كل من الدولتين الكبيرتين في ذلك العصر (الدولة الساسانية، والدولة الرومانية) للعمل لايجاد مناطق نفوذ لها داخل شبه الجزيرة العربية. وكان لكل واحدة من هاتين الامبراطوريتين اهدافها الخاصة من وراء هذا النشاط، فكان هدف الفرس هو قطع الطرق التجارية وحرمان الامبراطورية الرومانية من ممارسة نشاطها التجارى والاقتصادي مع بلدان الجنوب، من خلال فرض الهيمنة على سواحل المحيط الهندي وجنوب شبه الجزيرة العربية، وعلى العكس تماما فقد كان الروم يسعون من وراء ذلك الى تأمين طرقهم التجارية وحماية النشاط الاقتصادي للامبراطورية الرومانية، الذي كان يوفر لها سلعا رخيصة بطرق سهلة. وكان من الطبيعي ان تحدث هذه التطورات بعض التبدلات في الاوضاع الاقتصادية والتجارية المحلية والعالمية، وتؤدي الى اكتشاف طرق جديدة للتجارة، وقد اقترنت هذه التطورات مع اخبار متظافرة عن ظهور وضع اقتصادي وتجارى جيد في مكة، وعن اشتراك قريش كطرف في التجارة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، ومن الطبيعي ايضا ان تعزى هذه المستجدات الى الاحداث المذكورة، رغم اننا ما زلنا نجهد الكيفية التي حصلت بها هذه التبدلات بصورة دقيقة.

تجارة قريش مع الخارج

يقول الطبري نقلاً عن هشام بن محمد الكلبي: «ان اولاد عبد مناف كانوا اول من اخذ لقريش العصم»، اي اول من عقد صفقات تجارية مع الدول المجاورة، فقد ابرم هاشم اتفاقاً مع بيزانس امبراطور الروم في الشام، واخذ عهداً من ملك الغساسنة للمتاجرة مع الشام، بينما عقد عبد شمس (الابن الاخر لعبد مناف) اتفاقاً مشابهاً مع النجاشي الاكبر ملك الحبشة، ومضى نوفل (الابن الثالث لعبد مناف) الى بلاد فارس، فوقع مع خسروان امبراطور الفرس عقداً تجارياً، في الوقت الذي اختار مطلب وهو الابن الرابع لعبد مناف الدولة الحميرية، كطرف تجارى يتعامل معه، فابرم مع ملكها (ابرهة) او (سمنيع) معاهدة تجارية مماثلة للمعاهدات التي عقدها اخوته الثلاثة. وتتضمن رواية الطبري لهذه القصة نقطة مهمة حيث قال: «فانتشروا من الحرم»، اي خرجوا من مكة، وانطلقوا منها الى الخارج. ولعل ذلك العمل التجارى الاول الذي يقوم به اهل مكة مع الدول المجاورة، ليحصلوا منه ورائه على موارد تتجاوز في حجمها ما كانوا يحصلون عليه من الضرائب المالية التي فرضت على القوافل التجارية المارة عبر مكة، وما كانوا يجمعونه من الحجيج في كل عام، وقد رافق هذا النشاط التجارى اضطرابات واسعة وحروب عديدة جرت على ارض اليمن، وادت الى امتناع بعض التجار القدماء من ممارسة نشاطهم التجارى، في الوقت الذي وقعت تجارة قريش جميعها بيد ابناء عبد مناف. وما يمكن ان نستخلصه من هذا السرد التاريخي ان تجارة قريش مع العالم الخارجى، وما كانت تدره عليها من موارد ضخمة، لم تنعكس آثارها على المجتمع القرشى بصورة عامة، بل استاثر بها عدد محدود جداً من القرشيين شكل مع مرور الزمن طبقة راقية، وتمضى الرواية الى القول: ان هذا الانتعاش التجارى تبعته سنوات من الضيق والشدّة، بل القحط الذي حل بمكة، وذهب على اثره الكثير من ثرواتها. وحينها كان هاشم قد سافر الى الشام، وامر من هناك باحضار الخبز وارساله باكياس خاصة الى مكة، كما اوصى بذبح الابل التي كانت تحمل الخبز الى مكة، وتوزيع لحمها على الناس مع ثريد الخبز الذي كان ينقع بماء اللحم، ولهذا سمي بهاشم (لانه هشم الثريد لقومه). ويفهم من ذلك ان التجار كانوا من فئات اخرى غير المزارعين واصحاب الحيوانات والابل، كما ان القحط قد اصاب المزارع والحيوانات، ولم يضر بالتجار وتجاراتهم، ولهذا استطاع هاشم (وهو التاجر المعروف) انقاذ الموقف بارسال كميات ضخمة من الخبز الى مكة، كما يفهم من توصية هاشم بذبح الابل التي كانت تحمل هذا الخبز الى مكة ان الابل قد فقدت هناك، واصبحت مكة لا تجد منها ما تسد به رمقها.

حملة ابرهه على مكة

بعد ان استتبت الأمور لابرهه في جنوب شبه الجزيرة العربية، واتسق له الامر، وخضع له جميع القبائل والبدو في تلك المنطقة، اخذ يفكر في غزو شمال شبه الجزيرة العربية والحجاز لاختضاعها الى سيطرته وضمها بالقوة الى حكمه، كما هي عادة الملوك دائماً حينما يستتب لهم الامر في مكان معين فانهم يبدأون بالتفكير في توسيع ملكهم وضم المزيد من الاراضى والاقوام المجاورة الى دولهم. وقد لا يخلو الامر من عوامل اخرى دفعت ابرهه الى التشريع في حملته على شمال شبه الجزيرة العربية، وفي مقدمة هذه الأمور المحتملة سعى ابرهه الى الاقتراب اكثر من الامبراطورية الرومانية في بلاد الشام، فهما (اي المملكتان) يدينان بالدين المسيحى، رغم ان الاحباش يعقوبى المذهب، ولهم اختلافاتهم الخاصة مع الروم. ولعل الروم قد ساهموا في تحريك ابرهه، ودفعه الى هذه الحملة، على امل ان تقع الطرق التجارية المؤدية الى المحيط الهندي في قبضة دولة مسيحية لا يساورهم القلق بشأنها. وربما ساقه الى ذلك حسده لاهل مكة، فضاق ذرعاً من اتساع نشاطهم التجارى ونمو ثرواتهم بسرعة فائقة عن طريق التجارة، لقد اثار ذلك الثراء وتلك المكانة الاقتصادية التي كانت تتمتع بها مكة مطامع ابرهه، وجعلته يفكر في فرض هيمنته على هذا المركز الاقتصادى والتجارى والدينى النشط. وتذكر الروايات التاريخية من اسباب حملة ابرهه على مكة، انه كان قد بنى في صنعاء كنيسة كبرى (قليس) وبذل لذلك

اموالا طائلة من اجل ان يحول اليها انظار سكان شبه الجزيرة العربية جميعا، ويجعلها كعبة جديدة لهم، وبذلك تصبح صنعاء المركز السياسى الاهم فى شبه الجزيرة العربية، ويتحول ابناء الجزيرة تدريجيا الى الديانة المسيحية التى كان يدين بها ابرهه وقومه. ولكن الأمور جرت باتجاه آخر، ولم يحظ هذا المبنى الكنسى الضخم باحترام تجار الشمال الذين كانوا يزورون صنعاء باستمرار لغرض التجارة، بل انهم كانوا ينظرون اليه بمزيد من الاحتقار والاشمئزاز، خصوصا انه انشى من قبل قوم آخرين من خارج شبه الجزيرة العربية ويتكلمون لغة اخرى غير لغتهم. لقد ادت هذه النظرة وذلك الاحتقار الى هدر قدسية هذا المبنى الضخم الذى كان محترما لدى ابرهه، فثار غضبه وقرر الهجوم على المركز الدينى والاقتصادى لشمال شبه الجزيرة العربية لهدمه، والفسح فى المجال امام عاصمته صنعاء لتغدواهم مركز سياسى واقتصادى على ارض شبه الجزيرة العربية، ولتبتسط المسيحية وجودها على هذه الارض من الشمال الى اقصى الجنوب. ومهما كانت الاهداف المتوخاه، فقد جهز ابرهه جيشه، واعد نفسه اعدادا جيدا للقيام بهذه الحملة، فتحرك من اليمن قاصدا الحجاز وطبقا لما ورد فى تاريخ هذه الحملة جعل ابرهه على مقدمة جيشه فيلا، كان قد اتى به من افريقيا، اسمه (محمود)، وقيل: انه جلب معه ثلاثة عشر فيلا، وفى طريقه الى الشمال تعرض جيشه الى هجمات متتالية من قبل بدو الصحرا والقبائل الواقعة على الطريق فهزمها جميعا واسر شيوخها، وعندما وصل مكة، كان اهلها قد غادروها ولاذوا بصياصى الجبال والمرتفعات المجاورة. لم يترك ابرهه شيئا من الابل والممتلكات الا ونهبه، حتى قيل انه استولى على مئتي بعير من ابل عبد المطلب وحده، ولما جاءه عبد المطلب يلتمسه ان يرد اليه مئتي بعير اصابها له، قال ابرهه لترجمانه: «قل له قد كنت اعجبتنى حين رايتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى، اتكلمنى فى ابلك وتترك بيتا هو دينك ودين آباءك قد جئت لهدمه»؟! قال عبد المطلب: «انا رب الابل، وللبيت رب يمنعه». ثم امر ابرهه جيشه بالهجوم لهدم البيت، فالقى الفيل نفسه الى الارض، فصعدوا الجبل وضربوا الفيل فابى، فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول، ووجهوه الى الشام ففعل كذلك، ووجهوه الى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه الى مكة فسقط الى الارض. وارسل الله عليهم طيرا اباييل من البحر امثال الخطاطيف، مع كل طير منها ثلاثة احجار تحملها: حجر فى منقاره، وحجران فى رجليه، فقدفتهم بها، وهى مثل الحمص والعدس، لانتصيب احدا منهم الا- هلك، وليس كلهم اصابت، وارسل الله هيبلا القاهم فى البحر، وخرج من سلم مع ابرهه هاربا يتدرون الطريق الذى جاءوا منه.. فخرجوا يتساقطون بكل منهم، واصيب ابرهه فى جسده، فسقطت اعضاؤه اعضوا عضوا، حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل الفرخ، فما ماتحتى انصدع صدره. [٣٠].

القرآن الكريم واصحاب الفيل

قد يصعب على العقل قبول ما ورد فى كتب التاريخ من تفاصيل حول هذه القصة، خصوصا مسألة الطيور التى امطرت الجيش الحبشى بالحجارة، وكانت السبب فى الحاق الهزيمة به وحمله على الفرار مع قائده ابرهه، لولا نزول القرآن بها ونصه عليها فى سورة الفيل، واخباره عن كيفية هلاك اصحاب الفيل بتلك الحجارة التى حملتها الطير الاباييل. تذهب اكثر الروايات الى ان ولادة الرسول (ص) كانت فى عام الفيل (اي العام الذى حدثت فيه تلك الواقعة، وبما ان الرسول (ص) لم يبعث الا فى الاربعين من عمره الشريف، فان الاشخاص الذين كان لهم من العمر خمسين او ستين او سبعين او ثمانين عاما عند نزول سورة الفيل كانوا من الذين عاصروا هذه الواقعة، وشاهدوا الفيل فى مكة، وهم ما زالوا يتذكرونها جيدا بتفاصيلها، وقد سكتوا ولم يعترض منهم احد، لانهم لاحظوا انطباق الرواية القرآنية على الواقع تماما، وانها لم تات بشيء غير الذى شاهدوه بأعينهم، وتختلف هذه الاية عن الايات التى ذكرت احداثا وقعت فى ازمته قديمة لم يعاصرها احد ممن عاش فى عصر القرآن مثل: (الم تر كيف فعل ربك بعاد) «الفجر: ٦». وقد اشار الشيخ الطوسى فى تفسير التبيان الى هذه النقطة، وبناء على هذا فاما ان تكون القصة كما تروىها الاية بالمعنى الظاهر من الفاظها فى خصوص ارسال الطير الاباييل التى رمتهم بحجارة من سجيل، او تكون للاية الكريمة معنى آخر غاب عنا واصبحنا لا ندركه على حقيقته، لان الكلام الالهى لا بد ان يكون مطابقا للواقع والحقيقة، رغم ان هذه الحقيقة قد تبين بصورة التمثيل او التاويل. ورد فى الاية الشريفة

كلمتان لم يتضح معناهما تماما للمفسرين بما فيهم المفسرين القدامى، الاولى: كلمة (ابابيل) والثانية: (سجيل)، فما وضع لهاتين الكلمتين من معنى لم يكن مقنعا تمام الاقناع، فقالوا مثلا- في معنى كلمة (سجيل) انها تعريب لكلمتي (سنگ و كل) [٣١] وهذا يتضمن نوعا من الحشوا لتكرار لا يليق بكلام الله. ومن جانب آخر يفهم من الروايات ان جيش ابرهه كان قد اصيب بمرض جلدى (الحصبة او الجدري) بما فيهم قائد الجيش ابرهه نفسه، واتفقت هذه الروايات على ان ابرهه نجا من الهلاك، وعاد الى اليمن، وعاش مدة هناك قبل ان يموت. واذا ما حاولنا تفسير الايات الشريفة بما ينسجم مع السنن الطبيعية، كان علينا ان نقول: ان الله سبحانه وتعالى اراد دفع الاعداء ورد كيدهم عن الكعبة المشرفة، فابتلاهم بمرض شديد لم يستطيعوا معه مواصلة حملتهم، فأجبروا على العودة بعد ان الحقت بهم الخسائر الجسيمة دون قتال، فيصبح ما جاء في الايتين الكريمتين: (وارسل عليهم طيرا ابابيل، ترميهم بحجارة من سجيل) «الفيل: ٣-٤». اشارة الى هذا المرض العضال، ويمكن ان نستخلص من بعض الروايات ان ثمة عاصفة كانت قد هبت من البحر الاحمر باتجاه مكة، وحملت معها الطيور والحجارة والحصى والقثا على رؤوس الاحباش. ومهما كانت صورة الضربة التي هزم بسببها جيش الحبشة، سوا كانت على شكل طيور حقيقيه رمت جيشه بالحجارة فاهلكته، او بصورة اخرى اكثر انسجاما مع قوانين الطبيعه، فالنتيجة واحدة هي ان الله هزم ابرهه وجيشه، وصددهم عن الحاق الاذى بمكة والكعبة المشرفة التي كان مقررا لها ان تصبح قبله للعالمين ومطافا لهم ومركزا لاعظم واسمى رسالات التوحيد واديان السماء. وهكذا حصلت المعجزة بمنع ابرهه وجيشه من احتلال مكة وقتل الناس هناك وتهديم الكعبة، فان الله لم يكن يريد ذلك بل يريد ان يجعل عما قريب من هذه البلدة منطلقا للدين الاسلامي الحنيف الى جميع انحاء العالم.

لايلاف قريش

تاتي سورة قريش بعد سورة الفيل مباشرة في القرآن الكريم، وتبتدى باليتين الكريمتين (١ - ٢): «(لايلاف قريش، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف». وقد اختلف المفسرون في معنى اللام التي وردت في (لايلاف) فقال بعضهم: انها لام التعجب، بينما ارجعها آخرون الى السورة التي قبلها (اي سورة الفيل) فيكون المعنى ان الله ارسل على الاحباش الطير الابابيل التي ترميهم بحجارة من سجيل ليهلكهم وتبقى قريش آمنة في رحلتها التجاريتين: رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام. وقد رفض الطبرى قبول هذا التفسير، وقال: ان ذلك يستلزم كون السورتين سورة واحدة. ومن الطريف ان الفقه الشيعي يعتبر السورتين سورة واحدة، وبناء على ذلك فقد افتي فقهاء الشيعة بان قراءة سورة الفيل وحدها بعد الفاتحة في الصلاة غير مجز، بل لا بد من ان نضيف اليها في القراءة سورة قريش. وقد يكون راي فقهاء الشيعة هو الاصح والاقترب الى مضمون السورتين والاكثر انسجاما مع واقع الاحداث في تلك المرحلة التاريخية. اذ يقول القرآن الكريم: ان الله حطم جيش ابرهه، وردة خائبا، لكي تبقى قريش آمنة مطمئنة في سفرها التجارى نحو الشمال والجنوب، وهذا بدوره كان احدي العلل التي حفزت ابرهه لمهاجمة مكة. اذ حاول منعها من المتاجرة بين اليمن والحبشة وبين اليمن والمحيط الهندي. وضمن هذا السياق جاءت الايتان (٣-٤) من سورة قريش: (فليعبدوا رب هذا البيت، الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)، ويمكن ان يكون قوله تعالى: (آمنهم من خوف) اشارة الى قطع نفوذ الاحباش في شبه الجزيرة العربية الى الابد، فقد تضافرت الروايات على ان هناك ملكين هما (مسروق) و (يكسوم) وكلاهما من ابناء ابرهه حكما اليمن بعد وفاة ابيهما، ثم جاء ملك الفرس انوشروان فاعان سيف بن ذى يزن في اليمن على الاحباش فطردهم من اليمن وازال ملكهم. كان ذلك بعد سنوات من عام الفيل، اذ لم تزل قريش خائفة غير مطمئنة بعد عودة ابرهه الى اليمن، وهي تتوقع انتقامه لابنائها وجنوده الذين هلكوا هناك في اية لحظة، الى ان اذلهم الله على يد سيف بن ذى يزن والقائد الايراني وهرز، اللذين طرداهم من اليمن، وطهرا شبه الجزيرة العربية منهم الى الابد.

الاختلافات داخل قريش

مرت الاشارة فيما سبق الى ان كل من هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب، كانوا جميعا ابناء عبد مناف، وقد سيطروا على التجارة الخارجية، حتى صارت حكرا عليهم لا- ينازعهم عليها احد، وجمعوا من هذا الطريق ثروة طائلة بهرت الناس من حولهم، فاخذوا ينظرون اليهم بمزيد من التقدير والاحترام، حيث كانت العرب تقيم للمال وزنا كبيرا في الجاهلية، وتعتبره دالة على الشرف والعظمة ومدعاة للفخر والتباهي. وفي مجتمع كهذا لا تنفصل فيه المكانة الاقتصادية عن الموقع السياسي، فالقدرة الاقتصادية تجلب نفوذا سياسيا يتناسب وحجمها، كان ينبغي لابناء عبد مناف ان يكونوا زعماء مكة السياسيين تبعا لزعامتهم الاقتصادية. اما قصي فقد منح كافة المناصب، وجمع في يده ازمة الامور الدينية والسياسية وغيرها في مكة، ثم سلمها جميعا الى ابنه المحبوب لديه عبد الدار، ومن ثم انتقلت بالارث الى ابنائهم، في وقت كان يرى فيه ابناء عبد مناف انفسهم الاولى بهذه المناصب، بعد ان اتسعت تجارتهم في الخارج، واثروا ثرا فاحشا، وراوا انهم احق بها منهم لشرفهم وفضلهم في قومهم. لم تذكر الرواية سبب هذا الفضل والشرف، غير انه كان يعود في حقيقة الامر الى تمويلهم. كان هاشم ايام الجاهلية بصدد سلب هذه المسؤوليات من ابناء عبد الدار، غير ان هؤلاء قاوموا تلك المحاولة بطبيعة الحال، ولم يستسلموا لها، ومن هنا بدا النزاع.

حلف المطيين ولعنة الدم

افلح اولاد عبد مناف في عقد تحالفات مع بني اسد وبني زهرة وبني تيم وبني الحارث من بطون قريش، واقسموا ان لا يعودوا عن هذا الحلف او تقطع رقابهم. قال البلاذري: اما الرفاة والسقاية، فانهما لم تزلتا في حياة قصي الى عبد بن قصي، ثم صارتا الى عبد الدار بن قصي، حتى عظم شان بني عبد مناف بن قصي، فقالوا: نحن اولى بما يتولاه بنو عبد الدار، فجمعوا من مال اليهم وعرف فضلهم من بني اسد وبني زهرة وبني تيم، ومن كان داخل مكة من بني الحارث، واتوا باناء فيه طيب، فغمسوا ايديهم فيه، ومسحوها بالكعبة، وتحالفوا ان لا يسلم بعضهم بعضا ما بل بحرصوفة، وسمى الحلف بحلف المطيين [٣٢]. لم يشا ابناء عبد الدار الوقوف متفرجين، بل سعوا الى ابرام اتفاقات تحالفية مع باقي بطون قريش، وكانت هذه البطون، عبارة عن بني مخزوم وبني جمح وبني سهم وبني عدى، وقدعاب بنو عدى (معاهدة المطيين) وسخروا منهما بقولهم: «ان الطيب لربات الحجال» فاتوا بجفنة فيها دم، فغمسوا ايديهم فيها، وكان العرب اذا تحالفوا غمسوا ايديهم في الملح والرماد، فسمى بنو عدى منذ ذلك الحين بلعنة الدم او ولعة الدم. ويقال: ان بعضهم لعق من الدم، وسمى الحلف بحلف لعنة الدم. وهنا تلاحظ آثار النعمة وافرازات الترف، حيث ابى ابناء عبد مناف، وهم التجار الكبار، الذين كانوا في سفر دائم الى العراق واليمن والحبشة، والاثرياء الاشراف، ان يغمسوا ايديهم بالرماد والملح جريا على العادات السابقة، وبدلا عن ذلك غمسوا ايديهم بالطيب الثمين. فعاب عليهم خصومهم ذلك الترف وسخروا منهم واتهموهم بالتخث وتقليد النساء في افعالها، ولكي يظهر اعداؤهم المزيد من الرجولة قرروا غمس ايديهم بالدم لا العطر ومن ثم لعنه. واخذ العدا يتصاعد حتى اوشكت الحرب ان تقع بين الطرفين، لولا ما بذل من وساطات انتهت الى التصالح، على ان تكون مسؤولية (الرفاة والسقاية) لابناء عبد مناف بدل ابناء عبد الدار، بينما اقر هؤلاء على مناصبهم في (الحجابه وعقد اللوا) والاشراف على (دار الندوة)، وعلى حد قول البلاذري في (انساب الاشراف) فان ابناء عبد مناف تحملوا العبء الاكبر: «واحتملت بنو عبد مناف اعظم الامور مؤنة». فلا تتم الضيافة ولا السقاية الا ببذل الاموال الطائلة، ولا ينهض بهذه المهمة سوى الاشخاص المتمولين، في وقت عهد بسدانة الكعبة وادارة (دار الندوة) وهما امران ليس فيهما كلفة زائدة، بل فيهما موارد مالية الى الجماعة الفقيرة. ورغم ان السقاية والرفاة من الامور التي تستنزف مالا ضخما، الا انها كانت كما يبدو تدر على اصحابها موارد جيدة، علما ان قريش جميعها كانت تساهم في هذه الضيافة، ويقوم كل واحد منهم باستضافة ما يسعه من الزوار والحجاج الفقراء، وتقديم الطعام اليهم دون ثمن، ولكن يبدو ان ما يصرف على الرفاة والسقاية يؤمن اما من الضرائب التي يدفعها القرشيون سنويا، او من الاموال التي يقدمها الزوار الاثرياء كثمن لما ياكلونه من طعام. ومن الادلة على

مساهمة قريش بصورة عامة في استضافة الزوار ما رواه ابن سعد في الطبقات، قال: «كان اذا حضر الحج، قام اي هاشم في قريش فقال: يا معشر قريش، انكم جيران الله واهل بيته، وان ياتكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته فهم ضيوفه، واحق الضيف بالكرامة ضيفه، وقد خصكم الله بذلك وكرمكم به، وحفظ منكم افضل محافظ، جار من جاره، فاكموا ضيفه زوره، فهم ياتون شعثاغبرا من كل بلد على ضوامر كانهن القداح، قد ازحفوا وتفلوا وقلوا وارملوا، فاقروهم واسقوهم، فكانت قريش ترافد على ذلك حتى انه كان اهل البيت ليرسلون بالشىء اليسير على قدرهم، وكان هاشم بن عبد مناف بن قصي يخرج في كل عام مالا كثيرا، وكان قوم من قريش اهل يسر يترافدون، وكان كل انسان يرسل بمئة مثقال هرقلية (من ذهب او فضة)، وكان هاشم يامر بحياض من ادم فتجعل في موضع زمزم ثم يستقى فيها الماء من الابار التي بمكة فيشربه الحاج، وكان يطعم اول ما يطعم قبل التروية من كان بيوم بمكة ومنى وجمع عرفة، وكان يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسمن والسويق والتمر، ويجعل لهم الماء فيسقون بمنى، والماء يومئذ قليل في حياض الادم الى ان يصدروا من منى، فتقطع الضيافة ويتفرق الناس اليبلادهم» [٣٣]. ولنر الان كيف انتقلت مسؤولية الرفادة الى هاشم. هذا ما يجيب عنه البلاذري في روايته، حيث يقول: اقترح بنوعبد مناف على الرفادة والسقاية، فصارتا لهاشم بن عبد مناف، ثم صارتا بعده للمطلب بن عبد مناف بوصية، ثم لعبد المطلب، ثم للزبير بن عبد المطلب، ثم لابي طالب (والد امير المؤمنين)، ولم يكن له مال فاستدان من اخيه العباس بن عبدالمطلب عشرة آلاف درهم فانفقها، فلما كان العام المقبل ساله ان يسلفه خمسة عشر الف درهم، ويقال اربعة عشر الف درهم، فقال له: انك لم تقضى ما لى عليك، وانا اعطيك ماسالت، على انك ان لم تعد الى جميع مالى فى قابل فامرالرفادة والسقاية الى دونك، فاجابه الى ذلك، فلما كان الموسم الثالث ازداد ابو طالب عجزا وضعفا ولم يتمكن من النفقة، واعدم حتى اخذ كل رجل من بنى هاشم ولدا من اولاده يحمل عنه مؤنته، فصارت الرفادة والسقاية الى العباس، وابرا ابا طالب مما له عليه [٣٤]. والذي يفهم من الرواية نفسها ان كلا المنصبين لم يكونا خاليين من الموارد والعائدات، غير ان ابا طالب عجز عن ادارة الموقف لفقره الشديد، اذ لم تسنح له الفرصة بجمع ما كان بذمته من الديون، ويبدو ان هذه العائدات هي التي دفعت العباس الى تقديم مبلغ قدره خمسة وعشرون درهما الى ابي طالب ثمنا للمنصبين.

عبد المطلب

اشاره

عبد المطلب الذى ورد ذكره فى حديثنا عن حملته ابرهه على مكة، كان ابنا لهاشم، اما امه فكانت قد اعجبت هاشما عندما شاهدها فى يثرب فى احد اسفاره التجارية الى الشام، فطلب يدها من ابيها. كانت هذه المرأة من بنى النجار من قبيلة الخزرج، وكانت تشتتر على من يتزوجها ان يكون الامر لها، واذا ما ضاق الزوج بذلك فلها الحق فى الانفصال عنه والخروج من عصمته متى شاءت، والذى اهلها لمثل هذا الشرط مكانتها الاجتماعية المرموقة، وشرفها الذى استهوى الرجال اليها، هذا وقد اضاف والدها شرطا آخر ان تكون ولادتها فى بيت والدها لا- فى بيت زوجها، وبينما كان هاشم فى سفر تجارى الى الشام وافته المنية فى غزة، وترك الزوجة فى يثرب، وقد اولدها ولدا سماه شيبه الحمد، وسمى بهذا الاسم لانه ولد وفى شعره بياض كالشيب. وبعد ان كبر الوليد ووصل خبره الى مكة، ذهب عمه المطلب الى يثرب وعاد به الى مكة، وحين راي الناس عودته مع المطلب، ظنوا انه عبدا له، فاطلقوا عليه لقد عبد المطلب، فصار اسما له، ولم يفارقه حتى نهاية حياته. وقيل: ان المطلب ادعى فى البدايه ان الولد عبد له اشتراه من هناك، فسمى عبدالمطلب [٣٥].

اعمال عبد المطلب

كانت الرفادة والسقاية قد اوكلت الى المطلب بعد وفاة هاشم، ثم وصلت الى عبد المطلب بوفاء المطلب فى (ردمان) عند ماكان فى

سفر تجارى الى اليمن، ويبدو ان مشاكل السقاية ومصاعب توفير المياه اللازمة للحجيج، دفعت عبد المطلب الى حفر بئر كبيرة سميت فيما بعد ب (بئر زمزم). ولم يكن هذا البئر هو البئر الاول الذى حفر فى مكة، فهناك آبار اخرى تم حفرها فى انحاء مختلفة من مكة قبل هذا التاريخ، بل ان احدى الروايات قد نسبت تاريخ انشاء بئر زمزم الى زمان اسماعيل (ع)، وبهذا تكون زمزم اول بئر تم انشاؤها لسقى الحجاج. الا ان الازرقى يروى ان البئر دفنت فيما بعد بالسيل، ولم يبق لها اثر [٣٦]. كانت قبيلة جرهم قد اودعت خزائن الكعبة ونفائسها داخل بئر زمزم قبل ان تخلق مكة، ويبدو انها دفنت البئر كي لا ينتفع الاعداء من مائها، ولا يجدون طريقا للوصول الى الخزائن التى وضعت فيها، على امل ان تعود جرهم لاستخراجها ان عادت مرة اخرى الى مكة. ومهما كانت القصة الحقيقية لتلك البئر، فقد دفعت مشاكل السقاية ومصاعب الحصول على المياه اللازمة للحجاج، وتوفير ما يلزم من المخازن، عبد المطلب الى التفكير الجدى بايجاد بئر قرب الكعبة يوفر حاجة الحجيج من المياه، ويتبع بعض الآثار والعلامات المتبقية اهتدى الى المكان ذاته الذى شق فيه البئر الاول، وربما كان بعض الناس يستطيع الاشارة الى منطقة تواجد البئر ان يندرس، وقد جاء فى احدى الروايات ان الاهتدا الى موقع البئر، تم عبر رؤيا رآها عبد المطلب فى المنام، حيث شاهد غرابا ينبش الارض بمنقاره، فامر وهو فى المنام ان يشق البئر حيث نقر الغراب. لم يكن لعبد المطلب من الاولاد فى حينها سوى الحارث، فشرعا معا فى حفر البئر، ومثل هذا العمل لا يجد عادة التأييد المطلوب من الناس فى مراحلهم الاولى، بسبب عدم اطمئنانهم الى النتائج، ولم تشذ قريش عن هذه القاعدة، واكتفت تقريبا بموقف المتفرج. اما بعد ان عثر ابوطالب على بعض النفائس التى كانت مخبأة هناك، فقد تغير ذلك الموقف تماما، وابتدت قريش حماسا شديدا للمساهمة فى مشروع الحفر، وبعد ان ادعت شركتها فى تلك النفائس وسعت مطامعها، فطالبت بحصة خاصة لها فى ماء البئر وفى موارده الاخرى، وقد ترك هذا الموقف آثارا عكسية فى نفس عبد المطلب، واثار سخطة وامتعاضه، فقرر ان يهدى الى الكعبة، بعض تلك النفائس المكونة من مجسمتين، كل واحدة منهما على شكل غزال مزين بالذهب، وعدد من السيوف والدروع واسلحة اخرى، فنصبت احدى المجسمتين مع السيوف على باب الكعبة، بينما وضعت المجسمة الاخرى داخل الكعبة حيث تحفظ الهدايا والندور، وللمجسمة التى نصبت على باب الكعبة قصة طريفة سنأتى على ذكرها لاحقا. تطور الخلاف بين قريش وعبد المطلب حتى ذهب معا طبقا لورد فى المصادر التاريخية الى احد الكهنة ليحكم بينهما، وبعد جولة من النزاع انتهت الازمة على ما يبدو لصالح عبد المطلب، حيث تولى امر البئر (بئر زمزم) تبعا لبقائه فى منصب السقاية.

نذر عبد المطلب

كان عبد المطلب، الذى تحمل مشاق حفر البئر مع ابنه الوحيد الحارث، وواجه قريش وخصوماتها، وحده قد نذر ان رزق عشرة من الذكور، فسيذبح احدهم قربانا للمعبود. اذ يبدو ان التقرب بذبح الابن قربانا للمعبود، من التقاليد التى عرفها العرب منذ القدم، وكانت اقدم اشارة الى هذا التقليد عمل ابراهيم (ع) الذى قدم ابنه اسماعيل (ع) قربانا وتله للذبح لولا ان فداه الله تعالى (بذبح عظيم) علامة لتقبله قربان، كان نذر عبد المطلب ان يذبح احد ابنائهم جزءاً من هذا التقليد القديم. وبعد ان رزق عبد المطلب عشرة ابناء، جاء دور الوفاء بالنذر، وجرت القرعة طبقا للاعراف المتبعة على يد سادن الكعبة، فوقع على اصغر اولاده سنا عبد الله والذ الرسول (ص)، وهناعات من جديد ذكرى ذلك التقليد القديم، فاعترضت قريش واشارت عليه ان يجعل القرعة بينه وبين مجموعة من الابل، وكانت نتيجة القرعة التى جرت فى البداية بين عبد الله وعشرة من الابل على عبد الله، واعيدت القرعة ثانية بعد ان زيدت الابل الى مئة بعير، فوقع على الابل، وقام عبد المطلب بذبح مئة بعير فدا لعبد الله. وجعلت هذه الضحايا المئة فى متناول الجميع بلا استثناء، حتى قيل انها قد اكلت منها الوحوش والطيور دون ان يمنعها احد، وكان صاحب النذر وابنه عبد الله الوحيد اللذين امتنعا عن تناول شىء منها، وهذا ايضا من التقاليد المتبعة فى اكل لحوم القرابين.

حلف خزاعة مع عبد المطلب

يعتبر الاطلاع على ما ورد في المصادر التاريخية من تفاصيل حول الحلف الذي وقعه عبد المطلب مع خزاعة ضروري لمعرفة تاريخ العرب قبل الاسلام والتاريخ الاسلامي كذلك، وتتلخص اهمية ذلك بالنسبة الى التاريخ الجاهلي في اعطاء صورة واضحة عن كيفية ابرام المعاهدات وعقد الاتفاقيات القبائل العربية [٣٧]. واذا ثبت صحة تلك التفاصيل فانها تكشف بجلاء عن المكانة المرموقة التي كان يتمتع بها عبد المطلب داخل المجتمع المكي، ووضح دليل على ذلك عنوان المعاهدة، حيث جاء بصيغة: (حلف خزاعة لعبد المطلب) فكان التحالف بين قبيلة خزاعة من جانب، وشخص عبد المطلب من جانب آخر، وقد وقع التحالف اولاده نيابة عنه، ولم يكن بين قبيلتين، ولهذا اعتز عبد المطلب بهذه المعاهدة، واوصى ابنه الزبير بالاحتفاظ بها من بعده، ثم سلمها هذا الى اخيه ابي طالب، الذي سلمها بدوره الى اخيه العباس [٣٨]. اذن كان الحلف بين شخص (يمثل قومه وعشيرته)، وبين قبيلة باكملها، فقد جاء في نص المعاهدة: (رجال بني عمر من خزاعة ومن معهم من اسلم ومالك). [٣٩] وقد تكون هذه المعاهدة هي الاولى التي تم تدوينها ومن ثم حفظها في الكعبة المشرفة، وهذه هي النقطة الثانية التي تؤكد اهمية دراسة هذا التحالف لمعرفة التاريخ الجاهلي. وربما كانت هناك اتفاقيات اخرى تم ابرامها قبل هذه المعاهدة، ولكن تبقى هذه اقدم معاهدة وصلتنا اخبارها على اقل تقدير. ومن الامور المهمة ايضا في هذا الاتفاق، ما جرى من التأكيدات لتحكيمه، وما صدر من اعمال لتأييده وامضائه. وتنبع اهميتها بالنسبة الى التاريخ الاسلامي، من كونها المعاهدة التي احترمها خزاعة في السنة السادسة للهجرة، اثناء صلح الحديبية، فاخترت الوقوف الى جانب رسول الله (ص)، ولتأكيد احترامها الغي الرسول (ص) صلح الحديبية عندما قتل بعض المتحالفين مع قريش جماعة من خزاعة، وقد انتهى الامر الى فتح مكة.

اصناف قريش

كانت هناك جماعتان من قريش وقفت ضد عبد المطلب وحلفائه من بني خزاعة، وهما بنو امية وبنو نوفل، وكان بنو امية قد ناصبوا هاشما وابناء العدا في حياة هاشم نفسه، وليس هناك من سبب يحملهم على العدا سوى الحسد والحق اللذين امتلات بهما صدور بنو امية على هاشم لما كان يتمتع به من مكانة شريفة بين قومه، وقد اضطر امية الى الجلاء عن الوطن بسبب هذه الخصومة والعيش في الشام فترة عشر سنوات. واضطر عبد المطلب يوما الى الاستعانة بقوم امه في يثرب، لاسترجاع الارض التي كان قد غصبها منه عمه نوفل، واستعادها فعلا من عمه، وبقيت الضغائن والخصومات تتوارث بين ابناء بنو امية وبنو نوفل ضد بنو هاشم حتى توصلوا الى اتحاد يجمعهما ضد عبد المطلب الذي اضطر بدوره الى التحالف مع خزاعة.

الاحابيش

يعتقد (لامنس) [٤٠] احد المستشرقين الاوروبيين ان قريش كانت قد فقدت خصائصها القتالية ايام ظهور الرسول (ص)، واعتمدت في حربها ضد المسلمين على (الاحابيش) ويتكون (الاحابيش) في رأي (لامنس) من الحبشيين والعييد السود وبعض قبائل البدو الرحل، الذين كانوا على استعداد للقتال لقاء اجور معينة، ويرد المستشرقون الآخرون على هذه الفكرة، اذ يذكر المستشرق (منغرى واف) ملخصا عن فكرة لامنس في الملحق (ا) من كتابه (محمد (ص) في مكة) ثم يرد عليها هو الآخر، وبما انه سيرد ذكر الاحابيش في تاريخ حروب الرسول (ص)، وخصوصا في معركة احد، لذا نحاول تسليط الضوء على هذا، ونحن (المؤلف) نرفض وجهة النظر هذه ولا نقبلها عموما. من الامور التي يستدل بها لامنس على تأييد فكرته، التصرفات التي صدرت من قريش بعد هزيمتها في بدر، فطبقا لسيرة ابن هشام فان قريش اخذت تفكر بالانتقام وتخطط له، وبعد عودة قافلته التجارية من الشام سالمة الى مكة، قررت ان تنفق

ماجنته في هذه الرحلة على شرا الاسلحة وتوفير مستلزمات الحرب، ومضت فعلا في مسعاها لمحاربة الرسول (ص). لقد اتفقت قريش (واحايشها) مع قبائل من كنانة وتهامة على محاربة رسول الله (ص)، [٤١] وعند شروع المعركة (كان اول من لقيهم اى المسلمين ابا عامر من الاحايش وعبدان اهل مكة). [٤٢] وليس هناك ما يؤيد وجهة نظر لامنس في كلتا الفقرتين المذكورتين، ومن البعيد ان يكون (بالاحايش) عبارة عن الحبشيين والسود، وقد وردت كلمة احايش في قصيدة لحسان يخاطب بها قريش، غير انها هي الاخرى لا تساعد على وجهة نظر لامنس، يقول حسان: فسقتم كنانة جهلا من سفاهتكم الى الرسول فوجد الله مخزيتها فجمعتموها احايشا بلا حسب ائمة الكفر غرتكم طواغيها [٤٣]. اعتبر لامنس كلمة «بلا- حسب»، بمعنى «بلا- نسب»، ولا يوجد في الايات السابقة ما يؤيد وجهة نظر هذا المستشرق، حيث يعود الضمير (ها) في «جمعتموها» الى بنى كنانة، ويكون المعنى: (انكم جمعتم بنى كنانة كما جمعتم طوائف اخرى لا اعتبار ولا قيمة لها لمحاربة رسول الله (ص)). ويذكر لامنس ادلة اخرى كلها من هذا القبيل، اذ ليس هناك ما يساعد على الاعتقاد ان الاحايش (الحبشيون) والغلمان السود) كانوا مرتزقة، وقد ذكرت كلمة (احايش) في بعض الموارد مثل شعر حسان وشعر كعب بن مالك [٤٤] ولكنها كانت تستخدم، ويراد بها الجماعة من الناس ليس الا، سوا في الموردين الاولين او في المورد الذي يقول: ان حليس بن زبانه، او بن يزيد، كان (سيد الاحايش)، ففي هذا المورد اطلقت كلمة احايش على جماعة خاصة من الناس، وقد اعتمد لامنس على كلمة احايش في هذه الموارد واستنتج ان المراد منها (الاحباش والغلمان السود). الا انه ينبغي ان يعرف المقصود الحقيقي بكلمة (احايش) ومن هم الجماعة الذين كان يطلق عليهم هذا الاسم. الذي يظهر من الروايات ان الاحايش كانت تطلق على قبائل بنى الحارث بن عبد مناة (من كنانة، و (عضل) و (دليش) (من بنى الحصون) و (مصطلق) و (حيا) (من خزاعة) [٤٥]. وطبقا لرواية الدر المنمق [٤٦] التي نقلها عن ابن ابي ثابت، فان قريش بعد ان اخرجت خزاعة وبنى بكر من مكة واصبحت بعيدة عن انصارها من بنى قضاة وبنى اسد، خافت ان يتعرض انصارها الى الغزو من قبل بنى بكر، فعقد عبدمناف تحالفا مع القبائل المذكورة، وتم ابرام هذا الحلف في منطقة تبعد عشرة اميال عن مكة تسمى (حبش) واصبح يعرف المتحالفون ب (الاحايش). وفي رواية اخرى: ان بنى بكر ارادوا في زمن (المطلب) او (عبد المطلب) بن عبد مناف ان يطردوا قريش من مكة، فعقد (المطلب) حلفا بين قريش و (الاحايش) (اي القبائل المذكورة) وبمساعدة (الاحايش) تم لقريش النصر على بني بكر في معركة (ذات نكيف) [٤٧] وجاء في الياقوت: ان قائد قريش في هذه الحرب كان عبدالمطلب، بينما ورد في (الدر المنمق) ان القائد هو المطلب عم عبد المطلب، وفي حرب الفجار كان هؤلاء الاحايش مع قريش [٤٨]. وبهذا يتضح ان الاحايش قبائل تحالفت مع قريش ووقفت الى جانبها في نزاعاتها مع الاطراف الاخرى منذ زمان المطلب «او عبد المطلب الى فتح مكة». والصحيح في فكرة لامنس هو ان قريش انما لجأت الى التحالف مع الاحايش لخوفها من الاعداء وخشيتها من تغلب الخصوم عليها، ولكن هذا لا يعنى ان قريش فقدت قدرتها على القتال، بل قد يعنى ان قريش كانت بحاجة لمثل هؤلاء الحلفاء وهي منهمكة في تجارتها لتستطيع بمساعدتهم رد العدوان عنها ودفع الاعداء من التعرض لمصالحها، ومما لا شك فيه ان حلفاء قريش كانوا يتلقون منها بعض الاموال، وليس ببعيد ان تكون ثروة قريش من جملة العوامل التي دفعت الاحايش للتحالف معها، فالتحالف لا يخلو من مكاسب مادية لكلا الطرفين، خصوصا ان الاحايش لم يكونوا من قبائل كبيرة او معروفة في شبه الجزيرة العربية. اما كون الاحايش جميعا من الحبشيين او العبيد السود، فهذا مالا يمكن استفادته من نصوص الروايات، وتاييده. اعتمد لامنس في رايه على كلمة احايش، وقد ذكرت وجوه ومعان عديدة لهذه الكلمة دون ان ياتي ذكر لراى لامنس والمعنى الذي فهمه منها، واكثر الوجوه قبولاً ما افاده ابن الاثير [٤٩] حيث قال: «التحبش والتجمع».

الحياة المعنوية والاجتماعية في مكة

مرت الاشارة فيما سبق، الى انه طبقا لما ورد في القرآن الكريم فان ابراهيم وابنه اسماعيل كانا قد بنيا الكعبة في وادغير ذى زرع، واستقر حولها ابناء ابراهيم بسعيهم وكدحهم ثم هناك انشا ذلك المعبد التوحيدي العظيم. تعتبر مرحلة التوحيد وعبادة الله الواحد الاحد متاخرة زمانا عن مرحلة الشرك وعبادة الارباب المتعددين في تاريخ الاديان، من وجهة نظر علماء الاديان. واذا نظرنا الى تاريخ التحولات الفكرية في المجتمع البشري، فاننا نرى مرحلة التوحيد ارقى مرتبة من مرحلة الشرك وتعدد الالهة، وفي قصة ابراهيم (ع)، التي يذكرها القرآن الكريم ويشير فيها الى التحول الروحي لابراهيم (ع) من عبادة الظواهر الطبيعية الى عبادة اله العالمين، اشارة رمزية الى تحول الانسان الفكري من الشرك الى التوحيد، وهذا لا يتنافى مع كون الانبياء موحدين منذ البداية، فان الشرك مقدم من الناحية الطبيعية على التوحيد، واول مهمة للانبياء والمبعوثين الالهيين، محاربة الجهل الذي هو جزء من الطبيعة البشرية. وان الشيء الفطري المغروس في النفس الانسانية والذي بينه الله تعالى انما هو الاعتقاد بالخالق والصانع، اما الاعتقاد بالتوحيد والايان به فهذا ما يعلمه الانبياء. فكلمة (لا اله الا الله) اقرار بالتوحيد، لا الخالق والصانع. وطبقا لما جاء في القرآن الكريم فان قوم نوح كانوا يعبدون الاصنام، بينما كان نوح، الذي شرفه الله تعالى بالنبوة، يدعوهم الى ترك عبادة الاصنام والارتقاء بتفكيرهم الى مستوى اعلى. تمثل مرحلة الشرك ادنى مراتب التفكير، ولهذا فهي من الناحية التاريخية اقدم من مرحلة التوحيد، وفي الوقت الذي جعل ابراهيم (ع) وابنه اسماعيل من الكعبة مقرا للعبادة وبيتا لله سبحانه، نجد من جاء بعدهم قد ارتد بهم التفكير كباقي ابناء زمانهم، الى ادنى المستويات، ولم يمض وقت طويل حتى تحولت الكعبة المشرفة الى محل تنصب فيه الاصنام، ويعبد فيه الارباب كباقي المعابد عند العرب. جاء في الروايات وفي اخبار العرب ايام الجاهلية: ان الذي اتى بعبادة الاصنام هم خزاعة وبالذات رئيسهم عمر بن لحي، فهو الذي جاء بالاصنام من الشام ووضعها في الكعبة. وتقول روايات اخرى: ان ابناء اسماعيل كانوا ياخذون معهم عند السفر احجارا من الكعبة للذكرى والاعتزاز، ينصبونها في اى مكان يحلون فيه، ثم يبدؤون بالطواف حولها، وبالتدريج غشيتهم الغفلة عن الله واخذوا يعبدون هذه الاحجار من دونه. ان تقدم الشرك على التوحيد شيء طبيعي كتقدم الجهل على العلم والتعقل، [٥٠] ولهذا السبب عادت الكعبة ثانية لتتحول كباقي المعابد الى بيت للاصنام، لكن ذلك لم يقض على الاعتقاد الراسخ في اعماق النفس الانسانية بالصانع الذي خلق الكون والحياة، وظل اهل مكة يعتقدون بالله الاله الخالق الذي هو اكبر من بقية الالهة، ففي الوقت الذي يقدمون نذورهم وهداياهم وقرابينهم الى الالهة الصغار التي يطوفون حولها ويعبدونها دوما، وهم يقولون كما جاء في القرآن الكريم: (ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى) «الزمر: ٣» او يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله: (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) «يونس: ١٨». لقد حفظ لنا تاريخ العرب في الجاهلية عددا كبيرا من اسماء هذه الاصنام، كما ورد ذكر بعض منها في القرآن الكريم في الايات (١٩، ٢٠، ٢١) من سورة النجم: (افرايم اللات والعزى، ومناة الثالثة الاخرى، الكم الذكر وله الانثى). كان (مناة) على ساحل البحر بين مكة والمدينة، وكان اهل المدينتين (مكة والمدينة) يقدمون له المزيد من القرابين والنذور، ويكون له قدرا خاصا من التعظيم والتبجيل. ولا يكتمل حج الاوس والخزرج وكلاهما يستوطن يثرب الى الكعبة الا بعد ان يزوروا مناة، وبعد زيارة مناة يحلقون رؤوسهم قبلها. [٥١]. اما (اللات) فهو احدث من مناة، وكان محل الطائف، ومنها كان سدنته وخدامه. ويبدو ان العزى كان احدث من اللاتين (اللات ومناة) واكبر منهما، بل هو اكبر اصنام قريش قاطبة، وكان الكل يزوره ويقدم له القرابين والنذور، وكانت من بين الاسماء التي تتردد كثيرا في قريش: (عبد اللات) (عبد مناة) و (زيد اللات) (وعبد العزى) ويحكى ذلك عن عبادتهم لهذه الاسماء. ومن اصنام قريش المهمة (هبل) وقد جعل له مكان داخل الكعبة، وتم صنعه من العقيق على هيئة انسان، وقد صاغت له قريش يدا من الذهب جعلتها مكان يده اليمنى المقطوعة اصلا، وكان قد وضع امامه سبعة اقداح (اسهم)، يرجع اليها عادة في اجرا القرعة للامور المهمة والمعقدة، واذا ما واجه شخص مشكلة ما يعود الى هذه الاسهم، ويختار واحدا منها، ثم يقرأ ما كتب عليه من كلمات لتخبره بعاقبة عمله. ان كانت خيرا او شرا. وغالبا ما يرجع الى هذه الاسهم لحسم احدى المشاكل الاجتماعية المهمة التي كانت تعاني منها قريش بل العرب جميعا، وهي كيفية معرفة الاب الاصلى للمولود في ضوء العلاقات غير الشرعية واختلاط الدماء

وتردى اوضاع الزواج والطلاق، وما الى ذلك من مشاكل سناتي على بحثها لاحقا. كان يتم حسم المشكله التي تنشأ من صعوبة تشخيص الاب الحقيقي للمولود باجرا القرعة على سهمين من السهام السبعة الموجودة الى جانب هبل، وقد كتب على احد هذين السهمين كلمة (صريح) بينما كتب على الاخر كلمة (ملصق)، فاذا اصابت القرعة (الصريح) اصبح المولود ابنا حقيقيا لذلك الاب المشتبه، واذا ما اصابت (الملصق) ارتفعت ابوة هذا الاب. او قل ارتفعت بنوة هذا المولود المشتبه لهذا الاب. [٥٢]. وعندما غلب المسلمون في معركة احد صاح ابو سفيان زعيم المشركين (اعل هبل). يوضح تاريخ العرب قبل الاسلام ان القبائل العربية كانت تتخذ لها اوثانا خاصة، فلكل قبيلة صنمها الخاص الذي لا تشاركها به القبائل الاخرى وان كانت تحترمه وتقده، فمثلا اتخذت قبيلة هذيل (سواعا) وقبيلة كلب (ودا) او (ودا) وقبيلة مذحج (يغوث) بينما اختصت قبيلتا حمير وحيوان ب (نسر) و (يعوق) على التوالي. [٥٣] وقد وردت اسماء هذه الاوثان في سورة نوح، ويفهم من السورة المباركة ان قوم نوح كانوا هم ايضا يعبدون هذه الاوثان. بالاضافة الى هذه الاصنام التي كانت تعبد على امتداد شبه الجزيرة العربية والتي كانت لها اسماؤها الخاصة، كان هناك ثمة اشياء اخرى عبدها الناس من دون الله، واطلق عليها اسم (الانصاب) او (الانصب) التي وردت في القرآن الكريم في سورة المائدة الاية (٣)، التي استعرضت الحرام من اللحوم فقالت: (وما ذبح على النصب) وذكرت (الانصاب) في الاية (٩٠) من السورة الشريفة نفسها كواحدة من المحرمات التي تعرضت لها السورة. والانصاب او النصب عبارة عن احجار كانت توضع امام الاصنام لتذبح عليها القرابين المقدمة لتلك الاصنام، وكان ينبغي ان تلتخ بالدم حتى تخضب تماما وتصطبغ جميع اجزائها به. والغبغب او الععب هو اسم للمكان الذي تذبح فيه القرابين. وقال بعضهم: انه الحفرة التي ينحدر اليها الدم، من فوق الانصاب، او الاخدود الذي تكدس به النذور والقرابين المقدمة للصنم. والقربان اسم مشتق من (القرب) وهو الحيوان الذي يذبح في مراسم خاصة من اجل التقرب به الى الرب. وتسمى الحيوانات التي كانت تقدم كقرابين في شهر رجب ب (العتيرة)، وتقدم القرابين عادة للوفاء بالندى او الوفاء بالعهد او لاتمام مراسم الحج والزيارة. وتحترم الاصنام ما دامت لا تتعارض مع مصالح الزوار والعباد، وفي هذا المجال قصة طريفة اوردها ابن الكلبي في (الاصنام) وجاء فيها انه حينما اراد الشاعر المعروف امرؤ القيس الهجوم على بنى اسد انتقاما لدم ابيه، ذهب الى صنم من الاصنام يدعى (ذو الخصلة) يطلب استشارته بالامر وبعد ان اجرى القرعة في السهام الموضوعة امام الصنم، وقعت القرعة على «الناهي» اعادها ثلاث مرات فلم تصب غير (الناهي) و (الناهي) كناية عن النهي عن ذلك العمل، فغضب امرؤ القيس، وحمل على الاسهم فكسرها وضرب بها وجه الصنم، ثم شتمه وقال له: لو كان المقتول اباك لما نهيتني عن هذا العمل [٥٤]. كانت الشمس والقمر كذلك من ارباب العرب، ولهذا سمي بعضهم بعدد شمس، وقد نهى القرآن الكريم عن ذلك في الاية (٣٧) من سورة فصلت: (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر). وجاء في الايتين (٥٥) من سورة الرحمن (الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان) وقال في سورة الانعام الاية ٩٦: (فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا). تشير سورة الرحمن ايضا الى ان قسما من العرب كانوا يعبدون بعض النجوم والاشجار، وقد ورد في قصة العزى ان امرأة شريرة كانت تختفي وراء اشجار ثلاث، كان خالد بن الوليد قد قطعها بامر من الرسول (ص)، فوجد تحتها امرأة سودا شعثناء الشعر. وتظهر هذه القصة صحة الاخبار التي تتحدث عن عبادة الاشجار عند العرب، وقد شجب القرآن جميع الارباب المتخذة من دون الله، ونهى عن عبادتها، وقال في الكتاب الكريم: ان الشجر والنجم انما هي مخلوقات لله عز وجل تاتمر بامرهم. ويرى المؤلف ان تاويل بعض المفسرين الذي ورد في الاية الكريمة بانه نوع من العشب غير صحيح، حيث يذهب اكثر المفسرين الى ان المراد بالنجم، الذي اقسام به الباري في سورة النجم بقوله: (والنجم اذا هوى) «النجم: ١»، هو الثريا، واقسم بنجم آخر في سورة الطارق: (والسما والطارق)، وما ادراك ما الطارق، النجم الثاقب) «الطارق: ١-٣». ويبدو ان الليل والنهار هما ايضا من الاشياء التي عبدها العرب، وكانوا لها يعكفون، او انها كانت على الاقل تنال منهم احتراما وتقديسا، هذا ما يمكن استخلاصه من بعض الايات في سورتي الانعام وفصلت، فقد ورد في مقام الرفض والنهي عن ذلك ان اقسام الله تعالى بهما باعتبارهما آيتين من آيات الله في هذا الكون، ففي سورة الشمس اقسام الله تعالى بالشمس والقمر

بقوله: (والشمس وضحاها، والقمر اذا تليها، والنهار اذا جليها) «الشمس: ١-٣». وفي سورة الليل: (والليل اذا يغشى، والنهار اذا تجلّى) «الليل: ١-٢». وفي سورة المدثر: (كلا والقمر، والليل اذا دبر، والصبح اذا اسفر) «المدثر: ٣٢-٣٤». توضح هذه الاقسام الالهية، بالشمس والقمر والليل والنهار والصبح، المكانة غير الاعتيادية والاحترام والتقدير التي كانت تحظى بها هذه الظواهر الطبيعية عند العرب، ففي الوقت الذي يلفت به الباري جل شاناه من خلال القسم الانظار الى هذه الظواهر باعتبارها ظواهر طبيعية، يشير الى انها معلولة له ومؤتمرة بامر، حيث قال في سورة التكوير: (اذا الشمس كورت، واذا النجوم انكدت) «التكوير: ١-٢»، وفي موضع آخر يستعرض التحولات والتغيرات التي تحدث في الطبيعة من قبيل (ادبر)، (اسفر)، (جليها)، (يغشيها)، ليؤكد على انها امور زائلة لا تستقر على حال، وقد يوحى ايضا القسم بالسماء والارض كما في: (والسما وما بينها، والارض وما طحيها) «الشمس: ٥-٦». قال بعضهم: ان الشمس كانت عبارة عن وثن من اوثان العرب. [٥٥] وورد في كتاب (المحبر) اسم الشمس اثناء استعراضه لتلبية الاصنام، غير ان الظاهر ان المقصود بالشمس التي استعرض تليتها المخبر هي نفس الشمس السماوية، وكانت تلبية الذين يعبدون الشمس طبقا لما قاله المخبر (ص ٣١٢) كما ياتي: لبيك اللهم لبيك ما نهارنا بجره ادلاجه وحره وقره لا نتقى شيئا ولا نفره حجا لرب مستقيم بره. وارى (المؤلف) عدم صحة بعض الكلمات الواردة في المحبر، وقد بادرت (المؤلف) الى اصلاحها، فنجره بدل بجره، ونضره بدل نفره. جاء في قصة (المنافرة بين عبد المطلب وثقيف) التي وردت في (المنمو) ان الكاهن او القاضي الذي حكم بينهم كان قد اقسام ب (الضياء والظلم)، وقد ورد قسم مشابه في سورة التكوير: (والليل اذا عسعس، والصبح اذا تنفس) «التكوير: ١٧-١٨» واقسم في سورة الواقعة بمواقع النجوم واعتبره امرا عظيما: (فلا اقسام بمواقع النجوم، وانه لقسم لو تعلمون عظيم) «الواقعة: ٧٥-٧٦».

الحج والعمرة

تبلغ مكة في موسم الحج والعمرة اوج حرقتها وحيويتها المعنوية، ولقد اجري الاسلام تغييرات مهمة في مناسك الحج الجاهلي وآدابه، وجعله واجبا عينيا على كل مسلم مرة واحدة في حياته ان استطاع اليه سبيلا، والذي ابطله الاسلام من مناسك الحج الجاهلي تلك الامور المتصلة بالاصنام او التي لا تليق بالاداب العامة، وحافظ على تلك المراسم التي تؤكد التوحيد والاخلاص للعبادة لله وحده وتبني السلام وتشيع الامن العام وترسخ الوحدة بين المسلمين، كما شدد على اقامة المناسك التي من شانها ان تزيل الامتيازات الطبقية او الاقتصادية او العنصرية وتقوى رابطة الاخوة بين المسلمين جميعا، بما فيهم الفقرا والاغنياء، الضعفاء والاقوياء دون فرق بين احد منهم. لما حج النبي (ص) خطب الناس بعرفة وقال (ص): ان اهل الشرك والاوثان كانوا يدفعون من عرفه اذا صارت الشمس على رؤوس الجبال كانها عمائم الرجال في وجوههم، ويدفعون من مزدلفة اذا طلعت الشمس على رؤوس الجبال فانها عمائم الرجال في وجوههم، وانا لا ندفع من عرفه حتى تغرب الشمس وغسل فطر الصائم، وندفع من مزدلفة غدا ان شاء الله قبل طلوع الشمس هدينا مخالف لهدى اهل الشرك والاوثان. [٥٦]. كانت قريش ترى لنفسها امتيازات واحكام خاصة في الحج، بعبارة اخرى كان لها حجمها الخاص، فهي لا تخرج عن اطار حدود الحرم ولا ترى الوقوف بعرفات جزءا من الحج، بل تراه واجبا على اهل الحل، فقط، وهم اولئك الذين ياتون من خارج حدود الحرم، بينما كان يجب على باقي الناس ان يخلعوا ما عليهم من ملابس ولا يدخلوا في مناسك الحج الا بعد ان يرتدوا ملابس يشترونها او يستعيرونها من قريش، في وقت كان القرشيون يؤدون مناسكهم بلباسهم العادي دون تغيير او تبديل. وفي حال عجزهم عن الحصول على ملابس قرشية شرا او اعارة كان عليهم ان يطوفوا عراة كما ولدتهم امهاتهم. وقد شجب الباري جل شاناه هذه الفاحشة ونهى عنها في محكم كتابه الكريم: (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها قل ان الله لا يامر بالفحشاء اتقولون على اللهم لا تعلمون) «الاعراف: ٢٨». ينقسم العرب في ادائهم لمراسم الحج الى مجموعتين: مجموعة (الحمس) ومجموعة (الحلة) او اهل الحل، ولكل من المجموعتين اعمالها الخاصة في الحج، وقد اضاف البعض مجموعة ثالثة سماها (الطلس) وهم الذين يحجون بمناسك بعضها من الحمس وبعضها الاخر من اهل الحل. والحمس هم اهل قريش

وقبائل خزاعة والقبائل التي لها صلة ونسب بقريش. وقد استغلت قريش موقعها في سدانة الكعبة المشرفة، فاتخذت لنفسها امتيازات خاصة، كالتى اشرنا اليها من عدم الوقوف بعرفات والطواف بنفس ملابسهم دون حاجة الى تبديلها كما هو الحال مع اهل الحل، غير انهم الزموا انفسهم التزامات اخرى وشددوا عليها، فاذا نسكوا لم يدخروا لبنا، ولم يحولوا بين مرضعة ورضاعها حتى يعافه، ولم يجزوا شعرا ولا ظفرا، ولم يدهنوا، ولم يمسوا النساء ولا الطيب، ولم ياكلوا الحما، ولم يلبسوا فى حجهم وبرا ولا صوفا ولا شعرا، يلبسون الجديد، ويطوفون بالبيت فى نعالهم لا يطاون ارض المسجد تعظيما له، ولا يدخلون البيوت من ابوابها [٥٧]. كان اكثر العرب يكفون عن الحرب والنزاع فى الاشهر الحرم: ذى القعدة وذى الحجة ومحرم. وقد اتبع هذا التقليد اصلا كما يبدو لوقوع الحج فى هذه الاشهر الثلاثة، ولبلوغ التجارة ذروتها فى هذا الموسم من السنة، ومن الواضح ان مناسك الحج تبدا فى ذى الحجة، غير ان حركة السوق تكون مع توافد الزوار وتقدم الحجيج فى ذى القعدة، ولا تنتهى الا بعد رحيلهم الى اوطانهم. وقد يمتد ذلك الى المحرم، ولكى تؤمن الطرق وتمنع الغارات ويشعر الناس بالاطمئنان، فتزدهر التجارة، وينشط السوق، فلا بد من فرض مثل هذا الموسم السلمى. والذى يشعر فيه الزوار بالامان، ويجد فيه التجار المناخ المناسب لمواسماتهم وتوسع حركتهم التجارية. اما العمرة فموعدا شهر رجب، الذى الحق هو الاخر بالاشهر الحرم، مع ان هناك من بين القبائل العربية من لا يؤمن بهذا الموسم ولا يقيم له وزنا، كقبيلتى (طىء) و (خثعم) اللتين لا تقيمان حرمة للحج او الكعبة. كان الناس يداون تجمعهم فى سوق عكاظ منذ الايام الاولى لشهر ذى القعدة، ويقيمون هناك عشرين يوما يقضونها بالبيع والشرا وتبادل البضائع فى حركة دائبة حتى يغادروا السوق الى مكان آخر يدعى (مجنة) يمكنون فيه عشرة ايام، وكان يموج بالحركة، وتزدهر فيه التجارة، وبعد انقضاء ذى القعدة ودخول ذى الحجة يغادر الناس (مجنة) ويتجهون الى مكان آخر يعرف ب (ذى المجاز) ينشغلون فيه بالتجارة ايضا حتى ياتى اليوم الثامن او ما يسمونه بيوم التروية، وهو آخر ايام التجارة، وفيه يبدأ الاستعداد لمغادرة (ذى المجاز) الى عرفه، واول شىء يقومون به هو تخزين المياه اللازمة لحملها معهم الى عرفات حيث لا ماء هناك، ومن هنا سمي هذا اليوم بيوم التروية (اي يوم الارتواء من الماء). ومن ثم يشرع بمناسك الحج ومراسم العبادة، حيث تلبى كل قبيلة تلبيتها الخاصة بها، وتردد شعار الولاء لالهتها. كانت قريش وباقي العرب تحرم دخول اسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز قبل عقد الاحرام وارتداء الملابس الخاصة به، وبدخول الانسان حالة الاحرام يصبح فى حالة روحانية خاصة تصده عن ارتكاب التجاوزات والاعتدا على الاخرين، ويستبطن هذا الامر نقطتين مهمتين: الاولى: اعتياد العرب على الاعتدا والغضب والغزو، الامر الذى تحول الى عادة وسنة من سننهم، لا يمتنعون عنها الا حينما يبدأ الموسم التجارى السنوى، وتنشط الاسواق العامة بحركة البيع والشرا والكسب. الثانية: رغم تحول هذه الحالة الى حالة الاعتدا والغزو الى صفة عامة لجميع العرب تقريبا، الا انه كان يرفضها الوجدان العام ولا يقرها الضمير الباطنى، لهذا كانوا ومنذ القدم يمتنعون عن هذه الاعمال ويابون ارتكابها عند دخولهم فى حالات دينية وروحية معينة. يبدو ان الدخول فى حالة القداسة الدينية (الاحرام) والتجارة كانا توأمين، فمن ناحية يطمئن الوجدان الدينى وتكون الاحساسات والمشاعر الروحية والمعنوية فى حالة من السكينة والاستقرار، ومن ناحية ثانية تجد التجارة مناخا جيدا من الامن والامان يساعد على نموها ويوفر للقوافل التجارية طرقا آمنة وسوقا مزدهرة. وبناء على هذا فان هذه الاشهر الثلاثة المتتالية التى تسمى الاشهر الحرم، تمثل قمة الحيوية الروحية وذروة النشاط الاقتصادى والاجتماعى وتكثر فيها الافراح والاحتفالات. لقد اقر الاسلام هذه الاشهر الحرم، ووجد فيها فرصة جيدة لتأكيد اهتمامه بالامن وحرصه على رفاه الناس واستقرارهم، ثم عمل على تهذيب مناسك الحج مما علق بها من مظاهر الشرك وشوائب الجاهلية، وفى الوقت نفسه اقر ما فيه من طقوس تعود بالنفع المادى والمعنوى على الناس، وازاد اليه مناسك ترقى به من الجانب الروحى وتضفى عليه مسحة عبادية وروحية خاصة. فمن التقاليد التى نهى عنها الاسلام مسألة (الصرورة) وتطلق على الحجة الاولى للشخص ويقال لصاحب هذه الحجة (الصرور). اذ يبدو ان العرب قد اعتادوا فى الجاهلية على ترك المجرم حتى لو ارتكب ذنبا عظيما كالقتل، وعدم التعرض له فى الحرم المكى فيما لو ادعى انه صرور ولم يسبق له ان حج او تعرف على ما يجب اجتنابه فى موسم الحج. لقد نهى الرسول (ص) عن ذلك، وقال: «لا صرورة فى الاسلام»، ودعا الى معاقبة المذنبين

والاقتصاص منهم وعدم السماح لهم بارتكاب ما من شأنه انتهاك حرمة الحرم المكي. وقال البعض: ان الصرورة تعنى الرهبانية واعتزال النساء. [٥٨].

سوق عكاظ

يقع سوق عكاظ مسير ثلاثة ايام بلياليها عن مكة، ويفتح هذا السوق ابوابه في شهر ذى القعدة من كل عام وقيل في شوال غير ان الرواية الاولى اقرب الى الصحة لما قيل من انه يفتح في الاشهر الحرم. ويعتبر سوق عكاظ من اهم الاسواق السنوية في شبه الجزيرة العربية على الاطلاق، فلو فتح في غير هذه الاشهر لتعرض الى الغزو والنهب والسلب. قال ياقوت في ذيل ترجمته لعكاظ: «قال الاصمعي: عكاظ نخل في واد بينه وبين الطائف ليله، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الاثرا، وبه كانت ايام الفجار، وكان هناك صخور يطوفون بها ويحجون اليها». وهذا دليل على ان الحج والتجارة كانا يقترنان عند عرب الجاهلية، ففي ظل الحج وحرمة الدينية يتمتع الاقتصاد بالامن والازدهار، وفي ظل الاقتصاد يتوجه الناس الى المعابد واماكن الزيارة، فضلا عن كون عكاظ اجتماعا دينيا واقتصاديا، فهو منتدى لاشاعة الثقافة والادب والمسائل السياسية، فالقبائل تتحدث عن مناقبها ومفاخرها، والشعرا ينشدون اشعارهم، وتعقد هناك معاهدات الصلح والسلام. «كانوا ينزلون دومة الجندل اول يوم من ربيع الاول، فيقيمون اسواقها بالبيع والشرا والاخذ والعطاء، وكان يعشوم فيها اكيدر وهو ملكها وربما غلب على السوق كلب، فيعشوم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك الى آخر الشهر، ثم ينتقلون الى سوق هجر من البحرين في شهر ربيع الاخر فتكون اسواقهم بها، وكان يعشوم في هذا السوق المنذر بن ساوى احد بنى عبدالله بن دارم وهو ملك البحرين ثم يرتحلون نحو عمان من البحرين ايضا فتقوم سوقهم بها، ثم يرتحلون فينزلون ارم وقرى الشحر من اليمن فتقوم اسواقهم بها اياما، ثم يرتحلون فينزلون عدن من اليمن ايضا فيشترون منه اللطائم وانواع الطيب، ثم يرتحلون فينزلون حضرموت من بلاد اليمن، ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء، فتقوم اسواقهم بها، ويجلبون منها الخرز والايوم والبرود وكانت تجلب اليها من معافر، ثم يرتحلون الى عكاظ في الاشهر الحرم، فتقوم اسواقهم ويتناشدون الاشعار ويتحاجون، ومن له اسير سعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع الى من له الحكومة، وكان الذي يقوم بامر الحكومة فيها من بنى تميم، وكان آخر من قام بها منهم الاقرع بن حابس التميمي، ثم يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج، ثم يرجعون الى اوطانهم وقد حصلوا على الغنيمه، وآبوا بالسلامة». [٥٩]. وكان ملك الحيرة يبعث الى هناك قوافل تجارية، تحمل معها اكثر ما تحمل الطيب وخاصة المسك، ويبدو ان المسك ياتي من طريق التبت او افغانستان او من بلاد ما ورا النهر، وينتقل من فارس الى الحيرة وشبه الجزيرة العربية، ومن هناك يشتري الادم والحريير والوكاء [٦٠] والحذا والبرود من العصب والوشىء والمسير [٦١] والعدنى [٦٢]. وذكر الحريير من جملة هذه البضائع المشتراة، يبدو انه اشتباه، لان الحريير كان يصدر من فارس والصين الى الروم والمغرب. وكانت احدى هذه القوافل قد تسببت في حرب طاحنة هي حرب الفجار. لم يكن عكاظ مجرد سوق لتبادل البضائع، وانما كان ايضا ناديا ثقافيا وادبيا عاما، يلقي فيه الشعرا آخر قصائدهم، ويتصيد فيه الشبان عشيقاتهم الجميلات من فتيات القبائل العربية المختلفة، وقد ادت احدى حالات العشق هذه الى نشوب احدى حروب الفجار، وكان من بين القبائل العربية من لا تقيم اية حرمة لهذه الاسواق ولا ترعى فيها الا ولا ذمة، فيسبب ودخولها حالة من الهلع وفقدان الامن والاستقرار، وقد اطلق على هؤلاء اسم «المحلون»، بينما كانت هناك طائفة من العرب وظيفتها حماية المظلوم وردع الظالم والحيلولة دون اراقة الدماء، ودعى هؤلاء ب (الذادة المحرمون).

ايام الحج

يبدو من كلام القلقشندى في صبح الاعشى ان الاسفار التجارية للعرب كانت تقترن دائما بموسم الحج والزيارة، وتبدا هذه الاسفار من الشام في شهر ربيع الاول، وتنتهى الرحلتان معا (رحلة الحج، ورحلة التجارة) في شهر ذى الحجة في الحجاز. ونظرا لارتباط التجارة

بالحج وحصولهما معا في موسم واحد، فلا بد ان يكون محل هذا الموسم محلا ثابتا من السنة، ومع الالتفات الى ان البضائع يجب ان تعرض في الاسواق في فصل معين من السنة، فلا بد ان نقول ان الاسفار التجارية حول شبه الجزيرة العربية تبدأ في فصل معين من السنة الشمسية، وتنتهي في فصل معين ايضا من هذه السنة، ويمكننا القول بالالتفات الى كلمة ربيع الاول ان هذا السفر يبدأ في الربيع وينتهي في آخر الخريف. وبناء على ذلك فان ايام الحج واقامة هذه الاسواق الشهيرة كانت في اواخر الخريف واوائل الشتاء، وهذا شيء طبيعي بالنسبة الى المناخ في شبه الجزيرة العربية، ففصل الخريف هو الفصل الذي تنضج وتجنى فيه اهم الثمار وهي التمور، وبما ان القبائل العربية تجتمع في موسم الحج والتجارة في سوق عكاظ، فينبغي ان يكون تجمعها هذا في وقت مناسب من حيث المناخ لاقامة هذه المراسم العبادية والقيام بالنشاط التجاري المطلوب واقامة حفلات الفرح والابتهاج. ولم تحظ مسألة المناخ وارتفاع درجات الحرارة بالاهمية ذاتها بالنسبة الى قوافل التجارة القادمة من بلاد الشام وسواحل الخليج الفارسي والبحر العربي، باتجاه اليمن، ومن هناك الى الحجاز لانها اعتادت السفر والفتة، ولان اقصى ما يمكن ان تصله درجة الحرارة في صنعاء (٢٨) فوق الصفر صيفا، كما ان شهرى حزيران وتموز هما اشد الشهور حرارة هناك [٦٣]. اما الشهور العربية فهي شهور قمرية، والسنة عبارة عن (١٢) شهرا قمرية، وتقل عن السنة الشمسية بعشرة ايام واحدى وعشرين ساعة واثنى عشرة دقيقة. وبهذا يصبح الفرق بين التاريخ القمري والتاريخ الشمسي شهرا واحدا تقريبا في كل ثلاث سنوات. وبعبارة اخرى تعادل كل ثلاث سنوات شمسية ثلاث سنوات قمرية وشهرا واحدا. وبناء على ما ينقله ابو ریحان البيروني، [٦٤] فان السنة المعتمدة لدى الاقوام السامية (العبرانيين والصائبين والحرائين) هي السنة الشمسية، اما الاشهر فهي بحسب السنة القمرية، لانهم كانوا يحسبون الايام والاحتفالات والاعياد وفقا للسنة القمرية، ولكنها تنطبق مع فصول السنة الشمسية، وذلك لانهم كانوا يكسبون سبعة اشهر قمرية في كل (١٩) سنة قمرية، لكي تنطبق ايام الاعياد والمناسبات الدينية الموزعة وفقا لاشهر القمرية على فصول السنة الشمسية. وكان العرب يكسبون الاشهر بما يقرب من هذا، وقد اخذوا هذا الحساب عن اليهود، وجروا عليه لما يقرب من (٢٠٠) سنة قبل الاسلام، وكانوا يكسبون (٩) اشهر في كل (٢٤) سنة بدلا من (٧) اشهر في كل (١٩) سنة، وبذلك تنطبق عندهم السنون القمرية مع فصول السنة الشمسية دون تقديم او تاخير، وكان عمل النسيء او الكبيسة يؤديه افراد متمرسون من قبيلة كنانة يعرفون ب (القلمس) [٦٥]. وفي موضع آخر من الاثار الباقية، [٦٦] يقول: كان العرب في الجاهلية، يعملون بالاشهر القمرية كما هي عليه بعد الاسلام، الا انهم كانوا يكسبونها، فكان حجهم يدور على الفصول الاربعة، بسبب الكسر المتبقي من جرا الفرق بين السنة القمرية والسنة الشمسية (وهو (١٠) ايام و (٢٠) ساعة). ومن ثم ارادوا ان يكون الحج موافقا لموسم المحصولات الزراعية والمنتجات الحيوانية كالجلود وغيرها، فجعلوا موسم الحج ثابتا على مدار السنين وذلك لانهم كانوا ينسئون الشهر، حيث يضيفون كسور السنة القمرية الى نفس السنة القمرية بعد مضي شهر واحد من السنة الشمسية، وكان المتولى لهذا العمل هو احد افراد قبيلة كنانة من (القلامس)، حيث يخطب في موسم الحج معلنا اضافة هذا الشهر الى السنة، ويسمى الشهر الذي يليه بالاسم نفسه، فاذا اضيف شهر الى السنة القمرية في اول السنة فيسمى الشهر المضاف محرما، والشهر الذي بعده، والذي هو صفر بالحقيقة، يسمى ايضا محرما. وقد توافق العرب في الجاهلية على هذا العمل، وكانوا يسمونه النسيء، اى التاخير او الاضافة، فالنسيء الاول كان في المحرم، ففي سنة النسيء الاولى ذات ال (١٣) شهرا يكون محرمان متتابعان، فيصير صفر محرما وربيعة الاول صفرا وهكذا يستمر النسيء حتى يقع المحرم في ايامه الحقيقية، ومن ثم يبدأون بالنسيء، ويستمد دوران الشهر القمري على فصول السنة الشمسية الاربعة حتى يقع في ايامه الحقيقية (٣٢) سنة. وايام هجرة الرسول (ص) كان النسيء قد وصل الى شعبان، اى ان شعبان الواقعي جعلوه محرما اى اول اشهر السنة، وجعلوا رمضان الواقعي صفرا، فلبث رسول الله (ص) عشر سنين، حتى حلت حجة الوداع، فوافقت في ذى الحجة، ولذلك قال (ص): «الا وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والارض، السنة اثنا عشر شهرا، منها اربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»، اراد (ص) ان يقول ان الاشهر الحرم رجعت الى مواضعها وعاد الحج الى ذى الحجة وبطل النسيء. هذا ما ذكره ابو ریحان البيروني، وهو الاقرب الى الصحة، بل هو الاصح في راينا والاكثر واقعية

من جميع الارا التي ذكرها المحدثون والمفسرون واللغويون والرواة في معنى (النسيء)، فقد اوضح ابو ريحان ان كل اربع وعشرين سنة كانت هناك سنة كبيسة من تسعة اشهر، وكان شهر شعبان من السنة الاولى للهجرة هو شهر محرم واقعا، وكان شهر رمضان من تلك السنة هو الشهر التاسع (اي الاخير) من السنة الكبيسة التي انتهت بها دورة الاربعة والعشرين عاما، وكان يجب ان تمر ثمانية اعوام اخرى تقريبا حتى يعود محرم الى موقعه الاصلى من السنة. ولهذا اعلن الرسول (ص) في السنة العاشرة للهجرة بعد اتمامه لحجة الوداع ان الاشهر القمرية عادت الى مواقعها الاصلية ولا حاجة للنسيء مستقبلا. وقد ورد في القرآن الكريم ما يؤيد الراى الذى ذهب اليه البيرونى، قال تعالى: (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض..). «التوبة: ٣٦». وجاء هذا التاكيد على ان عدة الشهور (اي شهور السنة) عند الله اثنا عشر شهرا، لينفى ما جرت عليه العادة من جعل السنة الكبيسة ثلاثة عشر شهرا. لقد اكد البارى جل شاناه على ان السنة تتكون من اثني عشر شهرا لا اكثر ولا اقل، ونفى ان تكون السنة ثلاثة عشر شهرا، والنسيء او الكبيسة، طبقا لقول البيرونى، هو اضافة شهر واحد على الاثني عشر شهرا، اما الاشهر الحرم فهي اربعة فقط، لىتم نفي الشهر الخامس من الاشهر الحرم الذى سيتحقق فيما لو اقرت السنة الكبيسة فيتكرر محرم فيها مرتين. وجاءت الاية التالية لتقول: (انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلون عامه ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله) «التوبة: ٣٧». وتوضح الاية ان النسيء هو زيادة شهر واحد على اشهر السنة الاثني عشر، جاء (فى لسان العرب ذيل كلمة النساء): (النسيء: شهر كانت العرب تؤخره فى الجاهلية). اى كما نصت عليه الاية الشريفة (زيادة فى الكفر) فقد جرى العرب ايام الجاهلية على هذه السنة (يضل به الذين كفروا) فزيادتهم هذا الشهر يزدادون ضلالا، اذ يحلون احد الاشهر الحرم عاما ويحرمونه عاما فى اشارة الى السنة الكبيسة (ليواطئوا عدة ما حرم الله) ليجعلوا الاشهر الحرم متوافقة مع مصالحهم واهوائهم من خلال النسيء، وبعبارة اخرى ان من شان ذلك النظام (النسيء) ان يغير مواقع الشهور فى السنة، فيصبح شهر ذى الحجة مثلا حراما مرة وحلالا اخرى، وهو الشهر المقدس وشهر الحج والعبادة، لينسجم مع مصالحهم التجارية من خلال انطباقه على فصول السنة الشمسية، لهذا اكتسب امر الغاء النسيء اهمية قصوى من الناحية الدينية والاجتماعية، فبركته لم يعد الحج مقترنا بالتجارة، وخلص مماعلق به من شؤون الدنيا ومشاكل الحياة المادية، ولم تعد ايامه تحدد فى موعد ثابت، وهو الموسم الذى تزدهر فيه التجارة وتعرض فيه المحاصيل الزراعية والصناعية ويكثر فيه البيع والشراء، وعلى الحجاج من الان فصاعدا ان يقصدوا مكة ويشدوا الرحال اليها من اجل الحج وتادية مناسكه واقامة هذه الشعيرة الالهية لىس الا، وبناء على هذا تم اقفال سوق عكاظ الى الابد، واكتسب امر الغاء النسيء اهميته الاجتماعية من خلال اخراج العرب من حالة البداوة والترحال الى حالة الاستقرار والتحضّر، اذ لم تعد التجارة شانا موسميا يمارسه اهل البادية فى موسم معين من السنة ويتركونه ما بقى منها، لقد اصبح على القبائل المتنقلة ان تمارس التجارة على مدار السنة وفى جميع الفصول. وكان ذلك من الانجازات المهمة التى حققها الاسلام فى حياة العرب وفتح لهم آفاق التمدن، وعلمهم نظم الحياة وكيفية ادارة شؤون المدن الكبرى فى آسيا وافريقيا.

اديان اخرى فى مكة

لىس لدينا معلومات عن وجود قبائل فى مكة كانت قد اعتنقت اليهودية، فى الوقت الذى كانت توجد مثل هذه القبائل بكثرة فى يثرب واليمن واطرافهما، كما كان هناك من القبائل العربية من دانت بالديانة اليهودية، وسياتى الحديث فى محله عن خصومات هذه القبائل وصراعها مع الرسول (ص)، وكان فى مكة بعض المسيحيين الذين لجأوا اليها من بلاد الروم والحبشة وبلدان اخرى. قال اليعقوبى: «تنصر من احياء العرب قوم من قريش من بنى اسد بن عبد العزى، منهم: عثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزى، وورقه بن نوفل بن اسد» [٦٧]. وتذكر بعض المصادر التاريخية ان هناك قوما من قريش كانوا قد تزندقوا فقالوا بالثنوية. ويقصد بالزنادقة قديما (المانويين)، ثم تحولت الكلمة الى مصطلح يطلق على كل من خالف الدين الاسلامى. جاء فى المحبر ذكر بعض الاسماء (من قريش) التى اشتهر اصحابها فى عدائهم لرسول الله (ص) وعبر عنهم ب (زنادقة قريش)، من بين هؤلاء ابو سفيان بن حرب. [٦٨] غير ان ذلك

يتنافى مع الشعار الذي رفعه ابو سفيان يوم احد حيث صاح باعلى صوته: «اعل هبل» الا اذا قلنا ان ابا سفيان اطلق ذلك الشعار باعتباره ممثلاً لقوم كانوا يعبدون الاصنام وهم قريش ولا يعبر بذلك عن معتقداته المانوية. ومن الزنادقة او المانويين الذين وردت اسمائهم في المحبر: العاص بن وائل السهمي، والد عمر بن العاص، والوليد بن المغيرة المخزومي، والد خالد بن الوليد. وجاء في المحبر ان المانوية ديانة اقتبسها اهل قريش من نصارى الحيرة. على ان المانوية غير النصرانية، وهي ديانة مستقلة تماما عن النصرانية، وقد تكون اوجه التشابه بين الديانتين في قضايا الزهد والعبادة، هي التي سببت هذا الخلط بين الاثنتين، خصوصا ان بعض الفرق في العراق كانت قد اخذت عقائدها من المانوية والمسيحية، الامر الذي اوقع بعض المؤرخين في مثل هذا الالتباس، وقد استوطن الحيرة قوم كان فيهم المسيحيون وعبدة الاصنام المشركون وربما المانويون ايضا. يقول ابن قتيبة: «وكانت الزندقة في قريشاخذوها من الحيرة». [٦٩] ويضيف ابن قتيبة في الصفحة نفسها: ان جماعة من تميم كانت تدين بالديانة الزرداشئية، وقد عقد صاحب المنمق فصلا خاصا لمن كانت امهاتهم من اليهود من ابناء قريش. [٧٠]. وبمطالعة هذا الفصل الذي افرده المؤلف لهذا الغرض، يتضح عدد القرشيين الذين تزوجوا يهوديات من يهود يثرب وخيبر وغيرهم. لكن يبدو ان احدا من هؤلاء الابناء لم يتابع امه في دينها، بل بقوا على ديانة آباءهم.

مراسم الزواج

كانت العلاقة بين الزوج والزوجة، طبقا لما جاء في المحبر، [٧١] على اربعة انواع: ١- امرأة تخطب فتزوج. ٢- امرأة يكون لها خليل يختلف اليها، فان ولدت منه قالت: «هو لفلان»، فيتزوجها بعد ذلك. ٣- امرأة ذات راية يختلف اليها، فان جاء اثنان فواياها في طهر واحد، الزمت الولد واحدا منهما، وهذه تدعى المقسمة. ٤- رجل يقع على امه قوم، فتحمل منه ويكون لها ولد، فان رغب في ابتياع ذلك الولد فله ان يدعيه، ويكون له في هذه الحالة حق شرا الامه واتخاذها زوجة له. وكانوا يخطبون المرأة الى ابيها او اخيها او عمها او بعض بنى عمها، وكان يخطب الكفء الى الكفء، فان كان احدهما اشرف من الاخر في الحسب ارغب له المهر، وان كان هجينا خطب الى هجين فزوجه هجينة مثله، فيقول الخاطب اذا اتاهم: «انعموا صباحا». ثم يقول: «نحن اكفأؤكم ونظراؤكم، فان زوجتمونا فقد اصبنا رغبة واصبتموها، وكنا لصهركم حامدين، وان رددتمونا لعلة نعرفها، رجعنا عاذرين». وان كان قريب القرابة منه او من قومه قال ابوها او اخوها اذا حملت اليه: «ايسرت واذكرت ولا- آنت! جعل الله منك عددا وعزاو جلدا، احسنى خلقك، واكرمى زوجك، وليكن طيبك الماء»، واذا زوجت في غربة قال لها: «لا ايسرت ولا اذكرت، فانك تدنين البعدا، وتلدين الاعداء، احسنى خلقك، وتحبى الى احمائك، فان لهم عليك عينا ناظرة واذنا سامعة، وليكن طيبك الماء». [٧٢]. ومن هنا تتبين الاهمية القصوى التي كان يوليها العرب لشرف الشخص وحسبه ونسبه خصوصا عند تزويجه، والاهم من ذلك ما اشرنا اليه سابقا الانتماء القبلى ومنزلة القبيلة التي هي اهم وحدة اجتماعية في المجتمع العربي الجاهلي آنذاك. وغالبا ما كان يعرف الاشخاص بقبائلهم كما يعرف الافراد حاليا باوطانهم وجنسياتهم. ويظهر من خلال هذا الاستعراض ما كانت عليه المرأة من مكانة اجتماعية متردية لا ترقى الى مستوى الرجل باية حال من الاحوال، لذا كان هم الالباء والاقرباء جميعا ان تلد بناتهم ذكورا لا اناثا، فبهؤلاء الذكور تنال القبيلة عزها وترفها، وبهم فقط يفتخر الالباء لا بالبنات مهما كثرن، علما ان التفاخر بالابناء والالباء كان من التقاليد المعروفة التي درج عليها العرب في الجاهلية حتى صارت تقليدا من تقاليدهم الدينية. لقد جاء في القرآن الكريم ان العرب كانوا يذكرون مفاخر آباءهم، ويعودون الى التفاخر بها بمجرد اتمامهم لمناسك الحج، وكان يدعوهم لان يذكروا الله كذكرهم آباءهم او اشد ذكرا، (فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم او اشد ذكرا...) «البقرة: ٢٠٠». لقد جرت العرب على عدم توريث النساء شيئا مما ترك الالباء والابناء، وكان ذلك من بين المظاهر الكثيرة التي تدل على احتقار المرأة وهبوط درجتها في السلم الاجتماعى الجاهلى، فالذكور وحدهم الذين يرثون لانهم وحدهم القادرون على ركوب الخيل ومهاجمة الاعداء وجلب السلب والنهب، وهم الذين يردون كيد الاعداء عن القبيلة ويشيدون امجادها ومكارمها ومفاخرها، هؤلاء هم وحدهم الذين يرثون آباءهم، اما الصغار، حتى من الذكور، فلا نصيب لهم من الارث قط.

جاء في بعض المصادر التاريخية ان اول شخص خرج على هذا التقليد الجاهلي فورث ابنته حصه من ماله تساوى نصف ماورثه لابنه هو (ذو المجاسر اليشكري). هذا وقد جعل الاسلام للبنات والامهات نصيبا من الارث. وفي الوقت الذي كرم فيه الاسلام المرأة شجب الاعراف الجاهلية القاضية باحتقارها وحرمانها موقعها وحقوقها في الحياة: (واذا بشر احدكم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب الا- ساء ما يحكمون) «النحل: ٥٨-٥٩». في الاية الشريفة اشارة الى عادة (واد البنات) التي اشتهرت لدى العرب قبل الاسلام، فكان يلجا بعض الاباء الى دفن اولادهم وخاصة البنات وهم احياء، وتشير الاية الشريفة هنا الى الاسباب الاجتماعية لذلك، والتي تتلخص بالخوف من العار الذي يلحق بالاب ومن ثم بالقبيلة اذا ما وقعت البنت بالاسر واخذتها القبائل الغازية معها، كما يوجد هناك سبب آخر كان هو الاخر يدفع الاباء الى دفن اولادهم، حتى الذكور منهم، وقتلهم والتخلص منهم وهو الخوف من الفقر والجوع. لقد شجب القرآن الكريم عملهم القبيح هذا، رفض اسبابه قائلا: (ولا- تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم) «الانعام: ١٥١». ويقول في آية اخرى: (ولا- تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا) «الاسرا: ٣١»، ويشير في سورة التكوير الى دفن البنات احياء، ويهدد مرتكبي هذا العمل بقوله عز وجل: (واذا المؤودة سئلت، باى ذنب قتلت) «التكوير: ٨-٩». واشتهر الطلاق عند العرب، وكان من يطلق زوجته ثلاث مرات، لا يستطيع العودة اليها بعد. [٧٣]. وكان باستطاعة النساء ان يتزوجن بعد الطلاق مباشرة، وليس هناك من عدة يلتزم بها، ولهذا كانت تحدث بعض المشاكل نتيجة الاشتباه في آباء الاولاد الذين يولدون في بيت الزوج الثاني، ولا يعلم بالدقة من هو الاب الحقيقي لهم، هل هو الزوج الاول ام الزوج الثاني؟. [٧٤] وقد استطاع الاسلام بتشريعه لعدة النساء حل هذه المشكلة الاجتماعية جذريا. اما المرأة التي يتوفى عنها زوجها، فكان عليها ان تعتد سنة كاملة، ولا يسمح لها بالزواج قبل مرور سنة. [٧٥]. وكانت العرب لا تنكح البنات ولا الامهات ولا الاخوات ولا الخالات ولا العمات. وكانت تزوج نساء آبائهن، وهو اشنع ما كانوا يفعلون، فيقال للذي يخلف على امراء ابيه (الضيزن). وكان الرجل اذا مات قام اكبر ولده، فالقى ثوبه على امراء ابيه، فورث نكاحها، فان لم يكن له حاجة فيها، تزوجها بعض اخوته بمهر جديد، وقد فرق الاسلام بين رجال ونساء آبائهموهم كثير. [٧٦]. وكانوا يجمعون بين الاختين، فلما جاء الاسلام نهى عن ذلك وحرمه. وكانوا لا يعطون البنات والنساء ولا حتى الصبيان شيئا من الميراث، ولا يورثون الا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل. ثم ذهب عرب الجاهلية الى ابعد من ذلك حيث جعلوا للورثة الحق في تزويج المرأة او عدم تزويجها، بل كان الورثة يرثون نكاح النساء كما يرثون المال، الى ان انزل الله تعالى في ذلك قرآنا: (ي آيها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن...) «النساء: ١٩».

المساعة

وهي احد الاعراف المشهورة في الجاهلية حيث لم يكن العرب يجدون مانعا من ان يضع احدهم ما عنده من الاماء تحت طلب الرجال مقابل اجر معين ياخذة لنفسه، ولا- تكون المساعة الا- في الاماء لانهن كن يسعين على موابهن فيستطعن ان يجمعن ما يدفعن به الضرائب التي كانت عليهن، وفي حديث عمر انه اتى بنساء او اماء ساعين في الجاهلية، فامر باولادهن ان يقوموا على آباءهم ولا يسترقوا. ومعنى التقويم ان تكون قيمتهم على الزناة. فيكونوا احرارا، وتلحق انسابهم بآبائهم الزناة. وكان عمر يلحق اولاد الجاهلية بمن ادعاهم في الاسلام على شرط التقويم، واذا كان الوطء والدعوى جميعا في الاسلام فدعواه باطله والولد مملوك. قال ابن الاثير: واهل العلم من الائمة على خلاف ذلك، ولهذا انكروا باجمعهم على معاوية في استلحاقه زياد ابن ابيه. فقد كان ابو سفيان قد وطىء امه في الجاهلية، وتمت الدعوى (اي دعوى البنو لابي سفيان) في الاسلام. [٧٧]. وقد جاء في المحبر: ومن سنتهم انهم كانوا يكسبون بفروج امائهم، وكان لبعضهن راية منصوبة في اسواق العرب، فياتيها الناس فيفجرون بها، فاذهب الاسلام ذلك واسقطه فيما اسقط، ولهن اولاد، ونسل كثير معروف. [٧٨]. وقال ابن قتيبة في المعارف: ان عبدالله بن جدعان من بنى تيم من قبيلة قريش كانت له اماء يشتغلن

في (المساعة) وكان يبيع اولادهن.

الشغار

وهو احد انواع النكاح التي كانت شائعة عند العرب قبل الاسلام، وصورته ان يقوم ولي المرأة او ابوها بتزويج ابنته او من تقع من النساء تحت ولايته لرجل يقوم هو الاخر بتزويجه ابنته او غيرها ممن تقع تحت ولايته بدون مهر لكلتا الزوجتين، في عملية اشبه ما تكون بعملية التبادل المعروفة في البضائع، وقد نهى الاسلام عن نكاح الشغار، غير ان بعض الفقهاء لم يفهم من هذا النهى تحريم لهذا النوع من الزواج، وانما قال بجوازه، اما المهر فباطل، وبطلان المهر لا- يوجب فساد النكاح. هذا وقد اورد البخارى حديثا في صحيحه، يتضمن نهيا صريحا عن نكاح الشغار. [٧٩].

البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى

ومما اعتادت عليه العرب في الجاهلية ودرجت عليه ثم جاء الاسلام فنهى عنه: البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى، والسبب الذي دعا الاسلام الى شجبها والنهى عنها هو ارتباطها بالشرك وعبادة الاوثان، فقول: «ان اهل الوبر كانوا يقطعون لالهتهم من اموالهم من اللحم، واهل المدر يقطعون لها من الحرث، فكان مما يجعل اصحاب الوبر ان الناقة اذا نتجت خمسة ابطن، عمدوا الى الخامس ما لم يكن ذكرا، فشقوا اذنها، فتلك البحيرة. ولا- يجز لها وبر، ولا- يذكر عليها ان ركب اسم الله، ولا- ان حمل عليها شىء، وكانت البانها للرجال دون النساء». [٨٠]. واما اهل المدر والحرث، فكانوا اذا حرثوا حرثا او غرسوا غرسا، خطوا في وسطه خطا فقسموه اثنين، فقالوا «ما دون هذا الخط لالهتهم، وما ذراه لله» فان سقط فيما جعلوا لالهتهم شىء مما جعلوه لله عز وجل اقروه وتركوه، وان سقط مما جعلوه لالهتهم شىء مما جعلوه لله تبارك اسمه ردوه». [٨١]. والبحيرة ماخوذة من كلمة بحر: (وهي الناقة اذا شقت اذنها)، وجاء في لسان العرب انها الناقة او الشاة التي انجبت عشرة بطون. ومثل هذه الناقة تكون موضع احترام العرب، فلا يركب ظهرها، ولا يجز وبرها، ولا يشرب لبنها الا المنيف، ولا يمنعها احد من الدخول في اى مرتع شاءت، كما حرموا على النساء اكل لحمها، وجعلوا لها علامة تميزها عن غيرها بان شقوا اذنها. وقال بعضهم: انها الناقة التي انجبت خمسة بطون آخرها انثى، هذا وقد وردت تعريفات اخرى للبحيرة في كتب اللغة والتفاسير والخبار، تتفق جميعها على ان البحيرة لا يركب ظهرها، ولا يجز وبرها، ولا ياكل من لحمها الا بعد ان تكون قد حان اجلها، وقال بعضهم بتحريم لحمها ولبنها على النساء. اما السائبة من الابل فهي التي تطلق عادة بعد نيل الشفاء اولتفريج هم كبير او للنجاة من المصيبة الكبرى والفتنة الشديدة، حيث تسيب ولا يركب ظهرها بعد هذا ابداء، وهناك تعريف اخرى ذكرت في هذا المجال. اما الوصيلة فما ورد من اقوال في باب البحيرة، ورد مثله تقريبا في تعريف الوصيلة، ومن هذه الاقوال ما جاء في (لسان العرب مادة وصل): ان الوصيلة: هي الشاة التي ولدت سبعة ابطن عناقين، فان ولدت في السابع عناقا قيل: وصلت اخاها فلا يشرب لبن الام الا الرجال دون النساء، وان كانت انثى تركت في الغنم، وان كانت انثى وذكرها قالوا: وصلت اخاها فلم يذبح، وكان لحمها وقيل لبنها حراما على النساء. وقيل: هي الشاة التي تلد سبعة ابطن، عناقين عناقين، فان ولدت في الثامنة جديا وعناقا قالوا: «وصلت اخاها»، فلا يذبحون اخاها من اجلها، ولا يشرب لبنها النساء، وتجرى مجرى السائبة. اما الحامى فهو الفحل من الابل يضرب الضراب المعدودة قيل: عشرة ابطن، فاذا بلغ ذلك قالوا: «هذا حام»، اى حمى ظهره، فيترك فلا ينتفع منه بشىء، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. وقيل: الحامى من الابل، الذى طال مكثه عندهم. [٨٢]. وقد نهت الاية (١٠٣) من سورة المائدة عن هذه المسميات والمراسم التي وضعت لها لما تضمنته من معانى الشرك والارتباط بعبادة الاصنام، قال تعالى: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لا يعقلون). وقال تعالى: (وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء... «الانعام: ١٣٩»). وقد ادانت الاية (١٣٦) من سورة الانعام صورة اخرى من صور شركة الاوثان لله في

المحاصيل الزراعية (وجعلوا لله مما ذرا من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون).

الازلام

فى نهى الله تعالى فى الاية الثالثة من سورة المائدة عن اتخاذ الازلام كوسيلة يلجا اليها لايقاع القسمة واجرا القرعة وما الى ذلك من امور اعتاد عليها العرب قبل الاسلام حيث قال تعالى: (... وان تستقسموا بالازلام..) «المائدة: ٣» والازلام عبارة عن اسهم من الخشب ذات رؤوس مدبب وسطوحها ملساء، تكتب عليها كلمات بعضها يدعو الى العمل وبعضها الاخر يحذر منه وينهى عنه. قال الازهرى: «الازلام كانت لقريش فى الجاهلية، مكتوب عليها امر ونهى، وافعل ولا تفعل، قد زلمت وسويت ووضعت فى الكعبة يقوم بها سدنة البيت، فاذا اراد رجل سفرا او نكاحا، اتى السادن فقال: اخرج لى زلما، فيخرجه وينظر اليه، فاذا خرج قدح الامر مضى على ما عزم عليه، وان خرج قدح النهى قعد عما اراده، وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما فى قرابة، فاذا اراد الاستقسام اخرج احدهما». ويعتقدون انهم يتوصلون ببركة الزلم والسادن الى راي الاله. ولقد نهى عنها القرآن الكريم باعتبارها مظهرا من مظاهر الشرك.

الميسر

ورد النهى عن الميسر فى الاية (٩٠) من سورة المائدة التى شملت عن الخمر والانصاب والازلام، وقد اعتبرت هذه المنهيات رجسا من عمل الشيطان ما وحملت الاية ٩١ من السورة الشريفة نفسها على الميسر مرة اخرى لانه يورث العداوة والبغضاء بين الناس بواسطة الشيطان: (انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر..). والميسر نوع من القمار، يقول اليعقوبى: ان العرب كانت اذا كان الشتاء ونالها القحط وقلت البان الابل، استعملوا الميسر، وهى الازلام، وتقامروا عليها، وضربوا بالقداح، وكانت قداح الميسر عشرة، سبعة منها لها نصب، وثلاثة لا انصب لها، فالسبعة التى لها انصب هى: الفذ وله جزء، والتوام وله جزآن، والرقيب وله ثلاثة اجزاء، والحلس وله اربعة اجزاء، والنافس وله خمسة اجزاء، والمسيل وله ستة اجزاء، والمعلى وله سبعة اجزاء، والثلاثة التى لا انصب لها اغفال ليس عليها اسم يقال لها: المنيح، والسفيح، والوغد. وكانت الجزور تشتري بما بلغت ولا ينقد الثمن، ثم يدعى الجزار فيقسمها عشرة اجزاء، فاذا قسمت اجزاؤها على السوا، اخذ الجزار اجزاه وهى الراس والارجل، واحضرت القداح العشرة، واجتمع فتيان الحى، فاخذت كل فرقة على قدر حالها ويسارها وقدر احتمالها، فياخذ الاول الفذ وهو الذى فيه نصيب واحد من العشرة اجزاء، فاذا خرج له جزء واحد اخذ من الجزور جزءا، وان لم يكن يخرج له غرم ثمن جزء من الجزور، وياخذ الثانى التوام، وله نصيبان من اجزاء الجزور، وهكذا سائر الاقداح [٨٣] وكانت هذه اللعبة معقدة للغاية، لذا كان يتم التقامر بها تحت اشراف شخص متخصص يدعى (الحرضة) و (الرقيب). وقد وردت اوصاف مختلفة لهذه اللعبة، وسردتها المصادر التاريخية بصور مختلفة [٨٤].

الكهانة

الكهنة: جماعة من العرب كانوا يدعون الاطلاع على المغيبات، ويزعمون معرفة الاسرار وقضايا المستقبل. وقد بنوا دعوتهم هذه على ادعاء آخر مفاده انهم يحصلون على تلك المعلومات بواسطة تسخيرهم لكائنات غيبية كالجن او الشيطان، وتدعى احيانا (التابع) او (الرثى). وهناك جماعة اخرى يعرفون بالعرافين، ويدعى هؤلاء معرفة الاسرار وما ستؤول اليه الامور من خلال اطلاعهم على اسبابها ومقدماتها. وكان الشياطين يزودون الكهنة بالمعلومات التى يسمعونها من افواه الملائكة عند صعودهم الى السماء، وقد منع هؤلاء الشياطين من استراق السمع بعد البعثة. ولهذا انتهى امر الكهنة بين العرب. وكان بعض الناس يقومون بامتحان الكاهن واختبار صدق نبواته من خلال اخفاء شىء ما وسؤاله عنه، فان اخبرهم بنوع ذلك الشىء ومحله، عرضوا عليه قضيتهم الاصلية. وكانت هند بنت عتبة

من بين الكهنة الذين اشتهروا عند العرب، وهى زوجة ابى سفيان وام معاوية، وكانت قد تزوجت من فاكه بن المغيرة الذى اتهمها بالخيانة والزنا عندما وجد رجلا غريبا فى بيته. فاخذ عتبه وابنته هند وجماعة من بنى عبد مناف وذهب بهم الى اليمن ليعرض الامر على احد الكهنة، وكان فاكه قد خرج هو ايضا مع جماعة من قومه (بنى مخزوم) وجلسوا معا عند الكاهن، وقبل ان يعرضوا عليه الامر اختبروه بالسؤال عن شىء كانوا قد اخفوه عنه، فلما اخبرهم عن مكان ذلك الشىء شرحوا له قضيتهم، فبرا هندا من الزنا، وبشرها بان سيكون لها ولد ويصبح سلطانا، وقد سر فاكه لذلك، فاخذ يد هند واصطحبها معه، لكنها امتنعت عن مرافقته، وطلبت الانفصال عنه. وبعد ذلك تزوجت هندا من ابى سفيان بن حرب. كان الكهنة يتقاضون شيئا من المال لقاء ما يخبرون به من مغيبات، ويسمى المال الذى يتقاضونه عن ذلك (الحلوان). وقد شبهه الرسول (ص) بالمال الذى يتقاضاه المرأة الزانية ثمنا للفاحشة، وجعلهما على حد واحد، فقد ورد فى الحديث: «نهى رسول الله (ص) عن ثمن الكلب، ومهر البغى، وحلو ان الكاهن»، [٨٥] كما وادان الكهانة بشدة ونهى عنها. كان الكهنة يهيمسون ببعض العبارات ليوحوا للآخرين بانهم يستقون علمهم من الغيب، وكانت عباراتهم تلك عبارة عن كلام يشبه الشعر، ويسمى السجع، وقد نهى الرسول (ص) عن السجع فى الكلام بل حتى فى الدعاء. [٨٦]. لقد حيرت الايات القرآنية الاولى التى نزلت على الرسول (ص) مستمعها، اذ لم يعرفوا اى نوع من البيان هذا، فلا هو سجع كسجع الكهنة، ولا هو شعر كشعر الشعراء، ولانهم لم يجدوا مثله من قبل جعلوه بين الشعر والسجع، وهذا ما تشير اليه الايات الشريفة (٣٨-٤٢) من سورة الحاقة وتكره بشدة: (فلا- اقسام بما تبصرون وما لا- تبصرون، انه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون). وكان ينظر الى العلوم الطبية وقضايا الفلك والتنجيم وحتى معرفة الاحكام، على انها نوع من الكهانة. [٨٧] وكان اشهر كهنة العرب شق وسطيح، وقد نفت الاية (٢٩) من سورة الطور تهمة الكهانة عن النبى بشدة حيث قالت: (فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون). فتمه فرق بين الايات الربانية النازلة على الرسول (ص) وبين نبؤات الكهنة واخبارهم عن المستقبل وخفايا الامور، فبينما تركز الاولى على هداية الناس ووعظهم ونصيحتهم وارشادهم لما فيه خير الدنيا والاخرة، وتحذرهم من مغبة المعصية والركون الى الظلم والتعدى والجهل، لا نجد الثانية سوى الاخبار عن امور مستقبلية واخرى مخفية قد تخطىء وقد تصيب. وتشير الاية بكلمة مجنون الى اولئك الذين اعتادوا خداع الناس بزعمهم انهم يسخرون الجن لخدمتهم وياخذون معارفهم مما تملية عليهم هذه المخلوقات من كشف الاسرار والاخبار بالمغيبات. وتدحض الاية الشريفة اتهامات العرب للرسول (ص) بانه (شاعر) بعد ان بهرتهم الايات القرآنية التى كان يتلوها عليهم رسول الله (ص)، فلئن العرب كانوا يظنون ان تابعا من الجن او الشيطان هو الذى يلهم، وان كل شاعر شيطان، فقد ظنوا ان الرسول (ص) شاعر يتلقى الهامه ايضا من الجن او التابع. تقول الايتان (٣٠ و ٣٣) من السورة نفسها: (ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون، ام يقولون تقوله بل لا يؤمنون). يبدو ان الناس كانوا يخافون قتل الكهنة والاعتدا على حياتهم، ولا يساورهم الخوف نفسه حين تكون المسألة مرتبطة بشاعر يريدون تصفية حياته وقتله، وهذا ما تشير اليه الاية من طرف خفى، هذا اذا كان المقصود بريب المنون القتل، اما اذا قصد به الموت الطبيعى فلا فرق حينئذ بين الشاعر والكاهن، بل هما على حد سوا.

الحنفاء و الحنيفية

يؤكد كتاب السيرة ان هناك جماعة من قريش كانت قد تركت عبادة الاصنام قبل ان يبعث الرسول (ص) ويباشر دعوة الناس الى الاسلام. وهؤلاء هم ورقة بن نوفل، وعبيدالله بن جحش، وعثمان بن حويرث وزيد بن عمرو بن نفيل، كان هؤلاء يبحثون عن الدين الحنيف، وهم فى صدد العودة الى دين ابراهيم (ع)، وسمى هؤلاء ب (الحنفاء)، فما هو دين ابراهيم او الحنيفية؟ وما الذى جعل هؤلاء يبحثون عنها، ويحاولون العودة اليها؟ مرت الاشارة سابقا الى ان ابراهيم كان قد بنى الكعبة مع ابنه اسماعيل فى واد غير ذى زرع لتكون معبدا يعبد فيه الله وحده، هذا ما سجله القرآن الكريم الذى اوضح ايضا ان دين ابراهيم (ع) كان دينا توحيدا ضد الشرك، وقد اطلق القرآن الكريم على المتدينين بهذا الدين (الحنفاء) او (المسلمين)، قال تعالى: (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان

حنيفا مسلما وما كان من المشركين) «آل عمران: ٦٧»، وقال تعالى: (ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا) «النساء: ١٢٥». اطلقت هذه الاية على دين ابراهيم (الدين الحنيف) وسمت اتباعه المسلمين. وفي الاية (١٣٥) من سورة البقرة وردت تبرئة ابراهيم (ع) من الشرك وتسمية دينه بالدين الحنيف، ونفت ان يكون يهوديا او نصرانيا: (وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين). لم تنف الاية الشريفة الهداية عن اليهود او النصراني غير انها فضلت ورجحت دين ابراهيم الحنيف عليهما معا في اشارة الى انه خالص من كل معاني الشرك التي ربما علق بعضها بهاتين الديانتين، بسبب اعتقاد اليهود ان عزيرا ابن الله او بسبب اعتقاد النصراني ان عيسى ابن الله. ثم جاءت الاية (٣٠) من سورة الروم لتامر الناس باتباع سنة ابراهيم (ع): (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون). وجاءت هذه الاية في سياق عدة آيات تحدثت عن الشرك وعبادة الاصنام وحملت عليهما بشدة، فقررت الاية الشريفة ان التوحيد مغروس في اعماق الفطرة الانسانية، وان من شان الانسان ان يتجه الى التوحيد بدافع من فطرته الا اذا انحرفت هذه الفطرة عن جادة الصواب وبدلت خلق الله تعالى وفطرته التي فطر الناس عليها. واخيرا تؤكد الاية على محور مهم هو ان الانسان اذا ترك وفطرته وخلقى بينه وبينها فسيتهى الى التوحيد ولا يمكن ان يلجا الى الشرك، وهذا لا يتنافى مع النتائج التي توصل اليها الباحثون والدارسون في تاريخ المجتمعات البدائية من انها كانت مجتمعات مشركة نظرا لجهل هذه الشعوب بالطبيعة ومظاهرها المختلفة، والذي نتج عنه انحراف الفطرة البشرية وتشوهها. ان الانسان مخلوق عاقل مفكر بالفطرة وفي اصل الخلقة، ولهذا اطلق عليه في المنطق بانه (حيوان ناطق)، فان النطق والتحدث دليل العقل والتفكير، ولو اعتمد الانسان منذ اللحظات الاولى على قدرته العقلية وطاقاته الفكرية ورفض التقليد ومتابعة الاخرين دون تفكير، لاستطاع الوصول الى الحقيقة واستهجن عبادة الاصنام وترفع عن مظاهر الشرك، ولكن الجهل امر عدمى متقدم على العلم الذى هو امر وجودى. فكان الانسان البدائي يفضل الجهل على العلم لما فى العلم من مشاق ومصاعب لا يتطلبها الجهل لانه امر عدمى، ولهذا فضل الانسان الجهل مع الراحة على العلم مع المشقة وبذل الجهد، ولهذا كان الانسان البدائي مشركا، رغم ان فطرته السليمة تقوده الى التوحيد ونفى الشرك، لكنها تعطلت فماتت منابع النور فيها نتيجة الجهل الذى هو اسبق من العلم واسهل منه. وهذا هو سر تقدم الشرك زمانيا على التوحيد بين الاقوام البدائية. وهكذا يتضح ان القرآن الكريم يستعمل كلمة (حنيف) ويريد بها المسلم والموحد في مقابل الشرك، ويريد بدين ابراهيم الحنيف الدين التوحيدي المرادف للاسلام، ولا ينبغي ان نفهم من هذا الترادف بين الاسلام ودين ابراهيم (ع) ان كل ما جاء به نبي الاسلام من احكام كان قد جاء به دين ابراهيم الحنيف، بل يتفق الدينان على محور واحد وقاعدة مشتركة هي فكرة التوحيد وعبادة الله وحده ونفى كل ما سواه من معاني الشرك وما يتبعها وما يلازمها من اعراض ومتعلقات، ويتأكد ذلك من خلال التأمل العميق في معاني الاية الكريمة: (ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) «النحل: ١٢٠». ولا مبرر لحصول اى نوع من الابهام او اللبس في اذهان المخاطبين من قبل الرسول (ص) من استعمال كلمة (حنيف) بعد ان كان القرآن الكريم قد نزل بالعربية لهداية قوم عرب، وقد اتضح من خلال استعراض الموارد القرآنية التي استعمل فيها هذه الكلمة ان المقصود بها في جميع هذه الاستعمالات معنى واحدا هو التوحيد وعبادة الله وحده ورفض الشرك. ولهذا لا نجد حاجة لمتابعة اشتقاق هذه الكلمة واستعمالاتها في باقى اللغات ذات العلاقة باللغة العربية كالسريانية والحشية، علما ان مثل هذا التتبع قد يكون شيئا مهما ولازما لمن اراد الاحاطة بعلم اللغات، ولا نجد ضرورة لهذا الجهد فيما اذا كان هدفنا معرفة معاني هذه الكلمة في عصر الرسول (ص) فحسب، اذ يكفينا تتبع معانيها واستعمالاتها الواردة في القرآن الكريم. والمراد بالحنيف هو الذى رفض عبادة الاصنام وكل ما يتصل بها من معاني الشرك، وكانت قريش واهل مكة جميعا ما زالوا يتذكرون ان جدهم ابراهيم (ع) هو صاحب الدين الحنيف الذى حارب الاصنام ورفض عبادتها، ولهذا اعتزل اولئك الاربعة قومهم، ووقفوا جانبا ينظرون الى قريش وهى تطوف حول تلك الاحجار وتقدم لها الاضاحى والقرايين فى يوم من ايام اعيادها، فاخذوا يحدثون انفسهم قائلين: «لقد ضيع هؤلاء الناس دين ابيهم ابراهيم (ع)، فما هذه الصخرة التى يطوفون حولها؟ انها لا تسمع ولا ترى ولا تنفع ولا تضر، فليبحثوا عن دين لهم،

فهذه لا- تملك من امرها شيئاً». عندها بداوا البحث عن (الحنيفية) اي دين ابراهيم (ع) فاعتق كل من ورقة بن نوفل وعبيدالله بن جحش وعثمان بن حويرث الدين المسيحي، واعتزلهم زيد بن عمرو، غير انه لم يعتنق ديننا جديداً، كما انه ظل ممتنعاً عن عبادة الاصنام وعن اكل لحم الميتة ولحم القرابين، ومن هنا قال عنه الرسول (ص): «انه يبعث امه وحده». لقد نسخت رسالة ابراهيم (ع) (جدالعرب وباني الكعبة) بصورة تدريجية في مكة، واندرست معالمها، ولم يبق في ذاكرة الناس سوى شىء واحد، كانوا يتذكرونه جيداً، ذلك ان ابراهيم (ع) كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين. ولم تخل مكة من بعض العقلاء واهل المنطق الذين كانوا يتاملون عادات قومهم وعبادتهم المنحرفة، فيستيقظ وجدانهم ويتذكرون ابراهيم (ع) والهة الواحد وحنفيته، فيتركون عبادة الاصنام، وكان يطلق على هؤلاء (الحنفاء) وقد عاصر بعضهم الرسول (ص).

قضاء العرب

كان يقال للقاضي في الجاهلية (حاكم)، يقول اليعقوبي: «كان للعرب حكام ترجع اليها في امورها وتتحاكم في منازعاتها ومواريتها ومياهاها ودمايتها». [٨٨] كانت اكثر المشاجرات في الجاهلية تدور حول الحسب والنسب او الشرف والامجاد التي تصنعها الاسر او آباء الطرفين المتنازعين، وكما اشرنا فيما سبق فان قوام القبيلة الحسب او مجموع ما حققه الالباء من مكرمات ومفاخر، وما قام به افراد هذه القبيلة واجدادها من اعمال كبرى، وكانوا يتنازعون حول هذه الامور في الاماكن العامة والنوادى والاسواق العامة وعلى مرأى ومسمع من الناس. وقد يحسم التنافر اخيراً عند الحاكم برجوع المتخاصمين اليه، ويبدو ان اكثر هذه المنازعات كانت تحل عند الكهنة المعروفين الذي كانوا عادة من قبائل واماكن اخرى. وكانوا يختبرون الكاهن كما اشرنا سابقاً قبل عرض قضيتهم عليه، فان نجح في الاختبار واجابهم بصورة صحيحة عن درالخبىء اي الشىء المخبا بادررو الى عرض الموضوع عليه بعد تحديد غرامة معينة يدفعها الطرف المدان في التحكيم الى الطرف الغالب الذي يسمى عادة (المنفر). وغالباً ما تكون هذه الغرامة عدداً من الابل ياخذها الغالب ويذبحها ثم يدعو الى وليمة عليها. ان بعض المنازعات كانت تتفجر لاسباب مالية او لاحقاق بعض الحقوق كمنافرة عبد المطلب وحرب بن امية حول المطالبة بدم احد اليهود. وكان هذا اليهودى من اهل نجران يقال له اذينة في جوار عبد المطلب بن هشام، وكان يتسوق في اسواق تهامة بماله، وان حرب بن امية غاظه ذلك، فالب عليه فتينا من قريش وقال لهم: «هذا العالج الذي يقطع الارض اليكم ويخوض بلادكم بماله من غير جوار ولا امان! والله لو قتلتموه ما خفتم احدا يطلب بدمه»، قال: «فشد هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي عليه وصخر بن عامر فقتلاه، وكان معهما ابن مطرود الخزاعي»، قال: «فجعل عبد المطلب لا يعرف له قاتلا حتى كان بعد، فعلم من اين اتى، فاتى حرب بن امية فانبه لصنيعه وطلب بدم جاره، فابى حرب ذلك عليه، وانتهى بهما التماحك واللاجاج الى المنافرة، فجعلوا بينهما النجاشى ملك الحبشة فابى ان ينفذ بينهما، فجعلوا بينهما نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب فاتياه». وقد حكم عبد العزى لصالح عبد المطلب، واستدل على حكمه بدليل يمكن ان يكون مؤشراً مهماً على طبيعة العرب ايام الجاهلية حيث قال: «يا ابا عمرو، اتنافر رجلاً هو اطول منك قامه، واوسم منك وسامه، واعظم منك هامه، واقل منك لامه، واكثر منك ولداً، واجزل منك صفداً، واطول منك مذوداً؟! واني لاقول هذا وان فيك لخصالاً انك لبعيد الغضب، رفيع الصيت في العرب، جلد المريرة، تحبك العشيرة»، واغظ لنفيل، وقال: من انتكاس الدهر ان جعلناك حكماً. وقد قدمت هذه المنافرة الى شخص عادى وليس كاهن. اما المنافرة الاخرى التي وقعت لعبد المطلب مع طائفة ثقيف حول مسألة مالية، فقد تم الرجوع فيها الى كاهن في الشام يدعى عزى سلمة العذرى، وقد وردت تفاصيل هذه المنافرة في المنمق ص ٩٤ - ٩٧. وقد قالت ثقيف قبل ان يصدر حكم الكاهن لصالح عبد المطلب على لسان جندب بن الحارث: «اقض لارفعنا مكاناً، واعظمتنا جفاناً، واشدنا طعناً»، بينما قال عبد المطلب: «اقض لصاحب الخيرات الكبير، ومن كان ابوسيد مضر، وساقى الحجيج اذا كثر». [٨٩]. وقد اشرنا سابقاً الى ان هناك اشخاصاً آخرين من كل قبيلة يقومون مقام القضاء او الكهنة عند الضرورة، وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه وصاحب المحبر اسماء

هؤلاء. فمثلا ذكر عبد المطلب وولده الزبير وابو طالب من جملة الحكام، وكذلك حرب وابنه ابو سفيان. وذكر من بنى تميم شخص باسم ربيعة باعتباره حكما وقاضيا يجلس تحت قبة خشبية وعلى عرش من خشب (اثناء الحكم كما يبدو). ومن الاحكام التى صدرت فى الجاهلية ثم جاء الاسلام وايدها حكم (القسامة) فى مورد الظن بالقتل، حيث يحلف خمسون رجلا من افراد القبيلة المظنون بها، التى يظن ان احد افرادها قد ارتكب القتل ولا دليل عليه، ويقسم هؤلاء الخمسون انهم من هذا الدم براء، وحينها يحكم ببراتهم، وعليهم دفع دية المقتول فلقد اقر الاسلام (القسامة) بعد ان ادخل عليها تعديلات وتغييرات معينة.

الجاهلية

سميت هذه المرحلة، التى وصفناها بشكل مختصر، بعد الاسلام بمرحلة الجاهلية، ويقصد بها كما جاء فى القرآن الكريم الفترة التى سبقت الاسلام، وطبقا لما اوضحه كولدزيهر [٩٠] فان الجاهلية لا- تعنى الجهل وعدم المعرفة، وانما تعنى حسب الادلة والشواهد الكثيرة التى ذكرها كولدزيهر (الجاهلية) مقابل (الحلم) وفى القرآن الكريم تعنى مجموعة القيم والاخلاق والثقافة والمقاييس المقابلة للاسلام والتى تقف بوجهه، قال تعالى: (افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون) «المائدة: ٥٠»، وقال عز وجل: (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) «آل عمران: ١٥٤» وفى خطاب نساء النبى قال تعالى: (وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى) «الاحزاب: ٣٣». واستظهر بعض المفسرين من تعبير (الجاهلية الاولى) وجود مرحلتين من الجاهلية، الجاهلية الاولى، والجاهلية الثانية او الاخيرة. اما ظاهر الاية فيوحى بان المقصود بهذا التعبير هو الاشارة الى الجاهلية قبل الاسلام. وقد سلط القرآن الكريم مزيدا من الضوء على معنى الجاهلية بقوله: (اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) «الفتح: ٢٦» فقد وصف الله تعالى مرحلة الجاهلية بالعصبية والحمية الشخصية، بينما اتصف الرسول والمؤمنون معه بالسكينة والوقار، حيث قال فى الاية عينها: (فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين). و اشار الى المعنى ذاته تقريبا الدكتور جواد على [٩١]. حيث ذكر ان كلمة الجهل لا- يراد بها المعنى المتداول اليوم، وانما يراد بها المعنى المقابل للسكينة والصبر، وعلى حد قول كولدزيهر المقابل (للحلم) حيث يقول تعالى: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذ خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) «الفرقان: ٦٣». ومن البديهي ان المقصود بالجاهلين هنا ليس فاقدى المعرفة او غير المتعلمين، وانما يراد بهم المتكبرين واهل العصبية البغيضة. واخيرا فان المقصود بالجاهلية كما يظهر من استعمالات القرآن الكريم لها هى المرحلة التى سبقت الاسلام بكل مافيها من العصبية والتفاخر والتخاصم وعصيان الله تعالى والتعالى على اوامره ونواهيه. وبكلمة اخرى فان الجاهلية تعبير عن الصفات التى اشتهر بها العرب قبل الاسلام، وكما يقول كولدزيهر: فانهما كالتقابل بين التوحش (البربرية) والتحضر والتعلم.

سيرة الرسول من الولادة حتى البعثة

الطبيعة المجتمع الجاهلى الذى ولد فيه الرسول

من خلال الاستعراض الاجمالي للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والروحية التى كان عليها مجتمع شبه الجزيرة العربية بصورة عامة والمجتمع المكي بوجه خاص فى القرن السادس الميلادى، اتضح ان ذلك المجتمع كان مهينا لاستقبال دين الهى جديد، ففى محيط مكة كانت هناك مجموعة من التجار الاغنياء، وجميعهم من اشراف قريش وسادتها، يرزح تحتهم جمع غفير من الفقرا والمحرومين الذين يشكلون الغالبية الساحقة فى المجتمع. وقد نمت تلك الاقلية المتحولة واثرت على الاغلبية الفقيرة التى كان يلجئها الفقر الى طلب المال بالربا حتى لو كانت الارباح اضعافا مضاعفة كما عبر القرآن الكريم. اما العبيد والغلمان فكان اكثرهم من الحبشيين السود الذين يحتلون ادنى المراتب فى النظام الطبقي الجاهلى، فى وقت كانوا يقضون اوقاتهم فى الاعمال الشاقة التى يصعب على غيرهم

تحملها. والى جانب هذا، كان المجتمع يفتقد الى القانون او النظام الذى يحفظ للفقير حقه وياخذ من القوى ما اغتصبه من حقوق الضعفاء. امام هذا الواقع، كان الضعفاء يضطرون الى الاحتماء باحد الاشراف لحفظ مالهم وارواحهم، فيطلبون منه الحماية او الجوار او الامان وما الى ذلك، وكان الاقوياء من جانبهم لا يجدون طريقا لتحقيق مآربهم سوى طريق القوة والقهر، واذاما تعادلت الكفة مع خصومهم التجاوا الى الحاكم او الكاهن ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وليس من الضرورى ان ياتى حكم الحاكم طبقا لموازين العدل والانصاف بالشكل الذى جاء بها الاسلام فيما بعد بل غالبا ما يتحرى الكاهن فى حكمه القوى والاكثر بسطة فى المال والجسم والحسب والنسب فيحكم لصالحه، وقد اتضح ذلك من خلال الامثلة التى ذكرت فيما سبق. وفى الوقت الذى كان يحافظ فيه الشرفاء وسادة القوم على الاعراف والعادات التى وجدوا آباءهم عليها، نجد الطبقات الاخرى التى ترزح تحت يد الجور والفقير وتذوق مرارة هذه الاعراف وتكتوى بنارها، لا تتحمس لها ولا تظهر قدرا كافيا من الايمان بها، لهذا ظهرت مجموعة من القوم انفت عبادة الاصنام واتجهت الى دين ابراهيم الحنيف او اعتنقت الدين المسيحى. كان التجار واصحاب القوافل لا يامنون على بضائعهم وارواحهم وهم يسلكون طرقهم التجارية عبر الصحراء، ولهذا كانوا يتوسلون بالقوة او المال لدفع هجمات قطاع الطرق والغزاة عليهم، وقد اشتهر الغزو والاغارة حتى لم يعد شيئا مذموما فى ذلك العصر، بل كان امرا يدعو للفخر والاعتزاز سيما اذا ما اقترن بالجسارة والشجاعة. ومن الطبيعى ان يفرز مثل هذا المحيط جماعة من العقلاء واصحاب الفكر والفترة السليمة، يكون همهم الاصلاح والهداية، وفى الوقت الذى نجد هؤلاء يعترفون قومهم وديانتهم، نجدهم من جانب آخر يبحثون عن طريق للخلاص، وعن وسيلة يستطيعون من خلالها انقاذ قومهم وهدايتهم. وكانت مكة مهية اكثر من غيرها لظهور مثل هؤلاء وذلك لاشتداد الحاجة فيها الى الامن والاستقرار والنظام، فان تجمع الثروة ونمو التجارة كان بامس الحاجة الى الامن والقانون، كما ان انهماك التجار فى تجارتهم كان يعكره قلقهم المتزايد من النهب والسلب والسطو الذى لا سبيل لتجنبه سوى اقرار قانون عام يهابه الجميع وينضون تحت لوائه. فى مثل هذا المجتمع ولد رسول الله (ص)، الذى لم يرق له بما كان يتمتع به من مواهب واستعدادات فطرية وطبيعية وبفضل الهداية الالهية وتوجيهات العقل اوضاع هذا المجتمع الذى عبر عنه بالجاهلية، ووجد ان اصلاح نواقصه جميعا وهداية قومه بل البشرية ككل يكمن فى توحيد الله و (اسلام الوجه) اليه، لهذا اعتزل مجتمعه الجاهلى وما يعبدون، والتجالى غار فى احد الجبال يفكر ويتامل حتى اخذت العناية الالهية بيده وتم اصطفاؤه من بين الناس جميعا ليتحمل مسؤولية اصلاح المجتمع الانسانى واجرا احكام الله فيه، وفى يوم وساعة معينين لا نعلمهما بالضبط بعث لانقاذ الناس من الضلال، وقد امر ان يبدأ بعشيرته الاقربين الى ان بدا النور الالهى يسطع ويتعالى فعم مكة والمدينة وشبه الجزيرة العربية ومن ثم العالم اجمع، فتنورت جميع الانحاء بالنور الالهى.

مولد الرسول

ولد الرسول فى مكة من اب قرشى هو عبدالله بن عبدالمطلب، وام قرشية ايضا من بنى زهرة هى آمنه بنت وهب بن عبد مناف، وقد كانت ولادته المباركة يوم الاثنين من شهر ربيع الاول. وقيل: من شهر رمضان، وهو قول ضعيف. وقد وقع اختلاف فى اليوم الذى ولد فيه، فقيل: اليوم الثانى من شهر ربيع الاول، وقيل: فى الثامن منه، وقيل: فى العاشر منه، وقال آخرون: انه فى اليوم الثانى عشر، بينما ذهب اكثر الشيعه الى انه فى السابع عشر من ربيع الاول [٩٢]. وقد وقع الاختلاف نفسه ايضا فى السنة التى ولد فيها (ص) حتى اصبح من غير الممكن تحديد السنة التى ولد فيها على وجه الدقة والجزم. هناك حادثتان تم ضبطهما فى حياة الرسول (ص) وفى التاريخ الاسلامى بصورة دقيقة، لما كان لهما من اهمية خاصة، الحادثة الاولى: هجرة الرسول (ص) من مكة الى المدينة، التى اصبحت فيما بعد بداية التاريخ الاسلامى، وهى فى الاول من المحرم السنة الاولى للهجرة، المطابق ل (١٦ كانون الثانى عام ٦٢٢ م)، ويقال ان هجرة الرسول (ص) كانت يوم الاثنين فى الثامن من ربيع الاول الموافق (٢٠ ايلول عام ٦٢٢ م). والحادثة الثانية: السنة التى توفى فيها الرسول (ص) وهى السنة الحادية عشرة للهجرة الشريفة، فى شهر صفر او ربيع الاول، ويتطابق هذا التاريخ مع العام ٦٣٢ م، وقد جر الاختلاف

في تاريخ ولادته (ص) الى اختلاف في عمره الشريف بين ٦٥، ٦٣، ٦٠ سنة. [٩٣]. واذا كان الراي الاشهر هو ٦٣ عاما، فسيكون عمره وقت الهجرة ٥٢ سنة تقريبا، وكل الاحاديث الاخرى في حياته (ص) فيما عدا هجرته ووفاته (ص) كالبعثة والمولد تبقى مبنية على افتراضات غير دقيقة. وقد ذهب المشهور الى انه بعث وهو في الاربعين من عمره، وقيل: ان بعثته كانت في الثالثة والاربعين من عمره، بناء على رواية عن ابن عباس. ويمكن الافتراض بان بدء دعوته (ص) كان في حدود الاربعين من عمره الشريف (ليس على وجه الدقة والقطع) فهناك روايات تقول: انه مكث عشر سنوات في مكة بعد البعثة، واخرى تقول: انه اقام بها ثلاثة عشر عاما، ويبدو ان اكثر الرواة قد ذهبوا الى انه بعث في الاربعين من عمره، انسجاما مع الاعتقاد الشائع بان سن الاربعين هو سن الكمال. اما من حيث الواقع فان من الناس من يبلغ الكمال العقلي والروحي قبل هذه السن بفترة طويلة، وبالعكس هناك من يتاخر كماله بعد هذه السن او انه لا يبلغ الكمال ابدًا، اما العناية الالهية فلا تتاخر لتتظر بلوغ الاربعين عاما، اذا ما توفرت في الشخص مقومات البعثة قبل هذا التاريخ. وان هذا النوع من الملاحظات والترتيبات الزائدة انما هي من خيال الانسان ووهمه. وعلى اية حال، فان الاعتقاد الراسخ بان سن الكمال هو سن الاربعين، وبالنتيجة فانه سن البعثة، وبعد المقارنات اللاحقة واطافة سنوات الاقامة الثلاث عشرة التي امضاها الرسول (ص) في مكة بعد البعثة، ثم السنوات العشر التي امضاها في المدينة، وبعد البناء على ان عمره (ص) كان ثلاثة وستين عاما، استنتجوا ان عام ولادته كان في عام (٥٧٠ م) كاقرب الاحتمالات. وبهذا لم يعرف على وجه الدقة لا عام ولادته (ص) ولا عام بعثته، ومن هنا يتضح السبب الذي دفع المسلمين لاختيار عام الهجرة الذي كان مسلما ومعروفا بصورة دقيقة عند الجميع كمبدا للتاريخ حين طرحت مسالة تحديد تاريخ معين للمسلمين، وقدمت حوله الاقتراحات المختلفة في حينها لهذا التاريخ. ما تجدر الاشارة اليه هو قولهم: ان ولادة الرسول (ص) كانت في عام الفيل، اذ من الطبيعي ان تتخذ الاحداث المهمة التي تبقى الى امد في اذهان الناس ومحاوراتهم كمبدا للتاريخ، و عام الفيل، وهو العام الذي حدثت فيه حملة ابرهه، كان حدثا مهما يليق بان يكون مبدا لتاريخ ولادته (ص) غير ان الموجود هو ان عام الفيل لا يطابق تماما عام (٥٧٠ م)، ففي هذا العام تقريبا سقطت حكومة (الحبشيين) في اليمن بايدي الفرس (وهرزديلمي) مع العلم ان الاحباش بقوا يحكمون في شبه الجزيرة العربية بعد عام الفيل لمدة، فحكم اليمن اثنان من اولاد ابرهه بعد وفاته، ومن هذه الناحية لم تتفق جميع الروايات على ان عام ولادته (ص) كان هو عام الفيل. قال الكلبي مثلا: ان عام الفيل كان قبل ولادة الرسول (ص) ب (٢٣) سنة، ونقل عن مقاتل انه كان قبل ولادة النبي (٤٠) عاما [٩٤]. وبالنتيجة فان التلفيق بين الروايات واحتساب العام الذي ولد فيه يؤديان الى ان يكون عام (٥٧٠ م) هو عام ولادة الرسول (ص) وقد يكون ذلك هو الواقع فعلا. اما كون الرسول ولد في عام الفيل، وان عام الفيل هو (٥٧٠ م) فهذا ما لا يمكن الركون اليه، بل قد يكون امرا بعيدا على ضوء الاختلافات التي نقلت في تاريخ عام الفيل. فقد اعتبر المسعودي عام الفيل موافقا لسنة ٨٨٢ بتاريخ ذي القرنين. [٩٥] وبما انهم قالوا: ان ولادة الرسول كانت في ربيع الاول وبعد خمسين يوما من واقعة الفيل، وبما ان هذه الواقعة (اي حملة ابرهه) كانت قد حدثت في يوم الاثنين ١٧ محرم عام ٨٨٢ اسكندري (او ذو القرنين سلوكي). [٩٦] فعلى ضوء هذه الارقام والحسابات، توصلوا الى نتيجة مفادها ان ولادة الرسول (ص) كانت في العام (٥٧٠ م). بينما توصل السهيلي [٩٧] الى ان ولادته المباركة كانت في ٢٠ نيسان (ابريل) المطابق لشهر ربيع الاول، علما ان هذا التاريخ كان قبل الغاء النسيء، وقد اشرنا سابقا الى ان العرب كانوا يطبقون الاشهر القمرية على السنة الشمسية من اجل تثبيت موسم السوق التجارية، ولهذا اتفق شهر ربيع الاول مع شهر نيسان.

مصادر سيرة الرسول قبل البعثة

لا- توجد بين ايدينا معلومات وفيرة عن حياة الرسول (ص) بين ولادته وبعثته التي تمتد الى فترة طويلة تقدر طبقا للمشهور باربعين عاما، وقد سجل لنا اهل السير بعض الحوادث عن ولادته (ص) ورضاعه، وسفره الى الشام مع عمه، ومشاركته في حرب الفجار وحلف الفضول، وكذلك عن زواجه من خديجة، ومشاركته في ترميم الكعبة وحله لازمة رفع الحجر الاسود. وقد جرى قسم من هذه

الاحداث جريا طبيعيا لا ينطوي على امور خارقه للعاده او معاجز، بينما تضمن القسم الاخر احداثا فيها كرامات وامور خارقه للقوانين السائدة ومعاجز، ولا نجد نحن المسلمين مانعا من قبول كل هذه المعاجز والخوارق، وليس هناك من مبرر لردّها وانكارها بعد ان آمنّا ان الرسول (ص) مبعوث الهى يحظى برعاية الله القادر على كل شىء وعنايته. اما اذا لوحظت هذه الحوادث بالمنظار التاريخى المحض وفى ضوء ما جرت عليه السنن الالهية فى ربط الامور باسبابها الطبيعىة، فاننا يمكن ان نجد تفسيراً آخر لهذه الروايات التى تتحدث عن امور خارقه للعاده، ويمكن اعتبارها نوعا من التمثيل والرمز، واذا ما حاولنا فى هذا الكتاب توجيه هذه الروايات المبنية على المعاجز وجهة تمثيلية رمزية بما يتسع له المجال فاننا نقوم بذلك من اجل ان لا يفقد هذا المجهود بعده التاريخى العام، ويتحول الى كتاب دينى محض. فالكتاب الدينى يكتب عادة لاهل الديانة خاصة، اما الكتاب التاريخى الذى يجب ان يكتب بطريقة اخرى تحفظ له شموليته وعموميته، فلا يختص باهل ديانة معينة، وبذلك سوف لا يقف التعصب حائلا دون قرآته، لهذا لا ينبغي الربط بين اعتماد المؤلف وتاكيدته على توجيهه هذه الحوادث وجهة طبيعىة، وبين معتقداته الدينية التى لا تختلف عن معتقدات عامة المسلمين.

وفاء عبدالله و مرحلة الرضاعة

كان عبدالله والد الرسول (ص) قد ذهب فى احدى القوافل التجارية الى الشام، وترك خلفه زوجته آمنه، وهى حامل برسول الله، فى مكة، وفى طريق عودته مرض فبقى عند اهل ام ابيه عبد المطلب، وظل هناك حتى فارق الحياة. بناء على القول المشهور فان الرسول (ص) كان ما يزال فى بطن امه عند وفاة ابيه عبدالله، بينما قال آخرون: انه كان له من العمر (٢٨) شهرا حين وفاة والده، وهناك قول ثالث: بانه كان ابن سبعة اشهر. [٩٨] وكانت العادة قد جرت على ان يقوم اشرف مكة بايداع اطفالهم عند مرضعات فى البادية لينشأوا ويتربوا فى تلك البيئة النقية، والدليل على ذلك ما جاء فى طبقات ابن سعد: «انه قدم مكة بايداع اطفالهم عند مرضعات فى البادية لينشأوا والرضاع، فاصبن الرضاع كلهن الا حليلة بنت عبدالله بن الحارث، فعرض عليها رسول الله (ص) فجعلت تقول: يتيم ولا مال له، وما عس امه ان تفعل؟ فخرج النسوة وخلصنها، فقالت حليلة لزوجها: ما ترى؟ قد خرج صواحبى، وليس بمكة غلام يسترضع الا هذا الغلام اليتيم، فلو انا اخذناه، فانى اكره ان نرجع الى بلادنا ولم نأخذ شيئا، فقال لها زوجها: خذيه عسى الله ان يجعل لنا فيه خيرا، فجاءت الى امه واخذته منها، ووضعته فى حجرها، فدر ثديها وتدفقا لبنا، فشرّب رسول الله (ص) حتى روى وشرب اخوه، وكان اخوه لا ينام من الغرث، فقالت امه: يا ظئر، سلى عن ابنك، فانه سيكون له شان، واخبرتها ما رات وما قيل لها فيه حين ولدته، وقالت: قيل لى ثلاث ليال: استرضعى ابنك فى بنى سعد بن بكر، ثم فى آل ابي ذؤيب، قالت حليلة: فان ابا هذا الغلام الذى فى حجرى ابو ذؤيب، وهو زوجى، فطابت نفس حليلة وسرت بكل ما سمعت، ثم خرجت به الى منزلها، فحججوا اثاثهم، فركبت حليلة وحملت رسول الله (ص) بين يديها، وركب الحارث شارفهم، فطلعا على صواحبها بوادى السرر، وهن مرتعات، وهما يتواهقان، فقلن: يا حليلة ما صنعت؟ فقالت: اخذت والله خير مولود رايته قط، واعظمهم بركة. قالت النسوة: اهو ابن عبدالمطلب؟ قالت: نعم! قالت: فما رحلنا من منزلنا ذلك حتى رايت الحسد من بعض نساتنا».

غسل القلب و تطهيره

طبقا للروايات الواردة فى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبرى: «انه لما بلغ (ص) اربع سنين كان يغدو مع اخيه واخته فى البهم قريبا من الحى، فاتاه الملكان هناك فشقا بطنه واستخرجا علقه سودا فطرحاها، وغسلا بطنه بماء الثلج بطست من ذهب، ثم وزن بالف من امته فوزنهم، فقالا احدهما للآخر: دعه، فلو وزن بامته كلها لوزنهم». [٩٩]. وقد ذكرت هذه الرواية فى تفسير سورة (الشرح) وجاء فى سورة اخرى على لسان موسى وهو يدعو ربه (رب اشرح لى صدرى) «طه: ٢٥»، وتشير الاية الكريمة من ورا المعنى اللفظى الى معان مجازية عميقة، منها سعة الصدر، وانسراح القلب لتحمل هموم الكبار، وبعد النظر، والاستقامة على الطريقة، وتطهير القلب

من هوى النفس ونزغ الشيطان ليصبح مهيا لاستقبال الاوامر والنواهي الالهية. اما ما ذكرته تلك الروايات من اخراج القلب وتطهيره، فيبدو انها كانت تشير الى معان رمزية حول طهارة قلب الرسول (ص) وما ينبغى ان يكون عليه النبي (ص) من طهر وسلامة وسعة صدر وخلوص نية، ولا ينبغى ان نحمل هذه الروايات على معانيها اللفظية وحسب، والا فان هذا القلب الذى فى الصدر لا يمثل الا عضلة لضخ الدم لتستمر الحياة، اما شؤون النفس وقواها الروحية فيبدو ان مكانها الظاهري الدماغ، او الاصح والادق ليس لها مكان مادي خاص.

وفاة آمنة و عبد المطلب

كان الرسول (ص) فى السادسة من عمره حين فارقت امه آمنة الحياة، ويقال: انها كانت قد تركته (ص) فى يثرب عند اهل ام عبد المطلب وقد توفيت فى طريق عودتها الى مكة فى (الابوا) بين مكة والمدينة، وتقول الرواية: ان مرضعة الرسول (ام ايمن) كانت ترافقه، وهى التى عادت به الى مكة بعد وفاة امه. [١٠٠]. وتولى عبد المطلب امر الرسول (ص) بعد وفاة امه، وبقي الرسول فى رعايته الى حين وفاته فى الثمانين من عمره، وقيل: فى المائة والعشرين من عمره، وكان عمر الرسول (ص) حينئذ ثمانية اعوام، ويقال: ان عبد المطلب كان قد اوصى اباطالب ان يتولى امر رسول الله (ص) من بعده لكونهما (ابوطالب وعبدالله والد الرسول) ابني عبد المطلب من ام واحدة.

عناية ابي طالب برسول الله

لقد احسن ابو طالب رعايته ابن اخيه رغم فقره وحاجته، وتنقل الروايات قصصا غريبة عن مدى الحاجة والعوز اللذين كان عليهما ابو طالب، بينما هناك روايات تصف ابا طالب بانه كان من اهل التجارة والثروة، وكان كثير السفر الى الشام لاغراض تجارية، وفى روايات اخرى انه كان تاجر عطور ويتاجراحيانا بالقمح. [١٠١]. وتنقل الروايات ان ابا طالب كان قد اصطحب الرسول (ص) فى احدى اسفاره التجارية الى الشام، وكان عمره آنذاك اثني عشر عاما، وبهذا فاننا لا نملك الا ان نتامل قليلا فى تلك الروايات التى تتحدث عن فقر ابي طالب وعوزه بعد ان كان من تاجر قريش واشرافها.

قصة بحيرا

شاهد احد الرهبان المدعو (بحيرا) رسول الله (ص) فى سفره الى الشام مع عمه ابي طالب فى بصرى من اعمال الشام ولمح فيه علامات النبوة، فاسر الامر الى عمه ابي طالب وحذره من كيد اليهود وحثه على رعايته وحمايته من شرهم. ولو لمحنا شيئا من المبالغة فى رواية (علامات النبوة) وفى اخبار (بحيرا) عن الغيب، ولكن لا يمكننا انكار حقيقة ان الرسول (ص)، وبغض النظر عن منزلته الالهية العليا، كان ذا شخصية يمتاز بها عن اقرانه واترايه، وبناء على هذا فلن يكون تشخيص مثل تلك العلامات الكبرى، التى تنبى بمستقبل لامع، امرا صعبا او استثنائيا من قبل عالم روحانى كبحيرا. وكثيرا ما نصادف فى حياتنا تنبؤات عن بعض الاطفال الاذكياء المميزين، ثم يتبين فيما بعد صدق تلك التنبؤات وعدم ابتعادها عما يتحقق فى الواقع بصورة عامة. فقد تكون الرواية صحيحة من حيث الاصل، وان (بحيرا) تنبأ فعلا لهذا الصبي النابغة بمستقبل عظيم، فاوصى عمه بضرورة المحافظة عليه والاهتمام بتربيته وحراسته من كيد الاعداء، اما تفاصيل القصة وجزئياتها فقد تكون من اضافات الرواة.

ايام الفجار و مشاركة الرسول فيها

الفجار على مرحلتين، عرفتا ب (الفجار الاولى) و (الفجار الثانية)، وسميت بالفجار لانها وقعت فى الاشهر الحرم، فى الموسم الذى

يفتح فيه سوق عكاظ، وكان السبب الاصلى لها هو هتك حرمة الاشهر الحرم. والفجار مشتقة من (الفجور)، اذ كثيرا ما تغلب طبائع العرب في الغزو والاغارة على الحدود والاعراف التي وضعتها القبائل العربية والتزمت بالحفاظ عليها. ولا يعرف تاريخ هذه الحرب بشكل دقيق ولا يوجد بين ايدينا تفاصيل كاملة عن مجرياتها، اذ لم يدون تاريخها الا بعد فترة طويلة من وقوعها، اى فى القرن الاول والثانى الهجريين، فمن الطبيعى ان يحفل مثل هذا التاريخ بالاختلافات والتناقضات. قال اصحاب السير: ان الرسول (ص) شارك فى هذه الحرب فى مرحلتها الثانية، ويقول الاصفهاني: ان ايام الفجار الثانية كانت عبارة عن يوم نخلة، ويوم الشمطة، ويوم العباء، ويوم عكاظ، ويوم الحره. [١٠٢] واستمرت لاربع سنوات متواصلة. [١٠٣] وكانت كل واحدة منها تبدا فى موسم سوق عكاظ، اما طرفا النزاع فهما قريش والمتحالفون معها من جانب، وقبائل هوازن من جانب آخر. ويقول صاحب الاغانى فى الصفحة نفسها: «ان الرسول (ص) شارك فى الحرب فى جميع فصولها الا- فى يوم (نخلة)، من السنة الاولى»، ولكنه نقل عن ابى عبيدة ان رسول الله كان قد شارك فى يوم (نخلة) ايضا، وكان عمره اربعة عشر عاما، وكانت مشاركته فى دعمه لاعمامه ومساندته لهم فى الرمي، اى بتزويدهم بالنبل، وينقل عن الرسول (ص) قوله: «كنت انبل اعمامى». وجاء فى تفسير ذلك ان الرسول كان يجمع النبل القادم من العدو ويجعله فى تناول اعمامه. وذكر صاحب الاغانى ان عمر الرسول كان وقتئذ (٢٨) سنة. [١٠٤] وهذا ما يصعب تصديقه، لان الرجل اذا بلغ كان هذا العمر فستكون مشاركته بالحرب مشاركة مباشرة، ولا يكتفى بجمع النبل واحضاره للمقاتلين! ويقول ابن الاثير: «ان الرسول كان له من العمر عشرون عاما ايام تلك الحرب»، وهذا بدوره لا يمكن تصديقه للسبب عينه. كانت قريش قد هزمت فى يوم (نخلة) ولاذت بالحرم، ولهذا السبب، وبسبب حلول الليل ايضا توقفت الحرب. وينقل ابن الاثير عن الزهرى قوله: ان الرسول لم يشارك فى هذه الحرب، فلو كان حاضرا لما هزمت قريش، غير ان ابن الاثير يرد على هذا التعليل، ويقول: ان اصحاب الرسول (ص) كانوا قد هزموا بعد بعثته كما فى احد مثلا فكيف لا يمكن ان يهزموا قبل البعثة. [١٠٥]. وقال صاحب الاغانى: «ان الرسول اشترك فى يوم (الشمطة)» (فى السنة الثانية فى الفجار الثانية) وينقل عن الرسول قوله: «انه ما حمل على ناحية الا وهزم من كان فيها»، ويضيف فى ص ٦٤: ان الرسول شارك فى جميع معارك حرب الفجار الا فى يوم (نخلة) كانت مشاركته بتحضير النبل لاعمامه، وكان عمره عشرين عاما، وكذلك اشترك فى حرب الابوا المعروفة بمعركة (ملاعب الاسنة) وكان قد اصيب فيها. ويحتمل كثيرا ان يكون الرسول (ص) قد اشترك فعلا فى هذه الحروب بناء على صحة القولين المنقولين عنه (ص)، احدهما: «كنت انبل على اعمامى»، والاخر: «ما سرنى انى لم اشهده، انهم تعدوا على قومي، عرضوا عليهم ان يدفعوا اليهم البراض صاحبهم فابوا». [١٠٦]. يمكن الجمع بين الروايات، التى تذهب الى انه كان صغيرا لم يشترك فى الحرب بصورة مباشرة، وبين الروايات التى تدعى مباشرة للحرب كاي مقاتل آخر، بالقول ان المجموعة الاولى من الروايات تتعلق ببداية الحرب، والتى كان عمر الرسول (ص) حينها فى حدود الاربعة عشر او الخمسة عشر عاما، حيث اقتصر فى مشاركته على مساعدة اعمامه فى تحضير النبل، اما المجموعة الثانية فتتعلق باواخر الحرب حيث بلغ حينها الثامنة عشر او اكثر، ولم يعد يكتف بتلك المشاركة، بل اصبح يقاتل بصورة مباشرة. اما سبب رضا الرسول عن مشاركته فى الحرب وادانته لخصوم قريش فيها اى (هوازن) رغم ان (البراض) الداخلى فى جوار قريش كان فاسقا وخمارا وقاتلا، فربما يعود لاصرار (هوازن) على تسلم البراض بالقهر لتنزل به القصاص وتقتله، ورفضوا كما يفهم من مضمون الروايات، وان لم يظهر ذلك فيها بشكل صريح قبول الدية، وبادروا الى الحرب دون تورع عن سفك الدماء وقتل المزيد من الناس. [١٠٧].

حلف الفضول و مشاركة الرسول فيه

تم التوصل الى (حلف الفضول) بعد عودة قريش من حرب الفجار، وكان الرسول (ص) حينها قد بلغ العشرين من عمره الشريف، ويبدو ان هذا الحلف الذى ابرم فى شهر ذى القعدة كان افضل واشرف حلف عقده عرب الجاهلية على الاطلاق. وقيل: ان الرسول (ص) كان حاضرا حين ابرام الحلف فى بيت عبدالله بن جدعان، ونقل عنه (ص) قوله: «ما احب ان لى بحلف حضرته بدار ابن

جدعان حمر النعم وانى اغدر به، هاشم وتيم تحالفوا ان يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفة، ولو دعيت به لا-جبت، وهو حلف الفضول». [١٠٨] لقد عقد هذا الحلف لاختذ حق المظلوم من الظالم فى مكة، فكان لا يامن العربى ولا غيره على ماله هناك، وكان من بين من اشتهر من قريش بالاغارة على اموال الناس: العاص بن وائل السهمى (ابو محمد بن العاص) الذى اخذ مالا لشخص من بنى زبيد ولم يدفع ثمنه، فشكا الزبيدى امره الى حلفائه وكان منهم بنو سهم، فلم يكتف هؤلاء الاحلاف وهم (بنو عبد الدار ومخزوم وسهم وعدى وجمح) بعدم نصرته بل اعانوا عليه، فلجا الزبيدى الى جبل قبيس، وكان قد وصل الى هناك قبل طلوع الشمس، وبينما كان القرشيون يطوفون حول الكعبة نادى الزبيدى بظليمته وطلب النصرة من قريش، وكان من بين الذين سمعوا نداءه اعضاء حلف المطيبين، اى بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم، فاجتمعوا فى منزل عبدالله بن جدعان، وكان من اشراف قريش واغنيائها، فتعاهدوا على ان يقفوا الى جانب المظلوم وينازعوا الظالم حتى ياخذوا الحق منه. [١٠٩] وذكرت هذه الرواية سببا آخر لحلف الفضول وهو التنازع على مناصب بنى عبد الدار.

الزواج من خديجة

كانت خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى قد تزوجت من رجلين قبل زواجها من رسول الله (ص)، احدهما (ابو هالة التميمي)، وقد انجبت منه ولدا اسمه هند، دخل الاسلام فيما بعد وكان من البدرين، وقد روى عنه الامام الحسن بن على (ع) حديثا واصفا اياه ب (خالى). وشهد هند مع امير المؤمنين معركة الجمل، وقتل فيها، وانجبت خديجة من زوجها الثانى (عتيق بن عابد المخزومي) بنتا اسمتها هند ايضا، (هوند اسم مشترك بين الذكور والاناث). وتشرفت هى الاخرى بالاسلام. كانت خديجة على قدر كبير من الثراء، وكثيرا ما كانت تستاجر العمال وترسلهم فى قوافل تجارية الى الشام وغيرها من الاسواق. وطبقا للرواية التى اوردها ابن سعد فى طبقاته: [١١٠] لما بلغ رسول الله (ص) خمسا وعشرين سنة قال له ابو طالب: «انا رجل لا مال لى، وقد اشتد الزمان علينا، وهذه غير قومك وقد حضر خروجها الى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا- من قومك فى غيرها، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لاسرعت اليك»، وبلغ خديجة ما كان من محاوره عمه له، فارسلت اليه فى ذلك وقالت له: «انا اعطيك ضعف ما اعطى رجالا من قومك». قال: اخبرنا عبدالله بن جعفر الرقى، قال ابو طالب: «يا بن اخى، قد بلغنى ان خديجة استاجرت فلانا بيكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما اعطته، فهل لك ان تكلمها؟» قال: «ما احببت!» فخرج اليها فقال: «هل لك يا خديجة ان تستاجرى محمدا؟ فقد بلغنا انك استاجرت فلانا بيكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون اربع بكار» قال: «فقلت خديجة: لو سالت ذاك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سالت لحبيب قريب؟». واخيرا ذهب الرسول (ص) الى الشام فى قافلة تجارية لخديجة، ورافقه فى سفره هذا غلام لها يدعى ميسرة، وقد فتح الله على يد رسوله، فكانت رحلة تجارية ناجحة وصفقة رابحة، فاعجبت خديجة باخلاق رسول الله وامانته خلال السفر، وزادها قناعة غلامها ميسرة الذى نقل لها اعجابه هو الاخر برفيقه وما لاحظه، من امور تستدعى التقدير والثناء، فما كان منها الا ان اعربت عن رغبتها بالزواج منه، ولما بلغ احد الاشخاص الرسول (ص) ذلك استجاب لهذه الرغبة، فقام عمه ابوطالب وحمزة بخبطة خديجة من عمها عمرو بن اسد وتم الزواج. وكان الرسول قد بلغ (طبقا للروايات) الخامسة والعشرين من عمره حينها فكان يصغرها بخمسة عشر عاما. وقد تحدثت الاخبار عن معاجز وكرامات حصلت للرسول (ص) فى سفره هذا الى الشام، وعن نبوءات تنبأ بها راهب مسيحي يدعى (نسطور) حول نبوته (ص)، نقول بشأنها ما سبق منا الاشارة اليه، وهو اننا لا نرى فى تنبؤ الراهبان بمستقبل شاب لفت الانظار بحدته ذكائه وعلو همته وشدة استقامته، امرا خارقا للعادة، بل ذلك امر ميسور لكل انسان يتمتع بقدر بسيط من الذكاء والفراسة. لكن ان يتنبأ رجل دين مسيحي بنبوة انسان غريب، قد يكون ذلك امرا مستبعدا. اما اذا كان الغرض من الحاق هذه القصة بالرواية المذكورة هو التدليل على صدق النبوة، او للفخر والاعتزاز، فان الرسول غنى عن مثل هذه الشهادات، وغير محتاج لتلك المفخرة، وله من افعاله واقواله خير دليل على صدق نبوته، وقيلها جميعا القرآن الكريم. والملفت فى رواية الزواج من خديجة هو رغبة

هذه المرأة، التي هي من اشرف واغنى نساء قريش، بالزواج منه (ص)، وهذا دليل على علو منزلته وجلال قدره وطيب سمعته. فمع ماله من شرف الحسب والنسب غير انه كان فقيرا لا يملك من حطام الدنيا شيئا. اما اعمامه فقد بلغ فيهم الفقر في حينها حداحاروا معه في اعالته (ص). فلا يمكن لمن هذه حاله ان يستقطب اهتمام الناس ويكسب احترامهم وتقديرهم الا بالخلق الحسن والمعاملة الطيبة والموودة للناس. لقد بلغ رسول الله (ص) المنزلة الاجتماعية المرموقة التي جعلت امرأة من اشرف واغنى نساء قريش تعرض الزواج عليه (ص). وقد وردت تفاصيل كثيرة في موضوع هذا الزواج، ومنها ما قيل: «ان خويلد ابا خديجة سقى من الخمر حتى اخذت فيه ثم دعا محمدا (ص) فزوجه». نقول ان الامر الذي دفع خديجة الى طلب الزواج من الرسول (ص) هو مكانته الاجتماعية واشتهاره في مكة بالصادق الامين، وذلك لم يدع مجالا للتردد امام ابي خديجة ولم يكن بحاجة لان يلجا الى السكر لاصدار الموافقة، كما اننا لم نعر على ما يشبه هذه الحادثة في قريش، ولو صحت تلك الرواية فسيحكم على هذا الزواج بالفساد والبطلان في وقته. فالرواية تكذب نفسها بنفسها، ويحتمل ان تكون مما دسه اعداء بني هاشم، وخصوصا اعداء ابناء فاطمة (ع) والعلويين، فان فاطمة ومن ثم اولاد الرسول (ص) وائمة الشيعة انما كانوا حصيلة هذا الزواج.

اولاد الرسول من خديجة

روى ابن سعد [١١١] عن هشام بن محمد الكلبي عن ابن عباس، قال: «كان اول من ولد لرسول الله (ص) بمكة قبل النبوة القاسم، وبه يكنى، ثم زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم ام كلثوم، ثم ولد له في الاسلام عبد الله فسمى الطيب والطاهر، وامهم جميعا خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصي، وامها فاطمة بنت زائدة بن الاصم، وكان اول من مات من ولده القاسم، ثم مات عبد الله بمكة، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع ولده فهو ابتر، فانزل الله تعالى: (ان شانك هو الابتر) «الكوثر: ٣».

مشاركة الرسول في ترميم الكعبة

ان الرسول (ص) كان قد ساهم في شبابه وقبل بعثته في ترميم بناء الكعبة، وقد وقع اختلاف في تقدير وتحديد عمر الرسول (ص) حينئذ، حيث قال الازرقى: «ان الرسول (ص) كان غلاما» وازداد الازرقى: «فثقلوا الحجارة ورسول الله يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي، ينقل معهم الحجارة على رقبتهم، فينا هو ينقلها اذ انكشفت عزة كانت عليه فنودي يا محمد عورتك، وذلك اول ما نودي والله اعلم، فما رؤيت لرسول الله (ص) عورة بعد ذلك... فشد رسول الله (ص) ازاره، وجعل ينقل معهم». [١١٢]. وقال ابن اسحاق: «فلما بلغ رسول الله (ص) خمسا وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبناء الكعبة». [١١٣]. ويعتقد ان رواية ابن اسحاق هي الاصح، فسرى ان الرسول حين اختير ليحكم في قضية الحجر الاسود والاختلاف الذي وقع فيمن ينال شرف رفعه، قالوا: «هذا الامين» وذلك لا ينسجم مع كونه طفلا او غلاما. وقد وقع اختلاف ايضا في اسباب ترميم الكعبة، فقال ابن سعد: «كانت الجرف مطلة على مكة، وكان السيل يدخل من اعلاها حتى يدخل البيت فانصدع، فخافوا ان ينهدم». [١١٤]. وروى الازرقى في تاريخ مكة: «ان امرأة تجمر الكعبة، فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها، وكانت الكسوة عليها ركاما بعضها فوق بعض، فلما احترقت الكعبة توهنت جدرانها من كل جانب». وذكر الازرقى في المصدر نفسه قضية السيل. وكانت جدران الكعبة قصيرة على ما يبدو، كما ان بنائها كان من الحجر الذي وضع دون ملاط يشده الى البعض، حيث جاء في سيرة ابن هشام: [١١٥] «انها كانت رضما فوق القامة، فارادوا رفعها وتسقيفها ولهذا وقعت تلك السرقة المعروفة للكعبة، حيث جاء في الصفحة نفسها من سيرة ابن هشام، ان نفرا سرقوا كنزا للكعبة، وقيل ان ابا لهب عم الرسول (ص) وعدوه اللدود كان احد المشاركين في هذه السرقة. كان باب الكعبة ملاصقا للارض، وبحيث يمكن الدخول الى داخلها، ويبدو ايضا ان الكعبة لم يكن لها سقف، وكان البحر قد رمى بسفينته الى جده لرجل من تجار الروم فتحطمت، واخذوا خشبها، فاعدوه لتسقيفها، واخذوا لاهلها اي اهل السفينة ان يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاع على ان لا يعشروهم، وكانوا يعشرون

من دخلها من تجار الروم، ويقول ابن هشام: «وكان بمكة رجل قبطي نجار فتهيا لهم فيانفسهم بعض ما يصلحها». [١١٦]. وفي رواية اخرى للازرقى: انه كان في السفينة رومي نجار بناء يسمى باقوم كان قد ساعدهم في بنائها [١١٧]. وبعد تهيب وخوف من غضب الله، قامت قريش بهدم جدر ان الكعبة، قال الازرقى: «فلما وضعوا ايديهم في بنائها قالوا: ارفعوا بابها من الارض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول ولا ترقى الابل، ولا يدخلها الا من اردتم، ان كرهتم احدا دفعتموه، ففعلوا ذلك وبنوها بساف من حجارة وساف من خشب بين الحجارة حتى انتهوا الى موضع الركن فاختلفوا في وضعه، وكثر الكلام فيه، وتنافسوا في ذلك، فقال بنو عبد مناف وبنو زهرة: هو في الشق الذي وقع لنا، وقالت تيم ومخزوم: هو في الشق الذي وقع لنا، وقالت سائر القبائل: لم يكن مما استهمناعليه فقال ابو امية المغيرة: يا قوم، انما اردنا البر، ولم نرد الشر، فلا تحاسدوا ولا تنافسوا، فانكم اذا اختلفتم تشتتت اموركم وطمع فيكم غيركم، ولكن حكموا بينكم اول من يطلع عليكم من هذا الضح. قالوا: رضينا وسلمنا فطلع رسول الله (ص) فقالوا: هذا الامين قد رضينا به فحكموه. فبسط رداءه، ثم وضع فيه الركن، فدعا من كل ربع رجلا، فاخذوا باطراف الثوب، فكان من بنى عبد مناف عتبة بن ربيعة، وكان في الربع الثاني ابو زمعة بن الاسود، وكان اسن القوم، وفي الربع الثالث العاص بن وائل، وفي الرابع ابو حذيفة بن المغيرة، فرفع القوم الركن، وقام النبي (ص) على الجدار ثموضعه بيده». [١١٨]. وتدل هذه الرواية على رجاحة عقل الرسول، وحسن تدييره، وحده ذكائه، وكفاءته، ولا غرو في ذلك، فمن استطاع ان يغير الوجه الاجتماعي والسياسي لجزء مهم من العالم المتحضر، لا بد ان يكون له مثل هذا العقل وتلك الكفاءة، ولا نجد مبرر الرد الرواية وعدم قبولها. وكما اوضحنا فان ارتفاع الكعبة كان بحدود تسعة اذرع ولم يكن لها سقف، وانما تدلى الكسوة على الجدار من الخارج وتربط مناعلى الجدار من بطنها. [١١٩]. وقال الوليد بن المغيرة اثناء البناء: «لا تدخلوا في عمارة بيت ربكم الا- من طيب اموالكم، ولا تدخلوا فيه مالا من ربا، ولا مالا من ميسر، ولا مهر بغي، وجنبوه الخبيث من اموالكم، فان الله لا- يقبل الا- طيبا، ففعلوا، ثم وقفوا عند المقام، فقاموا يدعون ربهم ويقولون: «اللهم ان كان لك في هدمها رضا فاتمه». ولكن ما جمعه من النفقة لم يكن كافيا البيت كله، لانهم لم ياخذوا من الاموال الحرام خصوصا اموال الربا، والسرقه فتشاوروا في ذلك، فاجمع رايهم على ان يقصروا عن القواعد، ويحجروا مايقدرون عليه من بناء البيت ويتركوا بقيته في الحجر، وعليه جدار مدار يطوف الناس من ورائه، ففعلوا ذلك، وجعلوا في بطن الكعبة اساسا يبنون عليه من شق الحجر ستة اذرع وشبرا، فبنوا على ذلك، فلما وضعوا ايديهم في بنائها قالوا: «ارفعوا بابها من الارض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول ولا ترقى الا بسلم، ولا يدخلها الا من اردتم، ان كرهتم احدا دفعتموه»، ففعلوا ذلك وبنوها بسافمن حجارة وساف من خشب بين الحجارة. [١٢٠]. فبنوا اربعة اذرع وشبرا، ثم كبسوها ووضعوا بابها مرتفعا على هذا الذرع، ورفعوها بمدماك خشب ومدماك حجارة، حتى بلغوا السقف، فقال باقوم الرومي: «اتحبون ان تجعلوا سقفها مكبسا او مسطحا؟»، فقالوا: «بل ابن بيت ربنا مسطحا». قال: «فبنوه مسطحا، وجعلوا فيه ست دعائم في صفين، في كل صف ثلاث دعائم من الشق الشامي الذي يلي الحجر الى الشق اليماني، وجعلوا ارتفاعها ثمانية عشر ذراعا... وزوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلوا في دعائمها صورالانبياء وصور الشجر وصور الملائكة، فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمن وهو شيخ يستقسم بالازلام، وصورة عيسى ابن مريم وامه»، ويبدو ان هذه الصور من اعمال الروم المسيحيين وخاصة صورة عيسى ومريم عليهما السلام والافان القرشيين مشركون ولا يعتقدون بالمسيحية. وقيل: «لما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله (ص) فارسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب، فجاء بماء زمزم، ثم امر بثوب وامر بطمس تلك الصور فطمست، قال: ووضع كفيه على صورة عيسى ابن مريم وامه عليهما السلام، وقال: امحوا جميع الصور الا ما تحت يدي فرفع يديه عن عيسى ابن مريم وامه ونظر الى صورة ابراهيم فقال: قاتلهم الله، جعلوه يستقسم بالازلام، ما لابراهيم وللازلام». [١٢١].

سيرة الرسول من البعثة حتى الهجرة

موقف الرسول من عقائد وعادات قومه قبل البعثة

ان ما وصل اليانا من حوادث عن حياة الرسول (ص) تعتبر قليلة جدا، ولا- تمثل سجلا وافيا لاربعين عاما او اكثر من حياة حافلة بالاحداث كحياة الرسول (ص)، ويبدو ان اكثر الذين رووا سيرته ونقلوها الى الناس لم يعاشروا الرسول (ص) ولم يرافقه طيلة حياته فهناك فقط قلته من اصحابه (ص) رافقته منذ البعثة وحتى الهجرة، غير ان تقدم سنهم لم يمهلهم الى حين بدا الرواة والمحققون حملتهم لتدوين تفاصيل الحياة النبوية بناء على رواية الصحابة الاوائل، وجعلها في متناول الناس، بل توفوا قبل مرحلة التدوين او استشهدوا في المعارك والغزوات التي وقعت خلال حياة الرسول (ص). كان احد هؤلاء ابا بكر بن ابي قحافة الذي رافق الرسول (ص) فترة طويلة جدا، وكان قرينه في السن تقريبا، غير انه لم يعيش بعد الرسول (ص) سوى سنتين، بينما قتل الصحابي الاخر حمزة، عم الرسول واخوه بالرضاعة، في معركة احد، ودفنت معه احداث وذكريات مهمة، اما الامام علي بن ابي طالب (ع) فلم يكن له من العمر حين البعثة النبوية سوى عشرة اعوام، فهو لا يستطيع استحضار تفاصيل الاحداث التي عاشها الرسول (ص) ايام شبابه بصورة كاملة. ورغم كل هذا فاننا يمكن ان نهتدي بذلك القدر المحدود من الاحداث التي ثم تدوينها الى المقام الذي كان عليه الرسول (ص) من حسن الخلق، وحدة الذكاء، ورجاحة العقل والتدبير، وشدة حبه للخير، ومثال ذلك ما قاله (ص) حول حلف الفضول. ويستشف من بعض الروايات التي نقلت هنا وهناك ان الرسول (ص) كان دائم التفكير والتأمل في واقع قومه قبل البعثة، وفي الوقت الذي كان يرفض فيه كل المظاهر والاخلاق والاعراف الباطلة، كان يراعى تقاليدهم الدينية بالقدر الذي لا تترك معه اي اثر في نفسه، وبعبارة اخرى كان يتجنب استفزازهم والظهور بمظهر التحدي لهم دوما، ومن البديهي ان ذلك لا يعنى قبول عبادة الاصنام واقرارها، او العمل بما جرى عليه الناس من اعراف جاهلية قبيحة، فهم برغم اعتقادهم بسوء تلك العادات، مثل الزنا والغزو وارتكاب القتل والسرقة وقطع الطريق وما الى ذلك، غير انهم كانوا لا يمتنعون عنها، وقد مرت الاشارة الى هذا المعنى في مسالة تجديد بناء الكعبة حيث قيل انهم كانوا لا ينفقون على هذا البناء من اموال الربا والسرقة او من اموال القمار والزنا، ولهذا كانت الاموال التي تجمع لهذا الغرض قليلة. كان الرسول (ص) في موقفه من دين قومه يراعى ظواهر الامور، فنحن نعلم ان الكعبة كانت تغص بالاصنام، وان العرب اعتادوا على الطواف حولها، يوميا او كل عدة ايام، سبعة اشواط، وكان الرسول قبل البعثة، وفي كل مرة يعود فيها من التحنث والانتقطاع في غار حراء، يذهب قبل كل شيء الى البيت ويطوف حول الكعبة، ثم ينصرف الى ممارسة شؤون حياتها العادية [١٢٢].

التحنث في غار حراء

مرت الاشارة سابقا الى ان هناك جماعة من مكة ابوا متابعة دين آبائهم، واعتزلوا قومهم وما يعبدون، وذهبوا يبحثون عن دين افضل، فاعتنق ثلاثة من هؤلاء الديانة المسيحية، وهم: عثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل، وعبيدالله بن جحش، اما الشخص الرابع، وهو زيد بن عمرو بن نفيل، فقد ظل على حيرته حتى وافاه الاجل، وكان زيد بن عمرو بن نفيل قد واجه اذى من عمه الخطاب ابن نفيل، فاضطر الى الابتعاد والالتجاء الى جبل حراء، الذي يبعد عن مكة مسافة ثلاثة اميال [١٢٣]. وقد روى ابن اسحاق انه كان يوجد في جبل حراء غار تذهب اليه قريش ايام تحنثها [١٢٤]. والتحنث يعنى (التبرر)، وقيل: هو التبعيد واعتزال الاصنام. وقال ابن سيده: «وهذا عندي على السلب، كانه ينفي بذلك الحنث، الذي هو الاثم، عن نفسه، كقوله تعالى: (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) «الاسراء: ٧٩» اي انف الوجود عن عينك، ونظيره تائم وتحوب، اي نفى الاثم والحوب، وللحرب افعال تخالف معانيها الفاظها، يقال: فلان يتحنث من كذا، اي يتائم منه، وقوله: يتحنث من كذا، اي يفعل فعلا يخرج بهمن الحنث، وهو الاثم والحرج». [١٢٥]. اما عن كيفية هذا التحنث الذي كانت تفعله قريش والاسباب التي تدعوها اليه، فهذا ما لا نملك معلومات كافية عنه، وورد في رواية لابن اسحاق: «ان رسول الله (ص) كان قبل البعثة يتحنث شهرا كاملا في كل سنة في غار حراء، وكان يطعم كل فقير ياتيه». ويضيف ابن اسحاق قائلا: «وكان مما تتحنث به قريش ايام الجاهلية». ولم توضح العبارة بالدقة ما اذا كانت قريش تتحنث شهرا في كل سنة ايضا، وهل تتحنث قريش جميعها، (وهو احتمال بعيد) او بعضها؟. كما ان الرواية لم تبين جهات اخرى لهذا التحنث، فربما كانت هناك اماكن اخرى للحنث غير جبل

حراء. وجاء في هذه الرواية، ان الرسول (ص) كان يعود بعد شهر من التحنث الى مكة، وقبل ان يباشر اى عمل يذهب ويطوف حول الكعبة سبعة اشواط وبعدها ينصرف الى بيته. وهكذا كان رسول الله (ص) يكرر هذا العمل فى كل عام حتى نزل عليه الوحي، وبعثه الله نبيا، وكان ذلك فى شهر رمضان. وهناك رواية اوردها الطبرى عن ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، وقد نقلتها عن رسول الله (ص) بصيغة المتكلم مرة وبصيغة الغائب مرة اخرى، قالت: «كان اول ما ابتدء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تجيء مثل فلق الصبح، ثم حبب اليه الخلاء، فكان بغار حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد، ثم يرجع الى اهله فيتزود لمثلها، حتى فجاه الحق، فاتاه جبريل فقال: يا محمد، انت رسول الله. فجتوث لركبتي ثم رجعت ترجف بوادري، فدخلت على خديجة، فقلت: زملونى زملونى، ثم ذهب عنى الروع. ثم اتانى فقال: يا محمد انت رسول الله، قال: فلقد هممت ان اطرح نفسى من حائق، فتبدي لى حين هممت بذلك، فقال: يا محمد، انا جبريل وانت رسول الله. قال: اقراء، قلت: وما اقراء؟ فاخذنى فغتنى ثلاث مرات حتى بلغ منى الجهد، ثم قال: (اقراء باسم ربك الذى خلق) فقرات، فاتيت خديجة، فقلت: لقد اشفقت على نفسى، واخبرتها خبرى، فقالت: ابشر، فوالله لا يخزيك الله ابدا، فوالله انك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الامانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت بى الى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من اهل التوراء والانجيل، فقالت: اسمع من ابن اخيك، فسالنى فاخبرته خبرى، فقال: هذا الناموس الذى انزل على موسى بن عمران، ليتنى كنت حيا حين يخرجك قومك. قلت: امخرجى هم؟ قال: نعم، انه لم يجيء احد مثل ما جئت به الا عودى، ولئن ادركنى يومك لانصرنك نصرا مؤزرا. ثم ان اول ما نزل عليه من القرآن بعد (اقراء)، (ن والقلم وما يسطرون) و (يا ايها المدثر) و (الضحى). تشتمل الرواية السابقة على نقاط مهمة ينبغى الاشارة اليها تباعا. اول هذه النقاط الرؤيا الصادقة، او قولها: كان اول ما ابتدء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة، والرؤيا الصادقة هى الرؤيا التى تتجسد وقائعها وما شاهده النائم فيها على الواقع حقيقة، ولكن لا يمكن ان يصدق مثل هذا المعنى على ما نحن فيه، فان مثل هذه الرؤى تتكرر وتشيع، ثم ما هو وجه الشبه بينها وبين فلق الصبح؟ النقطة الثانية قول الرواية: ان اول ما نزل على رسول الله (ص) من القرآن الكريم (اقراء باسم ربك) اذن ما الذى نزل فى تلك الرؤيا الصادقة التى كانها فلق الصبح؟ لا يمكن اعطاء اجابات صحيحة ودقيقة على هذه الاسئلة، اذ لم يسبق لاحد الالتفات اليها، او انه قد التفت اليها لكنه تركها دون اجابة، او انى لم اطلع على الاجابات، واعترف بعدم اطلاعى على معلومات كثيرة قالها او سجلها علماء السيرة. اما ما يمكن ان يقال عن قولها: «اول ما ابتدء به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصادقة. فان الرواية قد تكون فى صدد بيان مقدمات الوحي لا الايات نفسها التى نزلت عليه (ص)، او تلك المقدمات التى كانت نتيجة تفكيره العميق بالعالم والخالق ومصير الانسان، وباقى المسائل التى كشفت له، ليس عن طريق الوحي و (القول) و (الكلام) و (القرآن)، وانما بالطريقة التى يمكن ان يصل اليها كل المفكرين والمتعمقين بمسائل الكون وقضايا الخلق والانسان، وتنكشف لهم بواسطتها حقائق مهمة وخطيرة. كالتفكر الذى قاده الى الاقتناع ببطلان الدين الذى كان عليه قومه ومعاصروه، وجعله متيقنا بضاللتهم، وقاطعا بعدم جدوى تلك الاصنام وعجزها عن النفع او الضر. لقد ثبت له ان الشمس والقمر والليل والنهار كلها موجودات مسيرة لا تملك الا ان تجرى ضمن نظام شامل وضعته لها قوة هى اعلى واقوى من هذه الموجودات واشرف منها جميعا. لقد اتضح لرسول الله (ص) ان تلك الاعمال السيئة والافعال القبيحة كلها، التى كان يقوم بها اهل مكة وباقى العرب من الفسق والفجور والحرب والجدال والغزو واكل المال بالباطل واحتقار النساء وواد البنات، نابعة من اخلاق فاسدة صنعها هؤلاء واعتادوا عليها، ولا سبيل لاصلاح اوضاعهم الاجتماعية وتبديل قيمهم الاخلاقية وتزكية نفوسهم وتطهيرها الا بنظام جديد، ودين الهى يندفعون الى تطبيقه، من خلال ايمانهم واعتقادهم الراسخ به. لقد آمن الرسول (ص) ان لا سبيل الى توحيد العرب واتقاذهم من حالة الانحطاط التى كانوا عليها ما دامت القيم القبلية والعصبيات العنصرية تحكمهم وتسيطر عليهم، كما آمن ايضا، قبل بعثته، ان الطريقة الوحيدة التى يمكن من خلالها تغيير اوضاع الناس واتقاذهم من حالة التخبط والضياع، انما تكمن فى رجوعهم الى الله تعالى وايمانهم به وحده دون غيره، ليشرع لهم من الدين ما يمكن ان يبدل ضعفهم قوة، وتمزقهم وحدة، وضلالهم هدى وارشادا،

وحينها لن تستطيع قوة اخرى قهرهم واستعبادهم واستضعافهم. لقد كانت هذه الكشوفات والرؤى تمثل مقدمة وتوطئة للوحي، وهى التى عبرت عنها الرواية بالقول: «اول ما ابتدى به من الوحي الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح»، وجاء فى الرواية: «ثم حبب اليه الخلاء، فكان بغار حراء يتعبد فيه الليالى». والتحدث كما قلنا حالة روحانية كان يصل اليها بعض اهل مكة احيانا فيقومون اضافة الى تادية عباداتهم الخاصة، كالطواف حول الكعبة، وتقديم القرابين للالصنام، واداء مراسم الحج، والامتاع قدر الامكان عن اللغو فى القول وارتكاب المعاصى باعتزال الناس والذهاب الى اماكن خاصة يختلون فيها بانفسهم، غير انه لا يعرف الان ما هى العوامل التى كانت توصلهم الى مثل هذه الحالة الروحية وتمنحهم اياها؟ جاء فى رواية ابن اسحاق عن عبيد بن عمير: [١٢٦]. «ان رسول الله (ص) كان يذهب فى كل سنة شهرا الى هناك ويتحنث». وجاء فى رواية الطبرى كذلك عن ابن شهاب الزهري، عن عائشه، والتى نقلنا فقرات منها قبل قليل، ومما جاء فيها: «ثم حبب اليه الخلاء، فكان بغار حراء يتعبد فيه»، وقلنا ان هذا التحنث حدث للرسول (ص) بعد ما شاهده من الرؤيا الصادقة، او مقدمات الوحي، اما بعد نزول الوحي فقد انتابته حالة خاصة من الخوف والخشية، عبرت عنها الرواية بالقول: «فلقد هممت ان اطرح نفسى من حائق»، اى هممت ان ارمى بنفسى من شاهق، لقد كانت نتيجة تلك الحالة ان دفعته الى اعتزال القوم و (التحنث) الذى ادى بدوره، ونتيجة التفكير العميق باوضاع الناس الاجتماعية والدينية، الى اكتشاف ضلال القوم وبطلان عقائدهم. وبعد هذا الانكشاف والوضوح اللذين تما للرسول عن حالة المجتمع اخذ يعتزل الناس اكثر ويشعر بالحاجة الى الاختلاء بنفسه، والاستغراق فى التفكير بمصير الانسانية وما حصل له من حالات خاصة من التجلى، واتخاذ الموقف المناسب من هذه المستجدات، وبينما هو على هذه الحالة من التحنث والتطهر والسمو الروحي، نزل عليه الوحي الحقيقى بصورة جبرئيل بندا: (اقرا) فلما طرق النداء سمعه ارتجف جسمه كما جاء فى الرواية: «فجثوت على ركبتي ثم رجعت ترجف بوادري، فدخلت على خديجة، فقلت: زملونى زملونى، ثم ذهب عنى الروح، ثم اتانى فقال: يا محمد، انت رسول الله. قال: فقلت: فلقد هممت ان اطرح نفسى من حائق، فتبدى لى حين هممت بذلك فقال: يا محمد، انا جبريل، وانت رسول الله. قال: اقرا. قلت: وما اقرا؟ قال: فاخذنى فغتنى ثلاث مرات حتى بلغ منى الجهد، ثم قال: (اقرا باسم ربك الذى خلق) فقرات، فاتيت خديجة، فقلت: لقد اشفقت على نفسى، واخبرتها خبرى، فقالت: ابشر فوالله لا يخزيك الله ابدا، فوالله انك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الامانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت بى الى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من اهل التوراة والانجيل، فقال: هذا الناموس الذى انزل على موسى بن عمران، ليتنى كنت حيا حين يخرجك قومك». وجاء فى حديث آخر رواه الطبرى [١٢٧] عن عبدالله بن شداد، قال: «اتى جبريل محمدا (ص) فقال: يا محمد، اقرا. فقال: ما اقرا؟ قال: فضمه، ثم قال: يا محمد، اقرا. فقال: ما اقرا؟، فقال: فضمه، ثم قال: يا محمد، اقرا. قال: وما اقرا؟ قال: (اقرا باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق) «العلق: ١-٥» حتى بلغ (علم الانسان ما لم يعلم) قال: فجاء الى خديجة، فقال: يا خديجة، ما ارانى الا قد عرض لى. قالت: كلا والله ما كان ربك يفعل ذلك بك، ما اتيت فاحشة قط، قال: فانت خديجة ورقة بن نوفل فاخبرته الخبر، فقال: لئن كنت صادقة، ان زوجك لنبى، وليلقين من امته شدة، ولئن ادركته لاؤمنن به» ويفهم من عبارة: «ما ارانى الا قد عرض لى» ان هناك شعورا بالاضطراب والدهشة كان ينتاب الرسول (ص) فى بداية نزول الوحي. ما عسى يكون هذا الامر المزعج؟ ان الابهام الذى ورد كما قلنا فى رواية الطبرى عن عبد الله بن شداد بقوله: «قد عرض لى» يمكن ان يرتفع بما ورد فى رواية ابن اسحاق عن عبد الملك بن عبدالله بن ابى سفيان الثقفى، غير اننا يجب ان نقول اولاً: ان هذه الرواية كان قد اوردها ابن هشام بصورة ناقصة مبتورة، ولم يذكر فيها المورد الذى نستند اليه. لقد ورد هذا الجزء بصورة كاملة ومفصلة فى جزء من نص سيرة ابن اسحاق التى نشرها محمد حميد الله معتمدا على نسخة القرويين. [١٢٨] ووردت ايضا فى رواية الطبرى عن سلمة بن محمد بن اسحاق، عن وهب بن كيسان، [١٢٩] ولم ترد هذه النقطة ايضا فى سيرة ابن هشام فى نقله لرواية وهب بن كيسان. [١٣٠]. ونحن نحتمل ان تكون رواية عبد الملك بن عبدالله فى الطبرى، قد ادمجت مع رواية وهب بن كيسان، فان اغلب عبارات الروايتين متكررة. اما الذى ورد فى كل من سيرة ابن هشام وسيرة ابن اسحاق (نسخة القرويين)

وتاريخ الطبري فهو القول بان سورة (اقرا) كانت اول ما نزل به جبرئيل على النبي (ص) وان النبي كان حين نزول هذه السورة نائما. ففي رواية ابن هشام: [١٣١] «فجاءني جبريل (ع) وانا نائم، بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرا. قال: قلت: ما اقرا؟، قال: فغتنى به حتى ظننت انه الموت، ثم ارسلني، فقال: اقرا. قال: قلت: ما اقرا؟. قال: فغتنى به حتى ظننت انه الموت.... قال: فقلت: ماذا اقرا؟، ما اقول ذلك الا افتداء منه مخافة ان يعيد ما صنعه بي؟، فقال: (اقرا باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرا وربك الاكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم) «العلق: ١- ٥» قال: فقراتها، ثم انتهى فانصرف عني، وهببت من نومي فكانما صور في قلبي كتابا». ساعود الى قصة النوم هذه، اما ما اريد بيانه هنا فهو الشيء الذي ورد في الرواية التالية، والذي يمكن ان يكون تفسيراً لقوله: «قد عرض لي»، ذلك هو قوله (ص) الذي جاء في سيرة ابن اسحاق (نسخة القرويين ص ١٢١): [١٣٢] «ولم يكن في خلق الله عز وجل احد ابغض الي من شاعر او مجنون، كنت لا اطيق ان انظر اليهما فقلت: ان الابدع يعني نفسه لشاعر او مجنون. ثم قلت: لا تحدث قريش عني بهذا ابدا. لاعمدن الي حائق من الجبل فلا طرحن نفسي منه فلاقتلنها فلا سترين»...الي ان يقول: «وانصرفت راجعا الي اهلي حتى اتيت خديجة، فجلست اليها، فقالت: يا ابا القاسم، اين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا، فقلت لها: ان الابدع لشاعر او مجنون. فقالت: اعيدك بالله يا ابا القاسم من ذلك، ما كان الله عز وجل ليفعل بك ذلك مع ما اعلم من صدق حديثك وعظم امانتك وحسن خلقك وصله رحمك». كان حديث خديجة مع النبي (ص) وجوابها على عبارة: «ما اراني الا قد عرض لي» التي وردت في رواية عبدالله بن شداد هو جوابها نفسه على ما ورد في رواية وهب بن كيسان او عبد الملك بن عبدالله: «الابدع شاعر او مجنون». فمن الواضح ان هذا الامر الذي ازعجه وعرض له انما هو ما كان يفكر به الرسول (ص) من (انه شاعر او مجنون) [١٣٣] وهو الذي جعله يقول: «لاعمدن الي حائق من الجبل فلا طرحن نفسي منه». ان ما ورد في رواية ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، والتي وردت في تاريخ الطبري، ونقلناها نحن، تؤيد هذه النقطة التي اشرنا اليها، لقد جاء في ذيل الرواية المذكورة قوله (ص): «ثم كان اول ما نزل على من القرآن بعد (اقرا)، (ن والقلم وما يسطرون، ما انت بنعمه ربك بمجنون، وان لك لاجرا غير ممنون، وانك لعلى خلق عظيم، فستبصرو يبصرون) «القلم: ١- ٥». وتتلو هذه الايات من السورة نفسها الايات: (بايكم المفتون، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين...) «القلم: ٦- ٧» التي لم تذكرها الرواية، واعتقد انها نزلت في المناسبة نفسها. اما ما تبقى من آيات في هذه السورة، فتكشف مضامينها عن انها انزلت فيما بعد، كما ان سورة (اقرا) او (العلق) لم تنزل كلها في بدايات الوحي، بل الذي انزل منها بادى الامر هو اول السورة الى قوله تعالى: (علم الانسان ما لم يعلم). كما صرحوا بذلك. اما كيف تؤيد بداية سورة القلم النقطة المشار اليها؟ ذلك لانها اخرجت الرسول (ص) من حالة الشك والاضطراب المشار اليهما في قوله: «اني اخشى ان يكون في جنن»، حين خاطبته قائلة: (ن والقلم وما يسطرون ما انت بنعمه ربك بمجنون، وان لك لاجرا غير ممنون، وانك لعلى خلق عظيم، فستبصرو يبصرون) وفي ذلك اشارة الى المعنى نفسه الذي تحدثت عنه خديجة حيث قالت: «اعيدك بالله يا ابا القاسم من ذلك، ما كان الله عز وجل ليفعل بك ذلك مع ما اعلم من صدق حديثك وعظم امانتك وحسن خلقك وصله رحمك». [١٣٤]. ثم تاتي بقية الايات تباعا لتسلي الرسول وتطمئنه حيث تقول: (فستبصر ويبصرون، بايكم المفتون، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين). ورغم ان الوحي كان ما يزال في بدايته، ولم يصدر بعد الامر بالانذار، لكن الايات تتجه الى معنى آخر جاء في متن الرواية وهو ان النبي (ص) قال: «ان الابدع يعني نفسه لشاعر او مجنون، ثم قلت: لا تحدث قريش عني بهذا ابدا» فياتي القرآن الكريم ليطمئن الرسول (ص) ويسليه ويقول له: (فستبصرو يبصرون، بايكم المفتون، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين). اما ما جاء في رواية وهب بن كيسان في سيرة ابن هشام والطبري، ورواية عبد الملك بن عبد الله في سيرة ابن اسحاق، من ان سورة العلق انزلت على الرسول (ص) وهو نائم، فان ذلك له علاقة بتلك العبارة من الرواية التي قالت: «جاءني جبرئيل وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرا» والنبي (ص) لم يكن يكتب، وربما كان لا يقرأ ايضا. فحين عرض عليه هذا الكتاب وهو نائم وقيل: «اقرا»، قال اولاً: «ماقرا؟» بمعنى انني لا اقرا. قال: «فغتنى به حتى ظننت انه الموت، ثم

ارسلني فقال: اقرا، قال: فقلت: ماذا اقرا؟ ما اقول ذلك الا افتداء منه ان يعود لي بمثل ما صنع بي»، وهنا قال له: (اقرا باسم ربك الذي خلق...) الى ان يقول: «فانصرف عني، وهببت من نومي، وكانما صور في قلبي كتابا». وربما قالوا بعد هذا ان النبي (ص) يقرا ولكنه لا يكتب. لكن لا- توجد في رواية عائشة اشارة الى الكتابة، حيث قال له جبرئيل: «اقرا»، وقال الرسول: «ما اقرا؟» اي بمعنى ماذا اقرا؟ وليس بمعنى لا- اقرا، او لا- استطيع القراءة. والقراءة هنا لا- تعني قراءة الشيء المكتوب، بل تعني قراءة الشيء دون كتابته، كما يقرا الشخص القرآن عن ظهر قلب، او كما نقرا سورة الحمد في الصلاة. على اية حال، فان ما جاء في رواية وهب بن كيسان من ان سورة (اقرا) انزلت على النبي (ص) وهو نائم، يمكن اعتباره نوعا من الرؤيا الصادقة، وليس المراد به المعنى الحرفي للنوم، بل النوم المرتبط بالحقيقة والواقع، فان ما قيل له في النوم كان واقعا فعلا وحقيقته، وهو آيات انزلت عليه. ولكن عائشة كانت قد روت ان بداية الوحي كانت كالرؤيا الصادقة، ثم حدث التحنث، ثم بعد ذلك انزلت سورة (اقرا)، ولهذا فان معنى الرؤيا الصادقة هو ما سبقت منا الاشارة اليه.

خلق العالم وخلق الانسان

وهنا يطرح السؤال التالي: لماذا كان اول الوحي واول آية (اقرا باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق)؟ هل توجد نكته معينة في الموضوع؟ نعتقد انه من المحتمل ان (يكون السر في هذا وذاك) ان هاتين المسالتين، اي (خلق العالم وظهور الخلقة بصورة عامة وظهور الانسان في عالم الطبيعة)، ظاهرتان انشغل بهما تفكير علماء الطبيعة الكبار والفلاسفة الطبيعيين والالهيين، وهما مسالتان بقيتا دون حل الى الان. ماهى بداية العالم؟ وكيف وجد عالم المادة هذا؟ هناك نظريتان معروفتان في هذا المجال، والنظريتان يقدمان تفسيراً لظهور العالم من المادة الاولى، غير انهما لم يقدمتا شيئاً حول خلق وظهور المادة الاولى نفسها. وعلى كل حال، فان مسألة خلق العالم كانت ولا تزال مثار للجدل، وهكذا كانت مسألة خلق الانسان. فمن اي شيء وجد الانسان؟ هل انه ناتج عن تطور حيوان آخر، ام انه خلق بهذه الصورة التامة والهيئة الكاملة؟ وهل ان هذا الكلي الطبيعي الذي في اذهاننا وجد فجأة ودون مقدمات؟. هذه ايضا من المسائل التي دار حولها كلام كثير، وطرحت كاجابة عليها نظريات وتفسيرات عديدة. ولهذا كان اول خطاب سماوي يوحى الى الرسول (ص) يشير الى القوة التي اوجدت هاتين الظاهرتين العجيبتين اللتين عجزت العقول والافكار عن ان تجد تفسيراً لهما. وهذا نفسه دليل على ان الرسول كان على ارتباط وعلاقة (بالمبدأ) اي بما وراء الطبيعة، يتوجه اليه على انه خالق وصانع للظواهر الخارقة والامور المعقدة.

كيفية الوحي

كيف كان هذا الوحي؟ ما يظهر من الروايات هو ان الرسول كانت تتنابه حالة خاصة اثناء نزول الوحي اشبه ما تكون بحالة الاغماء والغيوبة. جاء في احدي الروايات وفي وصف حالة الرسول (ص) عند نزول الوحي انه: «كرب له وتربد وجهه». [١٣٥] وورد في رواية اخرى من المصدر نفسه: «وقد لذلك ساعة كهية السكران». اما اذا نزل عليه الوحي وهو راكب، فتصف الرواية حال الناقه كالتالي: «فترغو وتفتل يديها حتى يسرى عنه من ثقل الوحي» وتضيف: «وانه ليتحدر منه اي العرق مثل الجمان.... [١٣٦]. وعن عائشة: «ان الرسول قال لما ساله الحارث بن هشام عن كيفية نزول الوحي عليه: احيانا ياتي في مثل صلصلة الجرس وهو اشد على فيفصم عني وقد وعيت ما قال، واحيانا يتمثل لي الملك فيكلمني فاعى ما يقول. وقالت عائشة: «ولقد رايتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وان جبينه ليتفصد عرقا». وعن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: «كان النبي اذا نزل عليه الوحي يعالج من ذلك شدة، قال: كان يتلقاه ويحرك شفثيه كى لا ينساه، فانزل الله عليه: (لا تحرك به لسانك لتعجل به) لتعجل باخذه (ان علينا جمعه وقرآنه) (القيامة: ١٧) ان علينا ان نجعله في صدرك، قال: (قرآنه) ان يقراه، قال: (فاتبع قرآنه)، (القيامة: ١٨) قال: انصت (ان علينا بيانه) (القيامة: ١٧)»

١٩» ان نبينه بلسانك، قال: فانشرح رسول الله (ص). كل هذه الروايات تجمع على شيء واحد، ذلك هو دخول الرسول (ص) في حالة من الشدة الغير العادية حين نزول الوحي عليه، ولا يمكن ان يقال عنها بانها مرض جسدي او نفسى، اذ لم ير حتى الان مرض جسمي او نفسى ياتي على اثره كلام من العلو والبلاغة بحيث يعجز الفصحاء عن تقليده وتتضاءل قدرة البلغاء عن مجاراته، ويحتوى على معان من السمو والرفعة بحيث ما زالت تكتب العقول المفكرة في تفسيرها مئات وآلاف الكتب. وعشا يحاول بعض الكتاب الغربيين اكتشاف نوع المرض الذى يزعمون ان الرسول (ص) كان يشكو منه، فسيكلفون انفسهم مشاق البحث عنه دون جدوى! ان شيئاً كهذا الذى يوصف لم يشاهد في قائمة الامراض والاعراض والعلل، سواء الجسدية منها او النفسية. نعم، هناك في الامراض البدنية والنفسية حالات تنتاب المريض فيأخذ بالهذيان والكلام الغير متزن. ولكن ما نوع هذا المرض الذى كانت نتيجته كتابا سماويا هو مقتدى البشرية ومهداها؟.

يا ايها المدثر

تؤكد اشهر الروايات ان اول آية نزل بها الوحي على الرسول (ص) هي (اقرا) اى الاية الاولى من سورة العلق، وقد صرحت رواية ابن شهاب الزهري التى اوردها الطبرى ص ١١٥٥ ان اول ما نزل على الرسول (ص) سورة (اقرا) الى (علم الانسان ما لم يعلم). بينما ذهبت رواية ابي سلمة التى سمعها عن جابر بن عبد الله الانصارى الى ان آيات (يا ايها المدثر) كانت هي الايات الاولى التى نزل بها الامين على رسول الله (ص). غير ان الصحيح هو ان سورة (اقرا) الى قوله تعالى: (علم الانسان ما لم يعلم) كانت هي فاتحة القرآن واول آياته، حيث بدأت بالتأكيد على ان الله هو الخالق لهذا العالم والبارى لهذا الانسان، وبعد ان لفت انتباه الانسان الى ذلك، حولت الانظار الى مسألة العلم والتعلم، وجعلت ذلك بمثابة المآثر الاساسى الذى امتاز به الانسان على سائر المخلوقات بما فيها الملائكة، حيث صرحت الايات (٣١-٣٣)، من سورة البقرة على ان الله علم آدم الاسماء كلها ثم دعاه الى ان يعلم الملائكة تلك الاسماء. ونعتقد ان السبب وراء ورود بعض الروايات، مثل رواية ابي سلمة، عن ان آيات (يا ايها المدثر) كانت هي الايات الاولى فى النزول، يعود الى ان تلك الايات كانت اول ما نزل على الرسول (ص) بعد فترة انقطاع حزن لها الرسول (ص) كثيرا، وكان يجوب الجبال، ويدعو الله سبحانه وتعالى، حتى انه عاد يوما الى منزله خائفا وجلا بعد ان شاهد شيئاً فى السماء، فدعا الى ان يدثر، وهنا نزل عليه الوحي بالايات (يا ايها المدثر، قم فانذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر) «المدثر: ١-٥» فكانت هذه الايات الكريمة اول ما هبط به الوحي على صدر الرسول بعد فترة انقطاع اليممة. وفى الوقت الذى لفتت فيه سورة (العلق) الانتباه الى خلق العالم والانسان جاءت الايات الاولى من سورة المدثر لتامر الرسول (ص) ان ينذر قومه ويدعوهم الى الاسلام، فهى اول آيات التبليغ والاعلان عن الرسالة، ولهذا فالمقصود من انها اول الايات كما جاء فى الرواية اى انها اول آيات الانذار والتبليغ والاعلان عن رسالة الرسول (ص).

المسلمون الاوائل

كانت خديجة بنت خويلد زوجة الرسول (ص) اول من آمن به وايدته وآزره. اما فى شان من آمن به اولاً من الرجال فقد اختلفت الروايات فى كونه اما على بن ابي طالب (ع) او زيد بن حارثة او ابو بكر بن ابي قحافة.

على بن ابي طالب

كان على بن ابي طالب (ع) يبلغ من العمر حين نزول الوحي احد عشر عاماً، وكان يقيم مع رسول الله (ص) فى المنزل نفسه، وجاء فى رواية لابن اسحاق ان من نعم الله سبحانه وتعالى على الامام على (ع) ان كانت نشاته وتربيته على يد الرسول (ص) وفى منزل واحد جمعهما معاً منذ الطفولة. فبعد ان تعرضت قريش للتحط واصابها الفقر والجوع، ذهب الرسول (ص) الى عمه العباس وكان اكثر بنى

هاشم ثراء وطلب اليه الذهاب الى عمه الاخر ابي طالب وكان اكثر بنى هاشم عيالا واضعفهم حالا ليطلبا منه التخفيف من عياله، بان يتعهد كل واحد منهما باعالة احد ابناؤه المذكور. فوافق العباس ورافق الرسول الى ابي طالب الذي استجاب هو الاخر للاقتراح وخيرهما بين ابناؤه بعد ان احتفظ بعقيل لنفسه، فاخذ العباس جعفرًا واختار الرسول (ص) عليا، وهكذا بقي علي (ع) مع رسول الله (ص) منذ ذلك الحين وحتى نزول الوحي وبعثه الرسول (ص) فآمن به علي (ع) وصدقته ونصره. جاء في الروايات ان عليا (ع) كان يرافق ابن عمه في جولاته بين جبال مكة وشعابها خفية عن ابيه ابي طالب، وكانا يصليان معا هناك ويعودان عند الغروب. وذكرت الصلاة هنا في اشارة الى انها كانت اول ما نزل من الفرائض على رسول الله (ص) ولهذا كانا يصليانا خارج مكة وبعيدا عن اعين القوم الى ان عثر عليهما يوما ابو طالب وهما واقفان للصلاة، فسأل ابن اخيه: «اي دين هذا الذي انتما عليه؟» فاجابه (ص): «هذا دين الله وملائكته ورسوله، هذا دين ابينا ابراهيم (ع)، وانت احري القوم بالدخول في هذا الدين وتأييدنا ونصرتنا في دعوتنا هذه». فاجابه ابوطالب: «يا ابن اخي، اني لا-استطيع الخروج من دين آبائي واجدادى، ولكن اعلم انه سوف لن يستطيع احد ان يلحق بكم مكروها ما دمت حيا». وعندما تعلم ان عليا (ع) قد كبر وتربى في بيت الرسول (ص) منذ نعومة اظفاره، فلا-غرابه حينئذ من ان يكون اول الناس اسلاما واقدمهم ايمانا، بل سيكون ذلك امرا بديهيا، ولو صدر من علي (ع) شىء يستشف منه كراهته الدخول في الاسلام (معاذ الله) لظهر ذلك ووصل اليه، ولا يجد المتتبع صعوبة في التوصل الى هذه الحقيقة حتى مع قطع النظر عن الروايات والوقائع التي نصت عليها.

زيد بن حارثة المعروف بزيد الحب

كان زيد بن حارثة الكلبى ثانى رجل يدخل الاسلام طبقا لقول ابن اسحاق اى الرجل الاول بعد علي بن ابي طالب (ع)، وكان زيد مولى لرسول الله (ص) اعتقه فدعاه ابنا له. نقل قصة اسره وتحريره ابن هشام فى سيرته، [١٣٧] وابن سعد فى طبقاته. [١٣٨]. لقد كان زيد بن حارثة، فضلا عن سبقه فى الاسلام، من اقرب الصحابة لرسول الله (ص)، وزيد من بنى كلب العائدين لقضاءه، وامه سعدى من بنى معن الذين يرجع اصلهم الى قبيلة طيء، وعندما كانت امه فى زيارة لقومها بنى معن مع ولدها زيد تعرضت ديارهم لغزو من قبل بنى القين بن جسر، الذين اخذوا معهم زيدا وهو فى سن الصبا اسيرا، ثم باعوه فى سوق الحباشة على رواية ابن هشام، وفى سوق عكاظ وفقا لرواية ابن سعد. وكان قد اشتراه حكيم بن حزام الاسدى لعمته خديجة زوجة الرسول (ص) باربعمئة درهم، وكان حكيم بن حزام طبقا لما جاء فى سيرة ابن هشام قد اشتراه مع مجموعة من الغلمان وجاء بهم الى مكة فعرضهم على خديجة لتختار احدهم عبدا لها، فاختارت زيدا على غيره، ثم وهبته لرسول الله (ص) بعد زواجها منه، وكان بنو كلب قد ذهبوا الى حارثة فاخبروه بما جرى، فقرر السفر الى مكة مع اخيه شراحيل ليشتري زيدا من سوق النحاسة ويعود به، وهناعرض حارثة على الرسول (ص) مبلغا من المال لقاء تحرير زيد، فلما عرض الرسول (ص) الامر على زيد فضل زيد، الذى بهرته اخلاق الرسول (ص)، البقاء معه (ص) على السفر مع ابيه وعمه، وكان الرسول (ص) قد حرره واعلن فى حجر اسماعيل ان زيدا بمثابة ابن له وسيرته من بعده، فعاد كل من والد زيد ووالدته الى ديارهم وهما راضيان مسروران، فصار يدعى زيد بعدها زيد بن محمد (ص)، فنزلت الايات الكريمة: (وما جعل ادياءكم ابناءكم..) و (ادعوهم لابائهم) «الاحزاب: ٤، ٥» فعاد زيد مرة اخرى زيد بن حارثة. وبهذا يتضح ان زيدا كان احد افراد عائلة الرسول (ص) عند نزول الوحي، فمن الطبيعى جدا ان يكون اول من آمن به بعد علي (ع) وخديجة، ولو ان الرسول (ص) اخبر عليا (ع) بنزول الوحي عليه قبل اخبارها لكان اسبق منها فى الاسلام. لقد قام معاوية بعد توليه الخلافة بابلاغ عماله فى جميع الامصار بضرورة النيل من علي بن ابي طالب (ع) وشتمه والانتقاص منه فى السر والعلن وعلى المنابر فى المساجد وفى التجمعات الخاصة والعامه. وظل الامر هكذا حتى ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز عام (٩٩-١٠١هـ) على اقل تقدير، واذا كان السب قد انتهى حينها، فان اثره وما تركه فى النفوس لم ينته حتى بعد قرون لاحقة، فلم يال اعداء علي (ع) جهدا فى النيل منه والاساءة اليه، غير انهم عجزوا عن ان يمسوا شيئا من فضائله (ع)، سيما فضائله المسلمة كسبقه الى الاسلام، حيث لم يستطيعوا اخفاءها عن الناس، لذا حاولوا تقديم زيد بن حارثة عليه،

غير انهم فشلوا فى هذا ايضا، وكانت شمس على (ع) اسطع من ان يحجبها هؤلاء رغم كل ما بذلوه من اموال طائلة وجهود كبيرة.

ابوبكر بن ابى قحافة

يعود نسب ابى بكر الى بنى تيم بن مرة من قبيلة قريش، واسمه عبدالله وابوه عثمان، ولقب ابو بكر بالصديق والعتيق، ويوصف بالرقه وحسن المعاشرة، وقيل انه كان محبوبا فى قومه وكان عالما بانساب العرب، يعرف زينهم من شينهم. [١٣٩]. وكان يعمل بالتجارة، فعند اسلامه كان يملك اربعين الف درهم، سخرها لخدمة الاسلام وتقوية شوكته، حتى انه لم يعد يملك يوم هاجر مع رسول الله (ص) الى المدينة سوى خمسة آلاف درهم. [١٤٠]. ورد فى روايات كثيرة ان ابا بكر كان اول من اسلم، ولا- تعارض بين هذه الروايات والروايات التى تؤكد على ان عليا (ع) كان اول من آمن، وذلك لان الطائفة الاولى تتحدث عن اول الناس اسلاما من غير عائلة الرسول (ص)، بينما تختص الطائفة الثانية من الروايات بذكر عائلة الرسول (ص) وافراد اسرته التى كان على (ع) واحدا منها. هذا وقد اورد الطبرى فى تاريخه رواية تقول: ان هناك جماعة سبقت ابا بكر الى الاسلام، غير انها لمتذكر اسماء هؤلاء الجماعة، لذا لا يمكن الاعتماد عليها [١٤١].

الدعوة السرية و الدعوة العلنية

طبقا للروايات (ومنها الرواية التى اوردها الطبرى ص ١١٧٤) فان دعوة الرسول (ص) الى الدين الجديد، ظلت سرية لثلاث سنوات من تاريخ البعث، حتى امر باعلانها من خلال الاية الشريفة: (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) «الحجر: ٩٤» ثم الاية: (وانذر عشيرتک الاقربين) «الشعراء: ٢١٤». وخلال هذه الفترة آمنت جماعة، اما بدعوة ابى بكر وتأثيره طبقا لبعض الروايات او بواسطة اشخاص آخرين.

رواية ابن اسحاق

ومن بين الذين آمنوا بتأثير ابى بكر طبقا لرواية ابن اسحاق [١٤٢] عثمان بن عفان (من بنى امية)، والزبير بن العوام (من بنى اسد من قريش)، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن ابى وقاص (وكلاهما من بنى زهرة)، وطلحة بن عبيدالله (من بنى تيم).

اعتراض على رواية ابن اسحاق

ورد على رواية ابن اسحاق هذه اعتراضان: الاول، ما جاء اول الرواية التى اوردها الطبرى (ص ١١٦٨) من ان ابا بكر كان يدعو من يعاشرهم ويجالسهم ويطمئن اليهم الى الاسلام، وكان عمر ابى بكر حينها نحو (٣٨) سنة، وليس بينه وبين الرسول (ص) سوى عامين فقط، بينما كان عمر كل من طلحة والزبير وسعد بن ابى وقاص (١٨، ١٦، ١٧) سنة على التوالى، فمن المستبعد ان يكون اصدقاء وجلساء ابى بكر، البالغ من العمر (٣٨ عاما)، شبابا فى عمر المراهقة امثال طلحة والزبير وسعد بن ابى وقاص، الذين تقول عنهم الرواية انهم كانوا: «ممن يغشاه ويجلس اليه». اذا لو صح اسلام هؤلاء فى هذه السن حقا، فمن المستبعد ان يكون اسلامهم على يد ابى بكر. اما الاعتراض الثانى على الرواية، فهو ان الاشخاص المذكورين قد ذاع صيتهم ولقوا شهرة فيما بعد حتى اصبحوا نتيجة اعمالهم من (العشرة المبشرة) واختارهم عمر مع على بن ابى طالب (ع) فى الشورى التى عينها لينتخبوا خليفة من بينهم، لقد حفز انتخاب عمر لهؤلاء فى الشورى السداسية، وانتخابه لهم كمرشحين للخلافة من بعده، رواة الاجيال القادمة لان يعدوا هؤلاء الستة من ضمن الذين اسلموا بتأثير ابى بكر وارشاده، وانهم اقدم اسلاما من غيرهم. ورغم انه لا شك فى ان هؤلاء كانوا من المسلمين الاوائل، وقد اسلموا وهم ما زالوا شبابا، غير ان تقدمهم على الاخرين موضع شك، سيما ان هناك روايات اخرى تحكى عن تقدم اسلام اشخاص غيرهم.

كان اولاد واحفاد اصحاب الرسول يعتبرون تقدم آبائهم واجدادهم في الاسلام، او كونهم من المسلمين الاوائل من دواعى الفخر العظيم لهم ولعوائلهم، لهذا فهم لا يابون صناعة بعض الروايات والاخبار في هذا الصعيد. فمثلا ادعى ابناء سعد بن ابى وقاص ان اباهم كان ثالث المسلمين. ويمكن القول انه لو كان سبقه الى الاسلام من الامور المسلمة واليقينية، لكان قد اختاره عمر كميزان في تعيين حقوق المسلمين من بيت المال بدل اختياره الاشتراك في معركة بدر، وكما نعلم فان مسالة سبق الى الاسلام كانت قد طرحت حين اراد عمر كتابة دعوات العطاء للمسلمين، غير انها لم تقبل لانها كانت من الامور المبهمة التي لا يمكن تحديدها بدقة، وربما بسبب كثرة المدعين لها. ولهذا تم الركون الى اعتبار المشاركة في معركة بدر كمقياس ومعيار في تجديد الاعطيات.

تأييد للنقد الثانى

وما يؤيد الماخذ الثانى رواية اخرى اوردها ابن سعد فى طبقاته، وهى ان عبد الرحمن بن عوف لم يدخل الاسلام ضمن مجموعة ابى بكر، بل كان اسلامه ضمن مجموعة عثمان بن مظعون. تقول الرواية السابقة المسندة عن يزيد بن رومان ان عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن عوف وابا سلمة بن عبد الاسد وابا عبيدة بن الجراح، كانوا قد ذهبوا الى رسول الله (ص) فلما عرض عليهم الرسول الاسلام وبين لهم تشريعاته وقوانينه، اسلم هؤلاء جميعا فى ساعة واحدة، وكان ذلك قبل ذهاب الرسول (ص) الى دار الارقم بن ابى الارقم، ومباشرة الدعوة من هناك. وجاء فى رواية اخرى ان الارقم بن ابى الارقم كان سابع المؤمنين بالرسول (ص)، ولا تنسجم هذه الرواية مع رواية ابن اسحاق، اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار اسلام خديجة، وعلى بن ابى طالب (ع) وزيد، وابى بكر. وان هذه الرواية التي تقول ان الارقم بن ابى الارقم كان سابع رجل فى الاسلام يرويها حفيده، لهذا لا يمكننا اعتباره محايدا وغير منحاز الى جده. [١٤٣].

احداث الرجال وضعفاء الناس

روى محمد بن سعد عن الزهري انه قال: «دعا رسول الله (ص) الى الاسلام سرا وجهرا، فاستجاب لئله من شاء من احدثات الرجال وضعفاء الناس». [١٤٤]. يؤيد هذا المعنى قائمة المؤمنين الاوائل، وكذلك الروايات الاخرى، فقد جاء فى انساب الاشراف: «ان قريشا مشت الى ابى طالب مرة بعد مرة، فكان فى المرة الاخيرة ان اجتمعوا فقالوا: يا ابا طالب، انا قد جئناك مرة بعد اخرى نكلمك فى ابن اخيك ان يكف عنا فلا يذكر آباءنا وآلهتنا بسوء، ولا يستغوى اولادنا واحداثنا وعبيدنا واماءنا». [١٤٥]. واورد ابن سعد فى طبقاته رواية جاء فيها: «فاقام (ص) بالطائف عشرة ايام، لا يدع احدا من اشرافهم الا جاءه وكلمه، فلم يجيبوه وخافوا على احدثهم». [١٤٦]. ونقل البلاذرى فى انساب الاشراف رواية عن الواقدي، جاء فيها: «ان رجلا من هذيل يقال له عمرو، قدم بغنم له فباعها، ورآه النبى (ص) فاخبره بالحق ودعاه اليه، فقال ابو جهل، وكان خفيفا حديد الوجه والنظر به حول، انظر ما دعاك اليه هذا الرجل، فاياك ان تركز الى قوله او تسمع منه شيئا، فانه سفه احلامنا، وزعم ان من مات منا كافرا يدخل النار بعد الموت، وما اعجب ما ياتى به! فقال الهذلى: اما تخرجونه من ارضكم؟ قال ابو جهل: لئن خرج من بين اظهرنا فسمع كلامه وحلاوة لسانه قوم احداث ليتبعنه، ثم لا نامن ان يكر علينا بهم. قال الهذلى: فاين اسرته عنه؟ قال ابو جهل: انما امتنع باسرتة». [١٤٧]. وبنظرة سريعة الى قائمة المسلمين الاوائل يتبين انهم لم يبلغوا حين اسلامهم الثلاثين عاما. لقد اشير الى ان طلحة بن عبيدالله كان عمره حين قتل فى معركة الجمل عام (٥٣٦) قد تجاوز الستين عاما، وهذا يعنى ان عمر طلحة فى السنة الاولى للهجرة كان اقل من ثلاثين عاما، واقل من عشرين عاما حين دخل الاسلام. ومن المسلمين الاوائل الزبير بن العوام، وهو من قريش، وكان عمره حين اسلم ستة عشر عاما. [١٤٨]. ومنهم عبد الرحمن بن عوف من بنى زهرة، وكان عمره حين اسلامه ثلاثين سنة، وطبقا للرواية التي اوردها ابن سعد فى الطبقات ان ولادته كانت بعد عام الفيل بعشر سنوات، [١٤٩] اى عام (٥٧٠م) والا فان عام الفيل نفسه ربما كان بعد هذا العام، كما اشيرنا الى ذلك فى ميلاد الرسول (ص). ومنهم

سعد بن ابي وقاص، وهو من بنى زهرة ايضا، وكان عمره سبعة عشر عاما حين اسلم. [١٥٠]. ومنهم مصعب بن عمير، وهو من بنى عبد الدار، وكان شابا وسيما، ذا لباس فاخر، وكان عمره حين قتل في معركة احد نحو اربعين عاما، مما يفيد انه حين اسلم في مكة كان عمره ثلاثين سنة. ومنهم عثمان بن عفان، من بنى امية، وكان عمره حين قتل (عام ٣٦هـ) (٨٣) عاما، وفي رواية اخرى (٧٥ عاما)، وبناء على هذا فان عمره حين دخل الاسلام اما (٣٤ سنة) او (٣٧ سنة). ومنهم الارقم بن ابي الارقم، من بنى مخزوم، الذي وضع داره في خدمة رسول الله (ص)، كان يوم وفاته سنة (٥٥هـ) بحدود الثمانين من عمره، مما يفيد ان عمره كان حين دخل الاسلام بين ال (٢٠ - ٣٠) سنة. ومنهم شماس بن عثمان المخزومي، الذي قتل في معركة احد عن عمر يناهز ال (٣٤) عاما، وبهذا يكون عمره يوم تشرف بالاسلام بين (٢٠ - ٣٠) سنة. وعند استعراض قائمة المسلمين الاوائل واعمارهم يتضح ان ابا بكر وربما بعده عثمان، كانا اكبر المسلمين سنا، وكان عمر ابي بكر حين دخل الاسلام (٣٨ عاما)، ومن الطبيعي ان يكون الانسان في عمر الاربعين فاكثر اشد ارتباطا بسنن الماضين واكثر تحفظا لها، ويصعب عليه العدول عن دين الاء والاجداد، بخلاف الشباب الذين يتمتعون باذهان وقلوب اكثر استعدادا لاستقبال الافكار والمعتقدات الجديدة، ويصدق هذا المعنى، بصورة وباخرى على جميع الثورات والتحويلات الفكرية والاجتماعية والدينية.

الضعفاء والمستضعفون

يقصد بالضعفاء والمستضعفين في مكة عادة العبيد والمستعبدون، او حتى الاحرار الذين كانت لهم سابقة رقية فهم من المستضعفين ايضا، لانهم ما زالوا يرتبطون بنوع من العلاقة مع اسياهم السابقين، وما زالوا يطلق عليهم الموالى. وهناك طائفة اخرى من الضعفاء ايضا، وهم اولئك الذين انفصلوا عن قبائلهم لاسباب مختلفة والجاتهم الظروف الى مكة، فهؤلاء كانوا يلجأون الى احدى القبائل الموجودة في مكة ويضعون انفسهم في خدمتها مقابل حمايتها لاموالهم وارواحهم من الاعتداء. ورغم تحالف هؤلاء مع اشراف مكة واثريائها الا انهم كانوا لا يعتبرون من المستوى الاجتماعي نفسه، وانما يصنفون ضمن الطبقات الدنيا داخل المجتمع المكي. ومراجعة سريعة لقائمة المسلمين الاوائل تثبت انتماء غالبيةهم الساحقة الى تلك الطبقات المستضعفة، وكانت قريش نفسها قد اطلقت مصطلح المستضعفين على هذه الجماعة من الناس. وقد نقل ابن سعد في طبقاته رواية عن يزيد بن رومان تقول: «كان عمار بن ياسر من المستضعفين الذين يعذبون بمكة... والمستضعفون قوم لا عشائر لهم بمكة، وليست لهم منعة ولا قوة». [١٥١]. وروى البلاذري، [١٥٢] عن عمر، قال: «انما وليت عمار القول لله عز وجل: (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين)» (القصص: ٥).

اكثر المسلمين الاوائل من الفقراء والمستضعفين

روى الطبري عن ابي العالية، في تفسير الاية (٥٢) من سورة الحج ان قريش كانت تعترض على رسول الله بقولها: «انما جلساؤك عبد بنى فلان ومولى بنى فلان..» [١٥٣]. وفي رواية اخرى عنه ايضا: «ان قريش كانت تقول للرسول (ص)، يا محمد، انما يجالسك الفقراء والمساكين وضعفاء الناس». [١٥٤]. ونقل البلاذري صاحب انساب الاشراف، عن عروة بن الزبير، قوله: «كان صهيب من المستضعفين» وروى عن مجاهد قوله: «ان القرشيين تهامسوا مع بعضهم حينما شاهدوا صهيبا يمر مع جماعة من اقاربه قائلين: انظروا الى هؤلاء الاراذل! هؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟». ونحاول هنا استذكار بعض المستضعفين من المسلمين الاوائل الذين صار لهم شان عظيم فيما بعد، وتجدر الاشارة الى ان اكثر هؤلاء الضعفاء او المستضعفين كانوا من الاقنان او من الاحرار الذين سبق لهم الاسترقاق.

اسماء المستضعفين طبقا لما اورده البلاذري

اشاره

اورد البلاذري في انساب الاشراف [١٥٥] قائمة باسماء المستضعفين، وترجم لحياء كل واحد منهم، ويأتي الحديث عن جوانب حياتهم المختلفة ضمن استعراض اصحاب الرسول (ص)، ونحاول هنا الاشارة بصورة اجمالية، الى حياتهم لنقف على اهم الاسباب التي دفعتهم الى اعتناق الاسلام.

عمار بن ياسر

ينتسب عمار بن ياسر الى قبيلة عنس من قبائل العرب الجنوبية، وقد هاجر ابوه ياسر من اليمن الى مكة واقام هناك، ولانه لم يكن ينتمي الى عشيرة في مكة اضطر الى عقد تحالف مع ابي حذيفة بن المغيرة المخزومي لحفظ حقوقه وحقق دمه. وكان حذيفة قد زوجه من احدى جواريه المدعوة (سمية) فانجبت عمارا، فكان يجب على عمار ضمن القوانين المتبعة في الجاهلية ان يكون عبدا لابي حذيفة، لانه ولد من جارية له، وشاء ابو حذيفة ان يحرر عمارا، فصار مولا من موالى مكة. وكانت سمية قد تزوجت بعد ياسر الازرق وهو من الغلمان الروميين، وانجبت منه اولادا كانوا جميعا من المملوكين. كان عمار قد التقى بصهيب في دار الارقم بن الارقم، التي جعل منها الرسول (ص) منطلقا لدعوته المباركة، وفي هذه الدار اعتنق الاثنان الاسلام، ثم دخل الاسلام ايضا كل من ابيه ياسر واخيه عبدالله وامه سمية، فغضب بنو مخزوم لذلك، وشق عليهم ان يروا مواليتهم وقد فارقوا دين القوم وشقوا عصا الطاعة عليهم، فعمدوا الى تعذيبهم والتنكيل بهم، وكان نصيب عمار من هذا العذاب حصه الاسد فقد كانوا يتركونه على الصخرة تحت اشعة الشمس الحارقة، [١٥٦] اما سمية فقد قتلها ابو جهل المخزومي، فاصبحت اول شهيدة في الاسلام. [١٥٧]. وقد بلغت شدة التعذيب حدا لم يطقه عمار، فاضطر الى التفوه بكلمة الكفر تلبية لرغبة معذبيه، واملا في الخلاص من التعذيب، واحس عمار بعد ذلك بتائب الضمير، فذهب الى الرسول (ص)، وهو منكسر يشعر بالذنب، فلما روى القصة لرسول الله (ص) قال: «ماذا كان يجري في قلبك؟» قال عمار: «كان قلبي مطمئن بالايمان». فقال الرسول (ص): «ان عادوا الى تعذيبك فعد الى ما قلت». [١٥٨] واصبح عمار فيما بعد من رجال الاسلام المشهورين، واختاره عمر ليكون واليا على الكوفة اثناء خلافته فترة من الزمن، ودارت عليه الايام في خلافة عثمان فنال قسطا وافرا من الابعاد والتشريد والتنكيل، الى ان استشهد مع علي بن ابي طالب (ع) في معركة صفين.

خباب بن الارت

كان خباب بن الارت قد اعتنق الاسلام قبل ان يتخذ الرسول (ص) من دار الارقم بن الارقم منطلقا لدعوته المباركة، وقد دخل الاسلام مع عثمان بن مظعون، كما مرت الاشارة الى ذلك. [١٥٩] وعده عروة بن الزبير من المستضعفين، وقال: انه كان يتعرض لاذى شديد من قريش فيمحاوله لصدده عن الاسلام، واعادته الى سابق عهده، [١٦٠]. وقيل: انه سادس المسلمين. وخباب من اصل عراقي من منطقة كسكر، [١٦١] وهي منطقة زراعية عامرة تبدا بواسطة وتمتد حتى البصرة، ومركزها في العهد الساساني (خسرو شاپور) ثم بنى الحجاج فيما بعد مدينة واسط وجعلها عاصمة لتلك المنطقة ومركزا لها. وكان ابو خباب قد اسر وبيع في مكة، فدخل في ملك امرأة تدعى ام انمار بنت سباع الخزاعية، وكانت من احلاف بنى زهرة في مكة. وكلمة ارت التي يدعى بها ابو خباب جاءت بسبب لكنة خاصة في لسانه حيث كان لا يحسن النطق بالعربية. فهو اما ان يكون من آرامي العراق او من انباطه. ولعله كان من اصل ايراني سكن منطقة كسكر. وكان ابناؤه يدعون انتساب ابيهم الى قبيلة بنى سعد بن زيد مناة بن تميم لاثبات عربوته الخالصة ودفع الشبهات التي كانت تحوم حول اصلهم، غير ان ذلك لا ينسجم كما هو واضح مع لكنة ابيهم الغير عربية. وقيل: ان الارت تزوج ام سباع، وان خبابا كان اخا سباع من امه وعلى اية حال فان ام انمار قد اطلقت خبابا، فصار واحدا من الموالى الاحرار، وكان يشعر بالمرارة من وضعه

الاجتماعى المتدنى، ويتوق الى من يرفع عنه الضيم الذى كان يعيشه، فلم يتردد فى اعتناق الدين الجديد الذى وعد بالقضاء على هذا النظام الطبقي وازالة آثاره المقيته، لكنه واجه صنوفا من الاذى والتعذيب، قلما واجهها غيره، لافتقاده الى من يحميه ويلوذ به من سطوة قريش، رغم كل هذا لم يتراجع عن ايمانته ولو ظاهريا. [١٦٢]. اشتغل خباب بالحدادة لتأمين معيشته ومتطلبات حياته، وكان له دين على العاص بن وائل السهمي (ابى عمرو بن العاص) فاشترط عليه الاخير العودة عن الاسلام كشرط لتسديد دينه فابى ذلك، وقال: لن اتخلى عن الاسلام حتى يموت العاص فاقاضيه يوم القيامة. فقال العاص: اذن فلينتظر ليقبض دينه فى ذلك اليوم. كان خباب من اصحاب امير المؤمنين على بن ابى طالب (ع) وتوفى فى الكوفة عام (٣٧هـ) عن عمر يناهز ال (٧٣) عاما.

صهيب بن سنان

كانت حال صهيب تشبه حال الارت والد خباب، فهو من اسرى الروم البيزنطيين، وذو كنهة واضحة لا تخفى على العرب، اذ لم يكن يجيد النطق بالعربية. لكنه جعل لنفسه اوجع له ابناؤه نسبا عربيا، اذ ادعوا انتسابه الى قبيلة (نمر بن قاسط) وكان ابوه سنان عاملا على الابل من قبل الملك الايراني «خسرو». وكانت ديارهم فى الموصل الى جانب الفرات من ناحية (الجزيرة) وكان الروم قد وصلوا الى هناك، واخذوا صهيبا اسيرا، وبقي هناك حتى كبر فصار فى عربيته (لكنه) خاصة، وقد اشتراه فيما بعد رجل من بنى كلب وعاد به الى مكة، ثم اشتراه فيها عبدالله بن جدعان التيمي، وهو من اشهر اثرياء مكة، وكان صهيب لا يزال مع آل جدعان حتى بعث الله محمدا (ص) نبيا. لا تخفى آثار الوضع فى هذه القصة، فعبد الله بن جدعان كان قد مات قبل البعثة بعشر سنوات، [١٦٣] بينما توفى صهيب بناء على ما جاء فى الروايات فى سنة (٣٨) هـ عن عمر يناهز السبعين عاما، وبهذا يكون عمره يوم هجرة الرسول (ص) (٣٢) عاما، ويوم بعثته (١٩) عاما. وبعد ان كان عبدالله بن جدعان قد مات قبل البعثة بعشر سنين، فاذا ما جعلنا الفترة بين البعثة والهجرة ثلاثة عشر عاما على اقل تقدير، فسيكون عمر صهيب حين موت عبدالله بن جدعان ستة اعوام، وليس من المعقول ان يكون مثل هذا العمر القصير كافيا لاستيعاب كل تلك الاحداث التى بدأت بنشوئه ونموه بين اهله قومه، ثم اسره من قبل الروم، ثم بقائه هناك حتى نسيانه العربية وظهور كنهة فى لسانه، ثم عودته الى مكة وشراء عبدالله بن جدعان له، واخيرا عتقه وتحريره. فيبدو ان هذه الرواية قد وضعت من قبل ابنائه لايجاد اصل عربى له. وقد وضع ابناؤه حكاية اخرى عن اصله، فقالوا: انه لم يشتريه احد من الروم، بل فر هو من هناك والتجأ الى مكة بعد ان بلغ سن الرشد، وعقد حلفا مع عبدالله بن جدعان هناك. وتبدو هذه الرواية اكثر بعدا عن الواقع من سابقتها اذ ينبغى ان يكون عمر صهيب يوم لجوئه الى مكة نحو ستة عشر عاما على اقل تقدير، فهل انه وقع تحالفا مع ابن جدعان وهو فى هذا السن؟. وهناك رواية ينقلها الحسن البصرى، عن الرسول (ص)، انه قال: «صهيب سابق الروم» اى انه سبق قومه (الروم) الى الاسلام، وتدل هذه الرواية على ان صهيبا كان يونانيا خالصا، وجاءت لكنته فى العربية من اصله هذا، ويوصف صهيب بانه كان احمر البشرة، وهذا يؤيد كونه غير عربى الاصل، كما ان تسميته (صهيبا) جاءت لاحمرار لونه. هذا ويقال ان (عمر) سال صهيبا عن سبب انتسابه الى العرب، فاجابه بانه عربى من قبيلة نمر بن قاسط، لكنه اسر وهو صغير من قبل الروم، ومن الطبيعى ان يسعى صهيب لاحقاق نفسه بالعرب تخلصا من الازدراء الذى قد يلحق به كما اشرفنا سابقا من قبل العرب لعدم عربوته [١٦٤]. اعتنق صهيب الاسلام مع عمار بن ياسر، وكان ذلك بعد اختيار الرسول (ص)، لدار الارقم منطلقا لدعوته، ولانه كان مستضعفا، كما يقول عروة بن الزبير، فقد عانى من قريش الامرين، وترك صهيب خلفه ثروة كبيرة فى مكة، وهاجر مع من هاجر الى المدينة، وكان مما قال له القرشيون حين حاول اخذ امواله معه: لقد جئنا صعلوكا واثريت فى مدينتنا، والان تريد اخذ ثروتك معك؟! لن نسمح لك بهذا ابدا. فاضطر صهيب الى ترك ثروته مفضلا الهجرة مع رسول الله (ص) واصحابه الى المدينة. لقد اوصى عمر قبل وفاته ان يؤم الناس من بعده صهيب، حتى يتم انتخاب الخليفة من بين الستة الذين اختارهم عمر للشورى، ولصهيب منزلة خاصة عند المتصوفة واهل العرفان.

كان بلال قد ولد في سراة من اب حبشى جىء به اسيرا مع سائر الاسرى الحبشيين، ومن ام هى الاخرى اسيرة تدعى حمامة، اما بلال نفسه فكان غلاما لامية بن خلف الجمحى، وقد سارع الى اعتناق الدين الجديد للتخلص مما كان يعانيه من وضع اجتماعى واقتصادى سىء في مكة، بمجرد سماعه خبر ظهور هذه الدعوة، وقد اذاقه مالكة امية بن خلف الجمحى مرارة القهر والاستعباد كاسوء ما تكون، فكان يطرحه على رمال مكة البالغة الحرارة ويضع على صدره الصخور العظيمة. يقول عنه عروة بن الزبير، الذى ذكره ضمن المستضعفين: انه تحمل اذى شديدا من سيده امية الذى صب عليه ذلك العذاب على امل ان يردده عن ايمانه، غير انه لم يرتدع ولم يجامل سيده ولو بكلمة يطلقها لسانه. وجاء في انساب الاشراف: «كان بلال من المستضعفين المؤمنين، وكان يعذب حين اسلم ليرجع عن دينه، فما اعطاهم قط كلمة مما يريدون، وكان الذى يعذبه امية بن خلف الجمحى». [١٦٥]. وروى البلاذرى ايضا عن الحسن البصرى، قال: «قال رسول الله (ص): بلال سابق الحبشة». [١٦٦]. وروى ايضا: «ان بلالا من مولدى بنى جمح، فكان امية يخرج به الى رمضاء مكة اذا حميت، فيلقيه على ظهره، ثم يامر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ويقول له: لا تزال والله كذلك حتى تفارق دين محمد. فيقول بلال: احد احد. ويضع امية فى عنقه جبلا، ويامر الصبيان ان يجروه. فمر ابوبكر يوما وهو يعذب، فقال له: يا امية، اما تتقى الله فى هذا المسكين؟ فقال امية: انت افسدته، فانقذه. وكان بلال تربا لابي بكر، ومن الذين دعاهم ابو بكر الى الاسلام. فقال ابوبكر: عندى غلام اسود اجلد منه واقوى، وهو على دينك فاعطيك اياه ثمنا لبلال، قال: قد قبلت. فاعطاه ذلك الغلام، واخذ بلالا فاعتقه». [١٦٧]. وفى رواية اخرى اوردها البلاذرى فى المصدر نفسه: «ان بلالا لما اسلم اخذه اهله فقمطوه والقوا عليه من البطحاء، وجعلوا يقولون: ربك اللات والعزى، فيقول: احد احد. قال: فاتى عليه ابو بكر فقال: علام تعذبون هذا الانسان؟ فاشتره بسبع اواق واعتقه» [١٦٨] اى (٢٨٠ درهما)، وينسب اخو بلال نفسه الى العرب، وكان ذلك من اجل الخروج من الاحتقار والضعف التى كان عليها بين العرب كما اشرنا الى ذلك عن اشخاص آخرين. روى البلاذرى، عن الواقدي قوله: «لما كان يوم بدر راي امية بن خلف عبد الرحمن بن عوف وكانت بينهما صداقة، فقال له: يا ابا عمرو، وكان اسمه فى الجاهلية. فلم يكلمه، فقال له: يا عبدالله. قال عبد الرحمن: فالتفت فاذا انا بامية وابنه على، وبه كان يكنى، وقد اخذ بيد ابنه، وكان معى ادراع قد استلبتها، وكان مشرفا على الاسر، فساله ان يطلب له الامان، وقال: اما لكم حاجة باللبن؟ (يعنى الفداء) نحن خير لكم من ادراعتك. فقلت: امضيا، واقبلت اسوقهما، فبصر بلال بامية، فقال: يا معشر الانصار، امية بن خلف راس الكفر، لا نجوت ان نجوت. قال عبد الرحمن: فاقتتلوا كانهم عوذ حنت الى اولادها، فاحاطوا بامية حتى صار مثل المسكة... وضربه بلاضربة صرعه [١٦٩]. وكان بلال لا يشعر بالضعف لكونه حبشيا، فقد روى البلاذرى: «انه خطب بلال واخوه الى اهل بيت من البر، فقال: انا بلال وهذا اخى، عبدان من الحبشة، كنا ضالين فهدانا الله، وكنا عبدين فاعتقنا الله، ان تنكحونا فالحمد لله، وان تمنعونا فالله اكبر». [١٧٠]. وروى ابن سعد: «انه كان لرسول الله (ص) ثلاثة مؤذنين: بلال، وابو محذورة، وعمر بن ام مكتوم، فاذا غاب بلال اذن ابو محذورة، واذا غاب ابو محذورة اذن عمرو بن ام مكتوم. ولما دون عمر بن الخطاب الدواوين بالشام، خرج بلال الى الشام فاقام بها مجاهدا، فقال له عمر: «الى من تجعل ديوانك، يا بلال» قال: «مع ابي رويحة لا افارقه ابدا، للاخوة التى كان رسول الله (ص) عقدها بينى وبينه» فضمه اليه، وضم ديوان الحبشة الى خثعم لمكان بلال منهم» [١٧١]. وتوفى بلال فى دمشق عام (٣٠هـ) عن بضع وستين سنة.

عامر بن فهيرة

يعتبر عامر بن فهيرة من المستضعفين ايضا، وكان مملوكا لطيفيل بن عبدالله، وهو اخو عائشة بنت ابي بكر من جهة الام، وقد اسلم بعد دخول الرسول (ص) دار الارقم، وقد لاقى ما لاقاه رفاقه من صنوف الاذى والتعذيب بعد اسلامه، الى ان اشتراه ابو بكر وحرره، فكان من موالى ابي بكر، يرعى له غنمه، وهو الذى كان قد سقى رسول الله (ص) واما بكر لبنا عندما كانا فى الغار، وهما فى طريق الهجرة

الى المدينة، واستشهد في يوم «بئر معونة» في صفر من العام الرابع للهجرة، ولم يعثر على جسده.

ابوفكيهة

وكان غلاما لصفوان بن امية الجمحي حين اسلم، فلقى من سيده امية واخيه ابي اضطهادا وتنكيلا الى الحد الذي ظن انه قد فارق الحياة، غير انه ما لبث ان عاد له وعيه فاشتراه ابوبكر.

النساء المستضعفات

لقد واجهت النساء المستضعفات والجوارى ما واجهه الرجال المستضعفون من اضطهاد وقهر وتعذيب، ومن بين النسوة اللاتي اسلمن ودفعن ثمن اسلامهن الما وعذابا: (لبينة) وهي جارية بنى عدى. و (زنيرة) وهي من جوارى بنى عدى ايضا، وقيل: من جوارى بنى مخزوم. وكان عمر ممن اضطهد (لبينة) قبل اسلامه، وحاول ردها عن الاسلام، بينما قام ابو جهل بتعذيب (زنيرة). ومن النساء المستضعفات ايضا جارية كانت لامراة من بنى عبدالدار اشتراها ابو بكر وحررها.

الذين ارتابوا في دين آبائهم قبل الاسلام

اشاره

من بين المسلمين الاوائل جماعة كانوا قد ارتابوا في دين آبائهم، وابوا عبادة الاصنام التي كان عليها قومهم قبل الاسلام، وقد سارع هؤلاء الى تلبية الدعوة المحمدية، وبادروا الى دخول الاسلام منذ اللحظات الاولى لظهوره حيث وجدوا فيه تلبية لاملهم وعقائدهم.

عبيدالله بن جحش

من بين هؤلاء عبيدالله بن جحش، وهو احد الحنفاء الاربعة، الذين كانوا قد اعتزلوا قريش كما اشرنا الى ذلك فيما سبق ووقفوا جانبا، في يوم احتفلت به قريش، وكان الناس يقدمون الاضاحى والقرايين لاصنامهم، بينما وقف هؤلاء الاربعة ينتقدون هذه المظاهر وينكرون على قومهم بما كان لديهم من احساسات دينية خضوعهم لهذه المعتقدات الزائفة. كان عبيدالله بن جحش، الذي يرجع الى بنى غنم بن داود، حلفاء بنى امية، احد هؤلاء الاحناف. واستمر عبيدالله على تردده وحيرته حتى بعث الله الرسول (ص) فأمن به وصدقه في دعوته، فهاجر مع المسلمين الاوائل الى الحبشة، وكانت زوجته (ام حبيبة) بنت ابي سفيان هي الاخرى قد اعتنقت الاسلام، وفي الحبشة فارق عبيدالله الاسلام، واختار المسيحية، وهاجم رفاقه المسلمين بقوله لهم: «لقد وصلت الى اليقين الذى ما زلتم تبحثون عنه انتم». وقبل ان يعود وافاه الاجل فى الحبشة، فتزوجت زوجته (ام حبيبة) من رسول الله (ص) بعد وفاة زوجها.

عمرو بن عبسة

وهو من قبيلة بنى سليم من قيس بن عيلان، وقد ادعى انه رابع المؤمنين بالاسلام. وقال: انه كان يعتبر قومه فى ضياع وجهل عندما يراهم عاكفين على اصنامهم، ويقول: انه ظل هكذا حتى بعث الله نبيه (ص) بالاسلام، فهاجر الى مكة بحثا عنه، والتقى به فى مكة خفية، فدعاه الرسول (ص) الى الاسلام وسال الرسول (ص) قائلا: «هل لك اتباع؟» فقال له الرسول (ص): «نعم رجلا، احدهما حر هو ابو بكر، والاخر عبد وهو بلال» فمن الرجل. وقال لرسول (ص): «يا رسول الله، امكث معك، ام الحق بقومى؟» قال: «الحق بقومك»، قال: «فيوشك الله تعالى ان يفى بمن نرى ويحيى الاسلام»، قال: «ثم اتيته قبل فتح مكة فسلمت عليه»، قال: «وقلت: يا رسول

اللّه، انا عمرو بن عبسة، احب ان اسالك عما تعلم واجهل، وينفعني ولا- يضرک؟» فسأله [١٧٢] عن حكم اوقات الصلاة وكيفية الوضوء. ما يدعو الى التأمل في هذه الرواية ان ذلك كله كان بادعائه هو، سيما ادعاؤه بانه كان رافضا لدين الجاهلية وكان رابع رجل في الاسلام اى بعد الرسول وابى بكر وبلال. ومما لا شك فيه ان السبق الى الاسلام كان من المفخر الكبيرة، وكان من اليسير لعمرو بن عبسة ان يدعى مثل ذلك، لانه لم يكن مقيما في مكة، وعزا خروجه منها الى نصيحة من الرسول (ص)، وبناء على ذلك فمن الطبيعي جدا ان يثير المقطع الاول من الرواية التي اوردها ابن سعد في طبقاته الشك في النفس بخلاف المقطع التالي فيها الذي يستفسر فيه عن اوقات الصلاة والوضوء، فان احتمال الصدق فيه قوى كما تؤيده روايات اخرى.

ابوذر الغفاري

يعتبر ابوذر من الشخصيات الاسلامية اللامعة في جهادها واخلاقها، وقد امتدح الرسول (ص) صراحته وصدقه، وتواتر عنه (ص) بانه قال فيه: «ما اظلت الخضراء، ولا اقلت الغبراء ذالجهة اصدق من ابى ذر». اسمه جندب بن جنادة، وهو من قبيلة غفار، من قبائل مضر، قال عنه ابن حزم: [١٧٣] «انه كان خامس رجل في الاسلام». وقيل انه من الموحدين الذين آمنوا باللّه واعرضوا عن عبادة الاصنام قبل لقائهم برسول اللّه (ص). وقد نقلت عن ابى ذر في ايام شبابه وفي كيفية دخوله الاسلام قصة مثيرة، تظهر فيها آثار الصدق والصراحة، وهى اهم خصلة عرف بها ابو ذر (رض) وأشار اليها الرسول (ص) في وصفه له. وقد جاءت الرواية بأسلوب والفاظ يتجلى فيها قدم الاسلوب واصالته. وقد رواها ابن سعد [١٧٤] في الطبقات عن عبدالله بن الصامت الغفاري، ونقلت ثلاث قصص اخرى في هذا الباب وفي المصدر نفسه، فيها تفاوت في بعض الامور مع رواية ابن الصامت، غير اننا نرجح رواية ابن الصامت لقوة الاسلوب ودقة البيان واصالة التركيب اللغوي، وتؤيد الروايتان الاخرتان تلك الرواية في خطوطها العريضة. قال: «اخبرنا هاشم بن القاسم الكنانى ابوالنضر، قال: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد ابن هلال، عن عبدالله بن الصامت الغفاري، عن ابى ذر، قال: خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يحلون الشهر الحرام، فخرجت انا واخى انيس وامنا، فانطلقنا حتى نزلنا على خال لنا، فاکرنا خالنا واحسن الينا، فحسدنا قومنا، فقالوا له: انك اذا خرجت عن اهلك خالف اليهم انيس. فجاء خالنا فثنا علينا ما قيل له، فقلت: اما ما مضى من معروف فقد كدرت، ولا جماع لك فيما بعد. فقرنا صرمتنا، [١٧٥] فاحتملنا عليها، وتغطي خالنا بثوبه وجعل يبكي. فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة، فانفر انيس عن صرمتنا وعن مثلها، فاتيا الكاهن فخبّر انيسا بما هو عليه، فاتانا بصرمتنا ومثلها معها. وقد صليت بابين اخى قبل ان القى رسول اللّه (ص)، ثلاث سنين، فقال عبدالله بن الصامت: لمن؟ قال: لله. فقال عبدالله بن الصامت: اين تتوجه؟ قال: اتوجه حيث يوجهني اللّه، اصلى عشاء حتى اذا كان آخر السحر القيت كاني خفاء [١٧٦] حتى تلعوني الشمس. فقال انيس: ان لى حاجة بمكة، فاكفنى حتى آتيك. فانطلق انيس فراث على يعنى ابطا على ثم جاء، فقلت: ما حبسك؟ قال: لقيت رجلا بمكة على دينك، يزعم ان اللّه ارسله. قلت: فما يقول الناس له؟ قال: يقولون شاعر، كاهن ساحر، وكان انيس احد الشعراء، فقال: واللّه لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على اقراء الشعر فلا يلتئم على لسان احد، بعيد انه شعر، واللّه انه لصادق وانهم لكاذبون! فقلت: اكفنى حتى اذهب فانظر. قال: نعم، وكن من اهل مكة على حذر فانهم قد شنعوا به وتجهموا له. فانطلقت فقدمت مكة، فاستضعفت رجلا منهم، فقلت: اين هذا الذى تدعون الصابى؟ فإشار الى، فقال: هذا الصابى. فمال على اهل الوادى بكل مدرّة وعظم، فخررت مغشيا على، فارتفعت حين ارتفعت كاني نصب احمر، فاتيت زمزم فشربت من مائها وغسلت عنى الدماء فلبثت بها يابن اخى من بين ليلة ويوم، مالى طعام الا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسرت عكبتنى، وما وجدت على كبدى سخفة جوع. [١٧٧]. فبينما اهل مكة فى ليلة قمرء اضحيان، اذ ضرب اللّه على اصمختهم، فما يطوف فى البيت احد منهم غير امراتين، فاتيتا على وهما تدعوان اسافا ونائلة، فقلت: انكما احدهما الاخر، فما ثناهما ذاك عن قولهما. قال: فاتيتا على، فقلت: هنا مثل الخشبة غير انى لم اكن، فانطلقنا تولولان وتقولان: لو كان هاهنا احد من انفارنا. فاستقبلهما رسول اللّه (ص)، وابو بكر، وهما هابطان من الجبل، فقال: مالكما؟ قالتا: الصابى بين الكعبة واستارها قال:

فما قال لكما؟ قالتا: قال لنا كلمة تملأ الفم. فجاء رسول الله (ص)، وصاحبه فاستلما الحجر، وطافا بالبيت، ثم صلى فاتيته حين انتهى من صلاته، فكنت اول من حياه بتحية الاسلام، فقال: وعليك رحمة الله، ممن انت؟ قلت: من غفار، فاهوى بيده الى جبهته هكذا، قلت في نفسي: كره انى انتميت الى غفار. فذهبت آخذ بيده فقد عنى صاحبه، وكان اعلم به منى، فقال: متى كنت هاهنا؟ قلت: كنت هاهنا منذ ثلاثين من بين ليلة ويوم، قال: فمن كان يطعمك؟ قلت: ما كان لى طعام الا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطنى، فما وجدت على كبدى سخفة جوع. فقال رسول الله (ص): انها مباركة، انها طعام طعم. قال ابو بكر: يا رسول الله، ائذن لى فى طعامه الليلة، ففعل، فانطلق النبى (ص)، وابو بكر وانطلقت معهما، ففتح ابو بكر بابا، فجعل يقبض لنا من زيب الطائف. فذاك اول طعام اكلته بها، فغيرت ما غيرت، فلقيت رسول الله (ص)، فقال: انه قد وجهت الى ارض ذات نخل، ولا احسبها الا يثرب، فهل انت مبلغ عنى قومك، عسى الله ان ينفعمهم بك، ويحرك فيهم؟. فانطلقت حتى لقيت اخى انيسا، فقال: ما صنعت؟ قلت: صنعت، انى قد اسلمت وصدقت. قال انيس: ما بى رغبة عن دينك، فانى قد اسلمت وصدقت. فاتينا قوما، فاسلم نصفهم قبل ان يقدم رسول الله (ص) المدينة، وكان يؤمهم ايماء بن رخصنة وكان سيدهم، وقال بقيتهم: اذا قدم رسول الله (ص) المدينة اسلمنا. فقدم رسول الله (ص) فاسلم بقيتهم، وجاءت أسلم فقالوا: يا رسول الله نسلم على الذى اسلم اخوتنا. فاسلموا، فقال رسول الله (ص): غفار غفر الله لها، واسلم سالمها الله». [١٧٨]. كان ابو ذر قنوعا فى حياته ومعيشته، ينفق كل ما زاد عنه على الفقراء، وقد عاش حياة الخشونة والجشوبة فى عصر النبى وابى بكر وعمر، فتصدى لمظاهر البذخ الذى شاهده ايام عثمان فى المدينة، ومعابرة بن ابى سفيان فى دمشق، واخذ يعترض على ذلك، فقام عثمان باخراجه من المدينة ونفيه الى الربذة كى يستريح من اعتراضاته، وبقي ابوذر هناك حتى الوفاة. وقد بالغ بعض المؤرخين فيما بعد، حتى وصفوا ابازر بانه كان اشتراكيا يدعو الى توزيع الثروات وغير ذلك مما لا طائل له ولا يتناسب مع ظروف عصره وحياته وثقافته الدينية.

عثمان بن مظعون

ينتسب عثمان بن مظعون الى قبيلة قريش، من بنى جمح، وهو من المسلمين الاوائل، حيث اسلم قبل ان يتخذ الرسول (ص) دار الارقم بن ابى الارقم مقرا لدعوته، وبناء على احدى الروايات فان عثمان بن مظعون كان قد آمن مع جماعة هم عبد الرحمن بن عوف، وعبيدة بن الحارث، وابوعبيدة بن الجراح، وابو سلمة بن عبد الاسد. وكان عثمان بن مظعون من اولئك الذين اختلجت فى انفسهم مشاعر دينية خاصة ومالوا نحو الزهد والرياضات الروحية ومجاهدة النفس اكثر من ميلهم الى توحيد الله وترك عبادة الاصنام. لقد حرم ابن مظعون الخمر على نفسه قبل الاسلام، وكان يقول: «اننى لا استطيع شرب شىء يغلب على عقلى، ويضحك الاخرين على، ويجعلنى ازوج ابنتى لمن لا ارتضى»، وتظهر الفقرة الاخيرة من كلمة عثمان ان بعض اولياء البنات كانوا يزوجون بناتهم لاشخاص لا يرتضوهم لو لم يكونوا فى حالة السكر. ونتيجة ميله للرياضات الروحية حاول ان يخصى نفسه ليتخلص من شر الشهوات الغريزية، فنهاه الرسول (ص) عن ذلك، وكان احيانا يعتزل زوجته فلا يقترب منها، فلما شكت حالها الى النساء، وسمع الرسول (ص) بذلك نهاه عن مثل ذلك العمل، ونبهه الى ان لزوجه عليه حقا، ولجسمه عليه حقا، ولعينه عليه حقا، وكثيرا ما كان يتخذ لنفسه بيتا خاصا للعبادة، فنهاه الرسول (ص) مرتين او ثلاث عن ذلك، وقال: «لا- رهبانية فى الاسلام». وكان ابن مظعون من البدرين، وتوفى بعد سنتين ونصف من الهجرة.

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل

وهو من بنى عدى، وكان زيد احد الحنفاء الاربعة الذين اعرضوا عن عبادة الاصنام، وهو من معاصرى الرسول (ص). وقد قال (ص) فى حقه: انه يبعث يوم القيامة امة وحده، ومعنى هذا الحديث كما اعتقد ان زيدا كان منفردا فى دينه، وسيحشر يوم القيامة فى دين

خاص به وحده، حيث ابتعد زيد عن عبادة الاصنام، وامتنع عن تناول لحوم القرابين التي كانت تذبح وتقدم للاوثان، وكان يستهجن وءد البنات ويستنكره، ويقول لمن يريد وءد ابنته: اتركها ودع نفقاتها على، انا ادفعها. وقد اعجب الرسول (ص) بهذه الخصال، ولهذا وصفه بان له دينه الخاص وانه سيحضر يوم القيامة وحده. وكان ابنه سعيد قد دخل الاسلام قبل ان يستقر الرسول (ص) في دار الارقم بن ابي الارقم. [١٧٩]. وتوحى احدى الروايات بانه كان متأثرا بوالده، ولهذا سارع الى الايمان بالدعوة الاسلامية بمجرد انتشار خبرها، فهو من الذين كان لهم اهتمامهم الخاص بالدين منذ الجاهلية، وقبل بعثه الرسول (ص).

اشهر اعداء الرسول في مكة

اشاره

بعد ان انتهينا من الحديث عن المسلمين الاوائل في مكة، وستحدث عما بقى منهم في الوقت المناسب، نجد من المناسب جدا ان نعطف الكلام نحو اعداء الرسول (ص) واشهر المعاندين له، ونسلط الضوء على طبيعة حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولو بصورة مختصرة، فقد يساعدنا ذلك على اكتشاف الاسباب الكامنة وراء عدائهم ومحاربتهم للاسلام ونبه (ص).

ابوجهل

وقد اطلق عليه هذا اللقب بسبب عدائه المستمر، والحاحه الشديد بالخصومة لرسول الله (ص)، والذي اطلقه عليه هو الرسول (ص) نفسه في مقابل كنيته الاصلية (ابي الحكم)، وهو من بنى مخزوم، الذين كانت لهم في قريش سطوة وقوة في العصر الذي ظهر فيه الرسول (ص). وقد وقعت خصومات عديدة في الجاهلية بين بنى مخزوم وبنو قريش الاخرى، كان حكم الكهنة فيها لصالح بنى مخزوم دوما، ويمكننا ان نستنتج ان بنى مخزوم كانوا اكثر طوائف قريش ثراء عند ظهور الدعوة الاسلامية او قبلها بقليل، وذلك لان اكثر تلك المنازعات كانت تنشأ حول الشرف والمجد والمفاخر العائلية التي كان ميزانها ومقياسها بالدرجة الاولى الثروة وكثرة المال، كانت احدى هذه المنازعات ماحدث بين رجل من بنى مخزوم هو عائد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم والحارث بن اسد بن عبد العزى، حيث روى في المنمق [١٨٠] ان عائد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم تنازع مع الحارث بن اسد في ايهما اكثر شرفا ومجدا، فجعل بينهما كاهنا كان يقوم بعسفان، وجعل للنفوس خمسين من الابل، وجعل الابل على يد المغيرة بن عبدالله بن مخزوم، ثم شخصوا اليه، فلما كانوا قريبا منه وجد رجل من بنى اسد بيضاء نعام، فقال: «ما راىكم ان نخبى له هذه البيضة؟ فان اصابها علمنا انه مصيب فيكما». ثم اتوه فقالوا: «اخبرنا في اى شىء جئنا»، فقال: «حلفت برب السماء ومرسل الغماء فينبعن بالماء! ان جئتموني الا لطلب السناء»، فقالوا: «صدقت..» فانتسبنا له، وقالوا: «احكم بيننا اينا اولى بالمجد والشرف»، قال: «حلفت باظب عفر، بلماعة قفر، يرون بين سلم وسدر، ان سناء المجد ثم الفخر لفي عائد الى آخر الدهر». وحدثت منافرة اخرى بين بنى مخزوم وبنى امية، حيث جاء في المنمق: انه قد اجتمع عند الحجر قوم من بنى مخزوم وقوم من بنى امية، فتذاكروا العز والمنعة، فقال رجل من بنى كنانة، كان حليفا لبنى مخزوم: بنو مخزوم اعز وامنع، فجرى بينهما الكلام حتى غضب الوليد بن المغيرة المخزومى واسيد بن ابي العيص وتفاخرا، فجرى بينهما اللجاج، فقال الوليد: انا خير منك اما ابا، واثبت منك في قريش نسبا. فقال اسيد: انا خير منك منصبا، واثبت منك في قريش نسبا، وانت رجل من كنانة من بنى اشجع، دخيل في قريش، نزيح في بنى مخزوم، وانا غرة بنى عبد مناف، وذؤابة قصى، فتعال افاخرك، فتداعيا الى المنافسة، وكذلك كانت العرب تفعل، وقالوا: يحكم بيننا سطيح، فتراضيا به، وجعل بينهما خمسين من الابل للمنفرد على صاحبه، قال: فخرجا نحوه، وخرج معهما نفر من قومهما.. الى ان قالوا: احكم بين الوليد بن المغيرة وبين اسيد بن ابي العيص، فقال: بالنجود احلف وبالتهائم، ثم ببسب الله ذى الدعائم، وكل من حج على شداقم، انى بما جئتم به لعالم، ان ابن مخزوم اخو المكارم، فارجع يا

اسيد بانف راغم، ثم اقبل عليهما فقال: اما انت يا وليد، فمثلك مثل جبل مؤزر، فيه الماء والشجر، وفيه للناس معتصر، ومنعة الحى والوزر، للخير سباق وللشر حذر، واما انت يا اسيد فمثلك مثل جبل وعر، فيه للمقتبس جمر، لا ورد ولا صدر، الخير عندك نزر، والشر عندك امر، ففلج الوليد وظفر، وخاباسيد وخسر». [١٨١]. اما المنافرة بين بنى قصى وبنى مخزوم، فهى كما رواها صاحب المنمق، [١٨٢] قال: «جعل نفر من قريش مجلسا، فقال ابوربيعة بن المغيرة وابنه المغيرة وبنو المغيرة: ومنا سويد بن هرمى من بنى عامر بن عبيد بن عمر بن مخزوم، فقال اسيد بن ابى العيص بن امية: اليك، انما بنو قصى اشرف، انما شرف عبدالله بن عمر لان امه بره بنت قصى، فيها نال ما نال، ثم عدد رجال قصى، ثم قال: فينا السقاية والحجابه والندوة والرفادة واللواء، فتداعوا الى المنافرة، فقال اسيد: ان نفرتك اخرجتك من مالك، وان نفرتى اخرجتنى من مالى، فتراضيا بكاهن من خزاعة، فقال ابن ابى همهمة، وامه تماضر بنت ابى عمرو بن عبد مناف: مهلا يا ابا ربيعة! فابى، وخرجوا وساقوا ابلا ينحرها المنفر، فوجدوا فى طريقهم حمامة او يمامة، فدفعوها الى اسامة عبد ابى همهمة، فجعلها فى ريش ظليم، فلما اتوا الكاهن قالوا: ما خبانا لك؟ فقال: اما غمامة تتبعها غمامة، فبرقت بارض تهامة، فطفا من وبلها كل طلح وتمامة، لقد خباتم لى فرخ حمامة، او اختها يمامة، فى زف نعامه، مع غلامكم اسامة، قالوا: احكم. فقال: اما ورب الواطدات الشم، والجرول السوديهن الصم، وما جرت جارية فى يم، ان اسيدا لهو الخضم، لا تنكروا الفضل له فى العم. اما ورب السماء والارض والماء، وما لاح لنا من حراء، لقد سبق اسيد ابا ربيعة بغير مراء. قالوا: اقصى افضل ام مخزوم؟ قال: اما ورب العاديات الصبح، ما يعدل الحر بعبد نضح، بمن احل قومه بالابطح». فحز اسيد الجزر ورجع، فاخذ مال ابى ربيعة، وكانت اخت اسيد عند ابى جهل، فكلمت اخاها حتى رد على ابى ربيعة ماله. وكان فى بنى مخزوم اولاد المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم اكثر ابناء القبيلة قوة ومنعة. [١٨٣] وكان ابو جهل، واسمه هشام بن المغيرة واخوه الحارث بن المغيرة، من اقطاب هذه العائلة. وكانت ام ابى جهل والحارث اسماء بنت مخربة، وقد اسلم الحارث واسماء فيما بعد، وبقيت اسماء على قيد الحياة حتى خلافة عمر بن الخطاب، حيث كانت تبيع الطيب. وكان كل من ابى جهل والحارث من اسخياء العرب، حيث نقل صاحب المحبر [١٨٤] قصصا عن جودهما، وفى روايته عن ابى ذر رحمه الله، قال: «قدمت مكة معتمرا، فقلت: اما من مضيف؟ قالوا: بلى، كثيرا واقربهم منزلا الحارث بن هشام. قال: فاتيت بابه، فقلت: اما من قرى؟ [١٨٥] فقالت لى الجارية: بلى، فاخرجت الى زيبا فى يدها. فقلت: ولم لم تجعليه فى طبق؟ فعلمت انى ضيف. فقالت: ادخل، فدخلت فاذا انا بالحارث على كرسى، وبين يديه جفان فيها خبز ولحم، وانطاع عليها زيب. فقال: اصب، فاكلت. ثم قال: هذا لك. فاقمت ثلاثا، ثم رجعت الى المدينة، فاخبرت النبى (ص) خبره. فقال: انه لسرى ابن سرى، وددت انه اسلم!». واخبر الكلبي فى اسناده عن رجلين من بنى سليم اخوين، قالوا: «دخلنا مكة معتمرين فى سنة، فما وجدنا فيها شراء ولا قرى، فبينا نحن كذلك اذ راينا قوما يمضون، فقلنا: اين يريد هؤلاء القوم؟ فقيل لنا: يريدون الطعام، فمضينا فى حملتهم حتى اتينا دارا، فولجناها، فاذا رجل آدم احول على سرير، وعليه حلة سوداء، واذا جفان مملوءة خبزا ولحما، فقعدنا فاكلنا، فشبعت قبل اخى، فقلت له: كم تاكل، اما شبعت؟ فقال الجالس على السرير: كل، فانما جعل الطعام ليؤكل. فلما فرغنا خرجنا من باب آخر للدار غير الذى دخلنا منه، فاذا نحن بابل موقوفة. فقلنا: ما هذه الابل؟ قيل: للطعام الذى رايتم. فسالنا عن الرجل صاحب الطعام، فاذا هو ابو جهل بن هشام». ونظرا للموقع الذى كان يشغله ابو جهل والمنزلة التى كان يحتلها فى قومه، وبسبب المقام الذى كان عليه بنو مخزوم فى مكة، فقد تسنم ابو جهل مقاما هو اعلى مقام فى قريش، فضلا عن انه اكثر ابناء قومه قوة ايام الجاهلية، ولهذا كانت بعثة النبى (ص) ودعوته الناس الى الاسلام، قد ازعجته واثارت غيظه وغضبه خشية على مقامه وقوته، وان يذهب ربح بنى مخزوم وعزهم، وينهار الوضع الاجتماعى والسياسى الذى بنوه، لهذا كله وقف ابو جهل بكل ما اوتى من قوة بوجه النبى (ص) وسعى جهده لمحاربة الرسول (ص) وباقى المسلمين ومواجهتهم، لقد حشد ابو جهل لمعركة بدر كل قواه، رغم نجاة القافلة التجارية، وعدم حماس قريش لمحاربة رسول الله (ص)، حتى ذهب ضحية عناده ولجاجته وخصومته للاسلام. وتكشف القصة المروية فى سيرة ابن اسحاق وسيرة ابن هشام، [١٨٦] عن طبيعة معارضة ابى جهل، فقد كانت ذات طابع سياسى غالبا، وفى جوابه للاخنس بن شريف الثقفى، قال: «تنازعنا نحن وبنو عبد

مناف الشرف، اطعموا فاطمنا، وحملوا فحملنا، واعطوا فاعطينا، حتى اذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبي ياتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به ابدا ولا نصدقها». لقد اخذ ابو جهل المسلمين المستضعفين، الذين لا ناصر لهم ولا ملجأ، بالشدة والقسوة، فقد قتل سمية ام عمار بيده، وكان اذا سمع بالرجل قد اسلم وله شرف ومنعه انبه واخزاه، وقال: «تركت دين ابيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنفيين رايبك، ولنضعن شرفك»، وان كان تاجرا قال: «والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك». [١٨٧].

الوليد بن المغيرة

هو الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر المخزومي، من اثرياء بنى مخزوم الكبار، وكان له من الثروة والمقام ما يعدل ثروة قريش ومكائنها مجتمعة، حتى اشتهر ب (العدل). فكان يتناوب مع قريش على اكساء الكعبة، فمرة تكسوها هي مجتمعة، واخرى يكسوها هو وحده. [١٨٨]. وقد اشارت الايات (١١-١٥) من سورة المدثر اليه، بقولها: (ذرنى ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع ان ازيد) يقول المفسرون فى معنى قوله تعالى: (ذرنى ومن خلقت وحيدا) اى دعنى ومن خلقته وحيدا فى رحم امه، ليس له مال ولا بنون. لكن [١٨٩] مثل هذا التفسير ليس من خصائص الوليد بن المغيرة، فكل الناس يولدون كذلك، لذا فنحن نعتقد ان كلمة (وحيدا) اشارة الى المعنى الذى ذكر سابقا من انه كان يعدل قريشا باكملها، فهو وحيد متفرد من حيث المال والجاه، يقول جل شاناه: (وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع ان ازيد). وكان الوليد بن المغيرة، هو الذى اتهم الرسول (ص) بالسحر، وهو الذى جمع قريش فى دار الندوة قبيل موسم الحج للتداول فى امر رسول الله (ص)، وقال لهم: «يا معشر قريش، انه قد حضر هذا الموسم، وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بامر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رايًا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا». فقالوا: «فانت يا ابا عبد شمس، فقل لنا رايًا نقول به». قال: «بل انتم، قولوا اسمع». قالوا: «نقول كاهن». قال: «لا والله ما هو بكاهن، لقد رايانا الكهان، فما هو بمزمة الكاهن، ولا سجع». قالوا: «نقول مجنون». قال: «ما هو بمجنون، لقد رايانا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته». قالوا: «نقول شاعر». قال: «ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر». قالوا: «نقول ساحر». قال: «ما هو بساحر، لقد رايانا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم». قالوا: «فما تقول انت يا ابا عبد شمس؟» قال: «والله ان لقوله لحلاوة، وان اصله لغدق، وان فرعه لجننا، وما انتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف انه باطل، وان اقرب القول فيه لان تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق بين المرء واخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته». فنفروا عنه بذلك، فجعلا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم احد الا حذروه اياه، وذكروا له امره، فانزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة: (ذرنى ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع ان ازيد، كلا انه كان لاياتنا عنيدا، سارقه صعودا، انه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم ادبر واستكبر، فقال ان هذا الا سحر يؤثر، ان هذا الا قول البشر) «المدثر: ١١-٢٥». لقد بنى الوليد بن المغيرة عداوته لرسول الله (ص) على اساس سياسى، فكان يرفض ان يخضع مع قبيلته لسلطة رجل من بنى هاشم، وهو قد عد من الزنادقة المانويين، ويمكن ان يكون هذا من العوامل التى دفعته لاتخاذ موقف معاد من رسول الله (ص) ورسالته. [١٩٠]. قال الوليد لابي اميمة سعيد بن العاص بن امية، وكان نديمه: «لولا انزل هذا القرآن الذى اتى به محمد على رجل عظيم من مكة او الطائف، مثل: امية بن خلف الجمحي»، فقال له نديمه وقد فهم قصده: «او على رجل مثلك، او على رجل من زعماء ثقيف، امثال: مسعود بن عمرو، وكنانة بن عبد يا ليل، او مسعود بن معتب، وابنه عروة»، فنزلت الايتان (٣١ و ٣٢) من سورة الزخرف: (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، اهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون) ويقصد بالقريتين مكة والطائف، كما ان المقصود بالرجل

العظيم، الذي من مكة، الوليد بن المغيرة، والآخر من زعماء الطائف، وقد اختلف المفسرون في تعيين الرجل العظيم الذي من مكة، [١٩١] والظاهر ان المراد هو، الوليد بن المغيرة، بدليل الايتين (٢٩، ٣٠) من السورة عينها: (بل تمتعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين، ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون). وقد اشرنا سابقا الى ان الوليد بن المغيرة وبني مخزوم الاثرياء هم الذين اشاعوا ان القرآن سحر ساحر، بعد جولة من التداول والتفكير في امر الرسول (ص). ثم ان الوليد بن المغيرة كان احد اشرف قريش الذين اجتمعوا ليكلموا الرسول (ص)، ومنهم الاسود بن مطلب الاسدي، والعاص بن وائل السهمي، وامية بن خلف الجمحي، حيث قالوا له (ص): «نحن نعبد ما تعبد، وانت تعبد ما نعبد، فان كان الذي تعبد حقا كنا قد انتفعنا، وان كان الذي نعبد حقا كنت قد انتفعت»، فنزلت سورة (قل يا ايها الكافرون) جوابا على ذلك الاقتراح. كان الوليد بن المغيرة من الذين استهزأوا برسول الله (ص) والمسلمين، وقد هلك بعد هجرة المسلمين الى المدينة بثلاثة اشهر عن عمر يناهز الخامسة والتسعين.

ابو احيحة سعيد بن العاص بن امية

كان بنو امية من البطون ذات النفوذ والثراء الواسع في قريش، وقد انتقلت اليهم رئاسة بني قصى بعد وفاة ابي طالب، فوصلت الى حرب بن امية، بعبارة اخرى انتقلت زعامة بني عبد مناف الى بني امية، وبعد هلاك حرب بن امية انتخبت كل عائلة من عوائل بني مناف زعيما لها، الى ان وصلت زعامة بني امية الى ابي احيحة سعيد بن العاص صاحب الثروة العظيمة، وقد نال من احترام اهل مكة وتعظيمهم له ان حرموا على انفسهم مشابته في العمامة، اذ لا يجزؤ احدهم على ان يلبس عمامة تشبه في لونها عمامة ابي احيحة، فسموه ذا العمامة، وذات التاج. [١٩٢]. لم يظهر سعيد بن العاص معارضة صريحة للاسلام في البداية، وكان يقول: «دعوا محمدا ولا تعرضوا له، فان كان ما يقول حقا، كان فينا دون غيرنا من قريش، وان كان كاذبا قامت قريش به دونكم»، فكان النبي (ص) يمر به، فيقول: «انه ليكلم من السماء». حتى اتاه النضر بن الحارث العبدري، فقال له: «انه بلغني انك تحسن القول في محمدا! وكيف ذلك وهو يسب الالهة، ويزعم ان آباءنا في النار، ويتوعد من لم يتبعه بالعذاب؟ فاطهر ابو احيحة عداوة لرسول الله (ص) وذمه وعيب ما جاء به، وجعل يقول: «ما سمعنا بمثل ما جاء به، لا في يهودية ولا نصرانية». [١٩٣]. ويتضح مما سبق ان سعيد بن العاص لم يكن مدفوعا بدوافع سياسية في خصومته مع رسول الله (ص)، اذ لم يظهر عداؤه له (ص) في بداية الامر، غير انه بدا يتطرف وينحى منحى اشد في خصومته مع النبي (ص) حينما علم انه يعيب آلهتهم وينعت آباءهم بالكفر ويقول: انهم في النار. وقد اشرت فيما سبق الى ان التفاخ بالآباء والاجداد كان سنة من سنن العرب، ومرتكزا من المرتكزات الاساسية التي تقوم عليها القبيلة وتحفظ لها وجودها وشخصيتها في النظام القبلي العربي، ولعل قوله تعالى: (فاذكروا الله كذكركم آباءكم) «البقرة: ٢٠٠» يفسر هذا المفهوم، فلقد كان هناك نوع من العبادة للآباء والاجداد بين العرب، لهذا استفزوا كثيرا حينما عابهم الرسول (ص). وقد اسلم ابن سعيد بن العاص وهو خالد بن سعيد بن العاص على اثر رؤيا رآها في المنام، وكان اسلامه في بداية الدعوة الاسلامية، لهذا عد من اوائل المسلمين، وقد غضب سعيد لاسلام ولده كثيرا، فنهاه ثم عنفه وعذبه، وحينما يئس منه طرده وابعده عنه. لم يعد موقف سعيد بن العاص كما كان في السابق، فقد اتخذ عداؤه للاسلام طابعا سياسيا بعد اسلام ولده، ولم يعد مقتصر على الدوافع الدينية، حتى انه قال حين خرج ابنه الى الحبشة في الهجرة الثانية: «لاعتزلن في مالي، لا اسمع شتم آبائي، ولا عيب آلهتي، فهو احب الى من المقام مع هؤلاء الصباه». فاعتزل في ماله بالطريقة نحو الطائف. [١٩٤].

الحكم بن ابي العاص بن امية وعقبه بن ابي معيط

كان هذان الرجلان وهما من بني امية، من اشد اعداء الرسول (ص)، وكان الحكم بن ابي العاص ابو مروان، وجد الفرع المرواني من خلفاء بني امية مؤذيا لرسول الله (ص) يشتمه ويسمعه، وكان رسول الله (ص) يمشى ذات يوم، وهو خلفه يخلج بانفه وفمه، وبقي

على ذلك. وقد اظهر الاسلام يوم فتح مكة، وكان مغموصا عليه في دينه، فاطلع يوما على رسول الله (ص) وهو في بعض حجر نسائه، فخرج اليه بعززة، وقال: «من عذيري من هذه الوزعة؟ لو ادركته لفقات عينيه» ولعنه وما ولد، وغربه من المدينة، فلم يزل خارجا منها الى ان استخلف عثمان بن عفان فرده وولده [١٩٥]. وكان عقبه بن ابي المعيط بن ابي عمرو بن امية من اشد اعداء الرسول (ص)، وكان يضع العذرة في زنبيل ثم يرميها على باب الرسول (ص)، وقد اسر يوم بدر، وكان الذي اسره عبدالله بن سلمة العجلاني، من بلي، وعداده من الانصار، جمح به فرسه فاخذه، فامر رسول الله (ص) عاصم بن ثابت بن ابي الاقح الاوسي من الانصار بضرب عنقه، فجعل عقبه يقول: «يا ويلتي، علام اقتل يا معشر قريش؟ اقتل من بين هؤلاء؟» وكان الاسرى يطلق سراحمهم بفيديء يدفعونها، فقال رسول الله (ص): «نعم، انه وطىء على عنقي وانا ساجد فما رفع حتى ظننت ان عيني قد سقطتا، وجاء يوما وانا ساجد بسلى شاء فالقاه على راسي». فقال عقبه: «من للصبيء؟ فقال رسول الله (ص): «النار» [١٩٦]. كان السب وراء عداء عقبه بن ابي المعيط لرسول الله (ص) عاطفيا ناشئا عن الجهل وعدم المعرفة، وربما كانت هناك بعض الاسباب الدينية، لان عقبه بن ابي المعيط كان زنديقا من (المانويين) كما قيل. [١٩٧]. كان لعقبه علاقة صداقة حميمة مع ابي بن خلف بن وهب الجمحي المعروف بعدائه الشديد للرسول (ص)، وكان ابي بن خلف الجمحي قد هدد عقبه بقطع العلاقة معه اذا ما جالس النبي (ص) بعدما سمع انه كان قد ذهب اليه واستمع الى حديثه، بل كان ابي بن خلف الجمحي يحرض صديقه على ان يتعرض لرسول الله (ص) بالاساءة والاهانة، وقد فعل عقبه بن ابي المعيط ذلك حرصا منه على تلك العلاقة. وهكذا كانت خصومة هذا الرجل مع الرسول خصومة عاطفية، ولم يكن عقبه يتمتع بمنزلة مرموقة في مكة، ومثله الحكم بن ابي العاص، فكانا يفتقدان الى المبررات العقلانية لمعاداة الرسول (ص)، وهي الخوف على الموقع السياسي والاجتماعي وخشية ذهاب الشرف والمنزلة الرفيعة بانتشار الاسلام، كما انهما لم يكونا يعانيان من الحسد الذي كان يسوق اشراف مكة الى اتخاذ موقف معاد للنبي (ص) لظهور امره والتفاف المسلمين حوله (ص)، وقد اشار القرآن الكريم الى هذا النوع من العداوة، بل الى عداوة عقبه بن ابي المعيط بالذات طبقا لراي اكثر المفسرين حيث يقول تعالى: (ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلانا خليلا) «الفرقان: ٢٧ و ٢٨». ثم يقول تعالى: (لقد اضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا) «الفرقان: ٢٩». وفيما اذا صح الراي القائل ان الايات السابقة نازلة بحق عقبه وابي بن خلف، فسيكون ذلك دليلا على صحة ما ورد في الروايات من ان عقبه كان يسير خلف الرسول (ص) ويستمع الى القرآن الكريم، غير ان ابي كان يقطع عليه طريق الهداية. وقد كشفت معاملة الرسول (ص) للحكم بن ابي العاص، وكذلك معاملته لعقبه بن ابي المعيط عن مدى تالم قلب الرسول (ص) من عداء هؤلاء له وسلوكهم الشاذ معه (ص)، والا لشملهم عفوهم ورحمته التي شملت غيرهم من اعدائه، كما عودنا دائما. [١٩٨]. وينتسب كل من عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة الى فرع آخر من فروع بني عبد شمس، وكانا من المعاندين لرسول الله (ص)، وقد تعاونوا مع المعادين له (ص) غير انهم لم يتعرضوا للشخصه ولم يلحقوا به اذى بشكل مباشر.

النضر بن الحارث

وهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة العبدري، من بني عبد الدار، من قبيلة قريش، وكان من خصوم الرسول (ص) الاشداء، ويمتاز عن غيره ببعض الخصائص، فقد كان زنديقا مانويا، تعلم الزندقة من النصارى في الحيرة، وكان المانويون قد انتهوا في المناطق الخاضعة لسلطة الساسانيين بصورة مباشرة، والتي يشرف عليها الدهاقنة الزرادشتيون، ومن بقى منهم بقى متخفيا. ورغم ان الحيرة كانت تابعة من الناحية السياسية للباطرة الساسانيين وللدولة الفارسية، غير ان ملوك الحيرة او الملوك المناذرة كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذي وفر مناخا مناسباً لنمو المانوية وقيامها بنشاطاتها بصورة علنية ودون قيد او خوف، وهكذا كان الوضع بالنسبة الى النصرانية واليهودية وباقي الاديان. وقد كان من نتائج تجارة قريش مع العراق احتكاك القرشيين، ومنهم النضر بن الحارث، باهل الحيرة وتردده عليهم بصورة مستمرة، وقد استطاع المانويون بما لديهم من مبلغين ودعاة بارعين ان يستميلوا بعض تجار قريش

لمعتقداتهم المانوية. ومن الجدير بالاشارة ان اكثر المعادين للرسول الله (ص) كانوا ممن ينسبون الى الزندقه. [١٩٩] رغم انهم يحتجون في عدائهم للرسول بتسفيهه لابائهم واهانتة لاصنام قريش. ولم يكن الامر كذلك مع النضر بن الحارث العبدري، فكان هذا قد نظر في كتب الفرس، وخالط النصارى واليهود، وكان له مع رسول الله (ص) مناظرات ومجادلات كلامية ودينية حتى قيل: ان قوله تعالى: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، كتب عليه انه من تولاه فانه يضلّه ويهديه الى عذاب السعير) «الحج: ٣ - ٤» قد نزلت فيه، وقد وردت في هذه الايات اشارات الى هذا الشخص. احدهما: انه كان مجادلا ومن اهل البحث والجدال في الدين والمسائل الكلامية والالهيات. والثانية: كونه من اتباع الشياطين فهو (يتبع كل شيطان مريد)، وتؤيد هذه الاشارة ما ذكر من انه كان مانويا ويرتبط في الوقت ذاته بعلاقات عشرة مع اليهود والنصارى، ثم انه كان له اتباع وموالون (كتب عليه انه من تولاه فانه يضلّه..). وهذه الاشارة تؤيد الروايات القائلة بانه كان يخطب بعد الرسول (ص) ثم يسال الناس: «اينا احسن حديثا؟». [٢٠٠]. قال ابن اسحاق: «كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله (ص) وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها احاديث ملوك الفرس واحاديث رستم واسفنديار، فكان اذا جلس رسول الله (ص) مجلسا فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما اصاب قبلهم من الامم من نعمة الله، خلفه في مجلسه اذا قام، ثم قال: انا والله يا معشر قريش احسن حديثا منه، فلهما الى فانا احثكم احسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك الفرس ورستم واسفنديار، ثم يقول: «بماذا محمد احسن حديثا مني». وبهذه المناسبة نزلت الايتان (٥ - ٦) من سورة الفرقان: (وقالوا اساطير الاولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا، قل انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض انه كان غفورا رحيمًا) وفى هاتين الايتين امور ينبغى التوقف عندها قليلا. فى الاولى: ادعاء النضر بن الحارث ان ما يقوله الرسول (ص) حول الاقوام الغابرة انما هو اساطير الاولين تكتب له بكرة واصيلا اى عندما يكون الناس فى بيوتهم لان الرسول (ص) كان اميا، فهو يدعى بانها تقرا عليه فى الاوقات التى لا يراه فيها احد. وتشير الايات السابقة الى ان النضر بن الحارث كان يقص على الناس اخبار رستم واسفنديار وقصصا اخرى، ربما اخذها عن الكتب، ويعتقد انه كان يظن ان الرسول (ص) هو الاخر اخذها من الكتب لذا اتهم الرسول (ص) بذلك، وقد ذكر النضر بن الحارث بعض الاشخاص الذين زعم انهم كانوا يعلمون الرسول (ص) ويقصون عليه تلك الاخبار، ومن هؤلاء جبر (وهو غلام اسود بن المطلب) وقيل: غيره، ويعتقد ان جبرا هذا او غيره، كان غلاما يونانيا له معرفة بالكتب، وقد نزلت الاية (١٠٣) من سورة النحل لتجيب على هذا الاتهام: (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين). وفى سيرة ابن هشام انه غلام نصرانى، يقال له جبر عبدلبنى الحضرمى. [٢٠١]. وفى تفسير الطبرى، عن عبد الله بن مسلم الحضرمى، انه كان لهم عبدان من اهل غير اليمن، وكانا طفلين، وكان يقال لاحدهما يسار، والاخر جبر، فكانا يقرآن التوراة، وكان رسول الله (ص) ربما يجلس اليهما، فقال كفار قريش: «انما يجلس اليهما يتعلم منهما». [٢٠٢]. دابت الايات المكية التى نزلت فى اول الدعوة الاسلامية على تحذير قريش من عذاب جهنم وكانت تتوعدهم باشد العذاب فى يوم الحساب، وكان النضر بن الحارث من اولئك الذين ينكرون هذا اليوم ويتكلمون قائلين: اين اذن هذا العذاب الذى تعدون به؟ ومتى سيحل ذلك اليوم الذى تحذروننا منه؟! وجاءت الاية (١٨٧) من سورة الاعراف اجابة هؤلاء الغافلين: (يسالونك عن الساعة ايان مرساها) او الاية (سال سائل بعذاب واقع) «المعارج: ١». وكذلك يقال: ان الايتين (٤٢ و ٤٣) من سورة فاطر نزلت حول الموضوع نفسه: (واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا، استكبارا فى الارض...). اذا كان النضر بن الحارث طبقا للاية الشريفة يعد اهل مكة انهم سيصبحون اهدى الامم ان جاءهم نذير، ويبدو ان حديثه هذا كان جزءا من دعوته الى المانوية، فهو يسعى الى تهيئة قومه لاستقبال مبعوث مانوى ياتى من الحيرة. وقد تلا الرسول (ص) الايتين (٩٨ و ٩٩) من سورة الانبياء على النضر بن الحارث واتباعه فى ختام جولة من النقاش والجدال حول الدين جرت بين الرسول والنضر بن الحارث، الذى هزم فيها وخرج خاسرا، وقد جاء فيهما: (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون، لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون). وينبغى التوقف هنا عند نقاط دقيقة. فما هو نوع النقاش الذى هزم فيه النضر بن الحارث؟ ولماذا لم يات

اصحاب السيرة على ذكره؟ وما هي العلاقة بين هاتين الايتين والحوار الذي دار بين رسول الله (ص) والنضر بن الحارث؟ اعتقد ان الحوار بين الرسول (ص) والنضر بن الحارث كان يدور حول العقائد المانوية، فالظلمة والنور كما نعلم هما اصلا الخلق في نظر المانوي، ويرى المانوي ان الصراع قائم ابدابين الظلمة والنور في نظام الخلق، اذ تحيط الظلمة المملوءة بالشياطين والاغوال بالنور الذي يسعى دائما للتخلص منها ومما فيها من شياطين الظلام، فالله يقول لهم: (لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها)، ثم لو كانت الظلمة هي الخالقة وكان اعوانها اعوان الالهة لما كان (وكل فيها خالدون) «الانبياء: ٩٩». اذن انتم هؤلاء وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وليس الله الذي هو خالق الظلمة والنور. وبهذا البيان الواضح غلب النضر بن الحارث وافحم، ثم قام رسول الله (ص) واقبل عبدالله بن الزبير حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة وهو من الزنادقة (المانويين) كما قيل لعبد الله بن الزبير: «والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد، وقد زعم محمد اننا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم». فقال عبدالله بن الزبير: «اما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمدا اكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد عيسى بن مريم»، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبدالله بن الزبير، وراوا انه قد احتج وخاصم، فذكر لرسول الله (ص) ما كان من قول ابن الزبير، فقال رسول الله: «ان كل من احب ان يعبد من دون الله فهو مع من عبده، انهم انما يعبدون الشياطين ومن امرتهم بعبادته»، فانزل الله تعالى عليه في ذلك: (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون، لا يسمعون حسيصها وهم في ما اشتهت انفسهم خالدون) «الانبياء: ١٠١-١٠٢» اي عيسى ابن مريم، وعزير، ومن عبدوا من الاحبار والرهبان، الذين مضوا على طاعة الله فاتخذهم من يعبدهم من اهلالضلالة اربابا من دون الله. [٢٠٣]. كان النضر بن الحارث ياتي من الحيرة التي كان يقيم فيها، كما اشرنا سابقا ببعض الهدايا، واهمها آله موسيقية كان يعزف عليها الانغام في مكة، وقد عرف المانويون بتعلقهم الشديد بالموسيقى، فكان النضر بن الحارث يعلم اهل مكة طريقة عزف الانغام التي كان قد تعلمها في الحيرة. ولم يكن اهل مكة يعرفون قبل ذلك سوى (النصب)، وهو نوع من الاغانيشبه الحداء الذي يغنى للابل اثناء سيرها. [٢٠٤]. وكان للنضر بن الحارث جارتان مغنيتان نزلت في شانهما آيتان من سورة لقمان: (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزا اولئك لهم عذاب مهين، واذا تلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كان لم يسمعها كان في اذنيه وقرا فبشره بعذاب اليم) «لقمان: ٦-٧». وكان من بين مناظرات النضر بن الحارث مجادلته الرسول (ص) في امر احياء العظام وهي رميم، وقد انزل جوابا على ذلك الايات (٧٨-٨٠) من سورة يس: (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم، قل يحييها الذي انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم، الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون). وقيل: ان ابي بن خلف هو الذي جلب البالية الى الرسول (ص)، غير ان طريقة الاستدلال المذكورة في الاية اكثر انسجاما مع منهج النضر بن الحارث في الجدل. وبسبب هذه المجادلات والتكذيب الدائم لرسول الله (ص) قيل ان النضر بن الحارث كان من اشد خصوم الرسول (ص)، فقد آذى سلوكه هذا الرسول (ص) كثيرا، لهذا امر (ص) بقتله حين اسر في معركة بدر على يد المقداد. فقال المقداد الذي كان ينتظر شيئا مقابل ذلك: «يا رسول الله، انه اسيرى، اي هل من عوض مقابل قتله، فقال الرسول (ص): «اللهم اغن المقداد من فضلك». [٢٠٥].

العاص بن وائل و منبه بن الحجاج و نبيه بن الحجاج السهمي

ينتمي هؤلاء الثلاثة الى بنى سهم من قبيلة قريش، وكانوا من المستهزين والمحاربين لرسول الله (ص)، وقد وردت اسماؤهم في قائمة الزنادقة المانويين. [٢٠٦] وكان كل من منبه ونبيه من المستخفين برسول الله (ص) والمستصغرين شأنه، وكانا يزعمان ان وراء الرسول شخصا آخر يعلمه، ويكررون القول: (معلم مجنون). وكان العاص بن وائل ابو عمرو بن العاص المعروف من المستهزين بالرسول (ص) ويقول: (انه ابتر)، اي ليس له اولاد ذكور وسينقطع اثره بعد موته، وانزلت سورة الكوثر جوابا على هذا الزعم: (انا اعطيناك الكوثر، فصلى لربك وانحر، ان شانئك هو الابتر). وفسر الكوثر بانه الماء الذي في الجنة، وقيل: انه نسل فاطمة (ع) وابناؤها

الذين ملأوا الدنيا، ويمكن ان يصح كلا القولين. غير انه ما يمكن ان يكون جوابا قاطعا للعاص بن وائل، الذي كان يتباهى بابنائه، انما هو الدين الاسلامي والرسالة التي عبر عنها بالكوثر، اي ان هذه الرسالة انما هي اكبر واكثر بركة من كل ما تتفاخرون به من مقام وثروة واولاد. وسيملا ذكرها اسماع الشرق والغرب في الوقت الذي لا يذكر فيه اعداء الاسلام الا بالسوء.

امية بن خلف الجمحي

ويتنسب امية الى بنى جمح من قبيلة قريش، وكان من اثرياء مكة، ولم يدخر جهدا في محاربة الرسول (ص) سرا وعلانية، حتى انزلت هذه السورة الشريفة بشانه: (ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعدده، يحسب ان ماله اخلده...) «الهمزة: ١-٣» والتي تؤكد على انه كان كما اشرفنا من اثرياء قريش، وقد ورد اسم اخيه ابي بن خلف في قائمة اسماء مانويي قريش. [٢٠٧]. كان ابي صديقا لعقبة بن ابي معيط، وقد مرت الاشارة الى قضيتهما مع الرسول (ص)، وقال البعض: ان الذي احتج على النبي بالعظام البالية وقال (من يحيى العظام وهي رميم) انما هو ابي. وقد قتل امية في يوم بدر، بينما قتل ابي في احد على يد رسولا لله (ص) [٢٠٨].

ابوعزة عمرو بن عبدالله الجمحي

لم يرد اسم ابي عزة مع اسماء الذين آذوا الرسول (ص)، لكنه ورد في قائمة اسماء مانويي قريش، [٢٠٩] ورغم انه لم يذكر فيمن آذوا الرسول (ص)، الا انه كان من اعداء الاسلام، وقد وقع اسيرا بيد المسلمين في معركة بدر، وكان فقيرا ذا فاقة وعيال فمن عليه رسول الله (ص) بعد ان قال: «اني فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتها، فامنن على صلي الله عليك وسلم». فمن عليه رسول الله (ص). وحينما تهيأت قريش لحرب رسول الله (ص) في احد، قال صفوان بن امية لعمر بن عبدالله: «يا ابا عزة، انك امرؤ شاعر، فاعنا بلسانك فاخرج معنا». فقال: «ان محمدا قد من على، فلا اريد ان اظاهر عليه»، قال: «بلى، فاعنا بنفسك، فلك الله على ان رجعت ان اغنيك، وان اصبت ان اجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما اصابهن من عسر ويسر». فخرج ابو عزة في تهامة، وقد حرض الناس وحثهم على قتال المسلمين، ثم وقع اسيرا مرة اخرى في احد، وطلب العفو ايضا كما في المرة السابقة، فقال رسول الله (ص): «والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدا مرتين، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت» فضرب عنقه وقال (ص): «ان المؤمن لا يلدغ منجحر مرتين». [٢١٠].

ابوسفیان

وهو صخر بن حرب بن امية، وكان يعد من المانويين، احد اشراف قريش وعظماؤها، كانت له منزلة رفيعة بسبب انتسابه الاسرى، وقد تحولت له زعامه قريش وقيادتها بعد مقتل ابي جهل في معركة بدر، وكان قائدا لقريش في جميع حروبها مع المسلمين، وقد تزوجت ابنته ام حبيبة من رسول الله (ص) بعد وفاة زوجها عبيدالله بن جحش، وكان ابو سفیان من اعداء الرسول (ص) حين كان في مكة وبعد الهجرة الى المدينة، وكثيرا ما كان يشترك مع الجماعات المعادية للرسول (ص)، بل كان عنصرا مهما فيها، ويبدو انه كان عدوا عاقلا اذ لم يشترك في ايداء الرسول وتعذيب المسلمين. لقد اسلم ابو سفیان في فتح مكة، وقال الرسول (ص): «من دخل بيت ابي سفیان فهو آمن». وقد اعطى مع ابنائه اسهما مهمة من الغنائم التي حصل عليها المسلمون بعد فتح مكة، ويبدل هذا على ان عداؤه لرسول الله (ص) لم يكن شديدا بالدرجة التي تثير غضب الرسول كثيرا.

ابولهب

وهو من الد اعداء الرسول (ص)، وكانت لابي لهب مكانة خاصة، فهو من بنى هاشم وعم الرسول الاكرم (ص)، ولم يعرف السر في

هذا العداة المستفحل الذى كان يظهره ابولهب ازاء الرسول (ص) ودعوته المباركة. لقد بلغ عداة ابى لهب واذيته لرسول الله (ص) الى الحد الذى نزلت معه سورة من القرآن الكريم فى ذمه وتقريعه، وذكر فيها اسمه صراحة، فى وقت لم يذكر فيه القرآن الكريم اسماء الاشخاص الا قليلا. كان ينبغى لابى لهب ان يقف موقف المدافع والمحامى عن رسول الله (ص) كباقي اعمامه، طبقا للاعراف العائلية والقبلية، او على اقل تقدير لا يصل به العداة الى تلك الدرجة المناقضة للاعراف العريية حتى مع عدم قبوله الاسلام. كان منزل الرسول (ص) بين منزل ابى لهب ومنزل عقبه بن ابى المعيط، العدو الاخر لرسول الله (ص)، وكان الاثنان يريان الاوساخ والقذارات فى بيت النبى (ص). [٢١١] روى البلاذرى رواية [٢١٢] يعتقد انها تكشف عن السبب الحقيقى وراء معارضة ابى لهب لرسول الله (ص) قال: «كان ابو لهب احد الذين يؤذون رسول الله (ص)، ووقع بينه وبين ابى طالب كلام فصرعه ابو لهب، وقعد على صدره، وجعل يضرب وجهه، فلما رآه رسول الله (ص) لم يتمالك ان اخذ بضبعى ابى لهب، فضرب به الارض، وقعد ابوطالب على صدره، فجعل يضرب وجهه، فقال ابو لهب للنبى (ص): هو عمك وانا عمك، فلم فعلت هذا فى؟ والله لا يحبك قلبى ابدا».

كيفية الدعوة

اشاره

ما هى الطريقة التى كان يتبعها الرسول (ص) فى الدعوة الى الاسلام والتبشير بالدين الجديد؟ تقول الروايات: ان دعوته (ص) كانت سرية فى بداية الامر، وخلال تلك الفترة آمن بعض ابناء قومه، وقد مرت الاشارة الى ذكر عدد من اسمائهم، وكان اكثر هؤلاء من شباب قريش او الضعفاء والمستضعفين، او اولئك الذى لا سند لهم فى قريش، وقد امتدت فترة الدعوة السرية طبقا للرواية التى اوردها ابن سعد ثلاث [٢١٣] سنوات. وفى رواية اخرى عن سعيد بن زيد بن نفيل يقول: «استخفينا بالاسلام سنة لا نصلى الا فى بيت مغلق او شعب خال، ينظر بعضنا لبعض». وليس ثمة تناقض بين الروايتين، اذ يمكن ان يكون سعيد بن زيد قد آمن قبل سنة من اعلان الدعوة الاسلامية، ويبدو ان الدار المغلقة التى تحدثت عنها رواية سعيد بن زيد هى دار الارقم بن ابى الارقم التى كانت بمثابة مركز الرسول (ص) الاعلامى فى عرفنا الحالى، فبعد ان آمن الارقم وكان سابع رجل فى الاسلام كما ينقل هو وضع داره فى خدمة الرسول (ص) واصحابه، وفى تصرفهم، وفى هذه الدار اسلم كثير من القوم حتى اصبح يؤرخ لها الدار، فيقال: اسلم فلان فى دار الارقم، بينما اسلم فلان الاخر بعد خروج الرسول (ص) من هذه الدار. وتقع هذه الدار على جبل الصفا، وقد دعيت دار الاسلام، وبعد اسلام عمر بن الخطاب فى هذه الدار تجرا المسلمون فخرجوا منها مكبرين متجهين نحو الكعبة للطواف. وقد اوقف الارقم داره على ولده، فلم تزل هكذا حتى زعم الخليفة العباسى ابو جعفر المنصور انه اشتراها من ورثتها. [٢١٤].

فاصدع بما تؤمر

لا يمكن لحالة السرية والتخفى ان تستمر الى الابد، فلقد جاء الاسلام للناس كافة، فلا بد من اظهاره والجهر بالدعوة اليه ان عاجلا او آجلا، لكن الرسول (ص) كان يتردد فى اعلان الدعوة فى البداية كما يستشف من الايات القرآنية، لضيق صدره وعدم ارتياحه لافعال قومه وما قابلوه به من اذية واستهزاء وصدود حتى نزل قوله تعالى: (فاصدع بما تؤمر وعرض عن المشركين، انا كفيناك المستهزين، الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون) «الحجر: ٩٤-٩٦».

وانذر عشيرتک الاقربين

قلنا ان اكثر المؤمنين الاوائل كانوا من الشباب والضعفاء، وكان الرسول (ص) لم يظهر دعوته بعد لاشراف قريش وللأسر التى تملك

زامم الحل والعقد في مكة، وكان لا بد لهذا الامر ان يحصل ان عاجلا او آجلا حتى نزلت الآية الشريفة: (وانذر عشيرتک الاقربين) «الشعراء: ٢١٤» والايات التي تليها. وكان ذلك طبقا لما جاء في طبقات ابن سعد تكليفا باهضا لرسول الله (ص). يقول ابن سعد لما انزلت الآية: (وانذر عشيرتک الاقربين) غضبت قريش، واطهروا لرسول الله (ص) الحسد والبغى، واشخص به منهم رجال [٢١٥] فان الرسول (ص) كان على علم بعصبيته اشراف مكة وشدة تمسكهم بالتقاليد والاعراف المبنية على الشرك وعبادة الاصنام، اضافة الى ذلك كانت هناك العصبية الاسرية والقبليّة، وكذلك التفاخر بالجاه والمقام والثروة والقوة التي كانت من المعايير المهمة في المجتمع الجاهلي، كل ذلك كان يمنع من ان تسمع الاسر ذات الثروة والقوة والجاه، امثال بنى مخزوم وبنى سهم وبنى امية، الى رجل من بنى هاشم وتطيعه. اذ يبدو ان بنى هاشم رغم ما كانوا عليه من شرف النسب، كانوا يفتقدون الى الثراء الذي كان لدى بطون قريش الاخرى، وكان زعيمهم ابوطالب يعيش وضعا اقتصاديا خانقا، ويتضح هذا المعنى من الايات الشريفة التي انزلت بعد ظهور معارضة قريش واشرافها للدعوة الاسلامية، وسنشير الى ذلك في اثناء البحث. (وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون، وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين) «سبا: ٣٤ - ٣٥». بناء على ما يظهر من الروايات المختلفة فان الرسول (ص) كان قد دعا اشراف قريش وحدثهم عن رسالته، ويقال انه لم يتعرض (ص) الى رد عنيف، رغم ان احدا منهم لم يقبل دعوته، هذا باستثناء ابي لهب الذي خاطب بنى هاشم قائلا: «يا بنى عبد المطلب، هذه والله لسوءة، خذوا على يديه قبل ان ياخذ على يده غيركم، فان اسلمتموه حينئذ ذلتم، وان منعتموه قتلتم». فقال ابو طالب: «والله لنمنعنه ما بقينا».

بداية معارضة قريش

اشاره

يقول ابن اسحاق: لما بادى رسول الله (ص) قومه بالاسلام، وصدع به كما امره الله، لم يبعد عنه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك اعظموه وناكروه واجمعوا على خلافه وعداوته الا- من عصم الله تعالى منهم بالاسلام، وهم قليل مستخفون. [٢١٦]. وجاء في رواية الزهري: دعا رسول الله (ص) الى الاسلام سرا وجهرا، فاستجاب له من شاء من احداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكرين لما يقول، فكان اذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون اليه ان غلام بنى عبد المطلب ليكلّم من السماء، فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فشنفوا لرسول الله (ص) عند ذلك وعادوه. [٢١٧].

السبب الحقيقي لمعارضة قريش

لا- سبيل لانكار ما للمعتقدات الدينية وتقديس الالباء والمحافظة على آثارهم من جذور عميقة في نفوس البشر، فليس من السهل محاربتها او القضاء عليها، بل قد يؤدي ذلك عادة الى العداوة والبغضاء والاستفزاز، ولكن استفراء اوضاع المجتمع العربي في الجاهلية بصورة عامّة، وقريش او مجتمع مكة بصورة خاصّة، لا يكشف عن مشاعر دينية قوية ومتطرفة لدى عرب الجاهلية، وقد نقلنا مثلا على ذلك عن (الاصنام للكلبى) حيث كثيرا ما كان يتعرض آلهة العرب واصنامهم الى الاهانة والشتيم من قبل عبادهم عندما لا يجدون فيهم ما يلبي حاجاتهم ويحقق طموحاتهم، اذ لا يمكن ان يشتد تمسك امّة ما بالعامل الديني في وقت ينشأ فيه ابناؤها على السطو والاغارة والنهب والسلب، خصوصا ان اكثر العرب كانوا لا- يؤمنون بيوم الحساب والبعث، وهناك العديد من الايات الشريفة التي تحدثت عن رفض اهل مكة الايمان بيوم الحساب واستهزائهم بالنشور والبعث بعد الموت، وكانوا يكررون القول المعروف: كيف يحيى العظام وهي رميم؟! وبناء على هذا فان ادعاء قريش بان اسباب محاربتها للرسول (ص) انما تكمن في سبه لابائهم واجدادهم

وتسفيهه لالتهتهم، لا يمكن ان يكون ادعاء صحيحا، بل لا بد من وجود اسباب حقيقية لا علاقة لها بالدين والمعتقدات، كان لها الدور الاكبر في دفع قريش لذلك الموقف العدائي من الرسول (ص) ورسالته، ويبدو ان الخوف على موقع مكة التجاري من التصدع، والحرص على ما حصلت عليه هذه المدينة من شهرة وحرمة، حيث تم اعلانها مدينة امن وحرما آمنا يمارس فيه تجار قريش واهل الثروة نشاطهم بكل حرية واطمئنان. يبدو ان التخوف من ضياع هذه المكاسب كان اهم سبب دفع اشراف قريش لذلك الموقف العدائي المتصلب من الدعوة الاسلامية، رغم انهم كانوا يتذرعون بحجج اخرى في مقدمتها الحفاظ على سنة الاباء، والدفاع عن تراثهم وامجادهم، والدليل على ذلك الاية القرآنية الشريفة (٥٧) من سورة القصص: (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا اولم نمكن لهم حرما آمنا يجيبى اليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون). اذا كان اهل مكة طبقا للقرآن الكريم يخافون ان دخلوا في الاسلام ان يخرجوا من ارضهم، وقد فسر المفسرون (نتخطف من ارضنا) ان العرب سيهجمون على مكة ويخرجوا منها اهلها اذا ما اسلموا ودخلوا في الدين الجديد، ويمكن ان يكون للاية معنى آخر يتلخص في ان مكة ستفقد مكانتها الخاصة وتزول امتيازاتها في حالة اسلام قريش واهل الجزيرة العربية، لهذا اجابهم القرآن الكريم بقوله: (اولم نمكن لهم حرما آمنا يجيبى اليه ثمرات كل شىء) وان هذا الوضع سيستمر ويدوم. وتاتي الاية التالية من سورة القصص لتوضح اسباب انهيار المدن وتدهورها اذ تقول: (وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين) ثم يردف القرآن الكريم قائلا: (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولا- يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون) ويضيف: (وما اوتيم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وابقى افلا تعقلون) «القصص: ٥٨- ٦٠». لقد صرحت الايات القرآنية الكريمة السابقة بان قريش كانت تخشى على مكانتها من ان تتدهور، وتخاف على مركز مدينتها (مكة) التجارية والدينى ان يتزلزل فيما اذا تابعت الرسول (ص) وآمنت بدعوته.

الانذار

كانت الايات القرآنية المكية، التى تركز غالبا على دعوة قريش للدخول فى الدين الجديد تفرق دعوتها هذه بالانذار والوعيد، وكانت تدعو رسول الله (ص) ب (النذير) او ال (منذر) واحيانا (البشير)، وهناك آيات اطلقت عليه التسميتين فى آن واحد، مثال ذلك الاية (١٨٨) من سورة الاعراف: (ان انا الانذير وبشير لقوم يؤمنون)، وفى الاية الثانية من سورة هود: (الا تعبدوا الا الله انى لكن منه نذير وبشير) اما الاية الثانية من سورة يونس فتقول: (اكان للناس عجا ان اوحينا الى رجل منهم ان انذر الناس وبشر الذين آمنوا). والان لنعرف ما هو الانذار، وما هو الشىء الذى يحذر القرآن الكريم منه ويتوعد اهل قريش به؟ الذى يبدو من استقراء الايات الشريفة، التى ورد فيها هذا الانذار والوعيد بصورة وكيفياته المتنوعة، ان المقصود هو يوم الحساب واقتراب الساعة وحين يحشر الناس يوم القيامة فيصب الله عليهم عذاب الاخرة الذى ما فتى يحذرهم منه، والحقيقة ان افضل شىء يمكنه ردع كفار قريش عن عبادة الاصنام والشرك بالله والقتل والغزو والفسق انما هو تحذيرهم من العذاب، ومن العواقب الوخيمة التى تنتظرهم عما قريب، وبالعكس تبشير المؤمنين والصالحين بالثواب الجزيل والا-جر العظيم بعد الموت. والافما هو السبيل لارشاد هؤلاء الى طريق الخير وردعهم عن سبل الشر؟ [٢١٨]. لم تعرف مكة، بل والعرب جميعا، فى قيمهم الاخلاقية شيئا (حسن) مطلقا و آخر (قبيح) مطلقا، فلا معنى، والحالة هذه، لان يقال لاهل مكة يجب اجتناب الظلم او الكذب او الغزو او ما شابه ذلك، لانها اعمال قبيحة فى ذاتها. [٢١٩] علما ان معانى الخير والشر فطرية مغروسة فى ذات الانسان، فالكذب والسرقة وقتل النفس والتعدى على حقوق الاخرين كلها مسائل ترفضها الفطرة السليمة وتدينها، اما لماذا يجب الامتناع عن هذه الافعال السيئة مع امتلاك القدرة على فعلها، وعدم الخوف من العقوبة والقصاص؟ الم يكن امتلاك القدرة البدنية والاستطاعة المالية دليلا على الشرف وعلو الدرجة؟ الم تكن مفاخر العرب جميعا قد تحققت فى ظل السيف؟ الم يذهب دم المقتول، الذى ليس له عشيرة تمنعه، هدرًا، وهل يلام القاتل او يعاقب فى مثل هذه الحالة؟ بعد ان كان بناء الحياة

الاجتماعية قائما على اسباب القوة الشخصية والقبلية، وفى ظل هذه القوة يمكن القيام باى عمل حتى لو كان من الاعمال التى لا تقبلها الفطرة ولا- يقرها الوجدان، اذا ليس هناك من رادع يمكن ان يردع الظالمين من اهل مكة والعرب فى شبه الجزيرة العربية سوى اخبارهم وانذارهم بان هناك قوة عليا فوق قوتهم ستعيد للضعيف والمظلوم حقه. وبناء على هذا فان ابراز القوة العظمى والقدرة الكبرى امام الظالمين والمتجاوزين سيسلبهم الجراة ويردعهم عن التجاوز والتعدى على حقوق الاخرين، وتتجلى تلك القدرة الالهية من خلال تعذيب المعاندين والمسيئين وتكريم الصالحين وتبشيرهم باحسن الثواب وافضل الجزاء يوم القيامة وعند قيام الساعة بعد الموت. ومن هنا فقد بدا الدين الجديد دعوته فى مكة بتهديد الظالمين بعذاب جهنم وتبشير الصالحين بالمخلصين بالجنة وحسن الثواب، وقد جاءت الايات المكية مشحونة بالوعد والوعيد من جانب وبالبشرى والجنة ونعيمها من جانب آخر، ولهذا كان كفار مكة يسخرون كثيرا من التذكير بالبعث والنشور وما يجد الانسان بعد الموت من الجنة او النار، وكانوا يهزاون بذلك كما تشير آيات مكية عديدة ويكررون القول: كيف يحيى العظام وهى رميم؟! (وقالوا ء اذا كنا عظاما ورفاتا ء انا لمبعوثون خلقا جديدا) «الاسراء: ٤٩». فيحييهم الوحي القرآنى بقوله: (قل كونوا حجارة او حديدا، او خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم اول مرة فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا) «الاسراء: ٥٠-٥١». ونظير هذه الاسئلة والاجوبة كثير فى القرآن الكريم، حيث تنبى كثرة التهديد والوعيد بقيام الساعة عن الحاح الكفار فى السؤال عن موعد هذا اليوم ومتى ستحل تلك الساعة التى يحذرون منها. وتصدر الاشارة هنا الى ان اخبار القرآن الكريم عن قرب الساعة ودنو الاجل لا يعنى القرب والبعد الزمانى الذى يتبادر للذهان، فعمر الانسان لا يعنى شيئا بالنسبة الى عظمة الخلق وعمر العالم المادى. واذا ما تحدث القرآن عن قرب الساعة واقتراب اليوم الموعود، فان المراد القرب والبعد المقارنان بالزمان ككل وبعمر العالم اجمع، والساعة هذه، اى الموعد الذى تنتهى عنده الدنيا، قريبة جدا فى نظر الصانع جل شاناه، وان كانت تبدو بعيدة جدا، بل غير قابلة للتصور، بالنسبة الى الانسان الترابى الذى يعيش على هذا الكوكب البسيط المحدود. وبناء على هذا فان التهديد بقرب الساعة وانشقاق القمر وانتشارالنجوم واندكالك الارض، لا يقصد بها المعنى النسبى الذى هو قريب جدا اذا ما قيس بعمر العالم، وبعيد جدا بالنسبة الى الاعمار العادية المحدودة.

الاستهزاء

لقد قابلت قريش تهديدات الرسول (ص) وتحذيراته اياها بالاستهزاء والاستخفاف، وهذا ما اشارت اليه بعض الايات القرآنية الكريمة: (واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الالهزوا...) «الانبياء: ٣٦» (واذا راوك ان يتخذونك الالهزوا الذى بعث الله رسولا-) «الفرقان: ٤١» (ذلكم بانكم اتخذتم آيات الله هزوا) «الجاثية: ٣٥».

رد فعل قريش

لقد ضاقت قريش ذرعا بالدعوة الاسلامية ولم تستطع احتمالها، لخوفها من زوال مركزها وضياع ما حصلت عليه مدينتها (مكة) من موقع تجارى ودينى خاصين، او لانها شعرت باستفزاز صارخ لمشاعرها الدينية، او بسبب الحسد والخصومات القبلية والتعصب العشائرى، وقد ازدادوا خوفا واضطرابا عندما لاحظوا تزايد اعداد الضعفاء والمستضعفين الذين اخذوا يعتنقون الدين الجديد. فعكفوا يبحثون عن طريقة للحل، ولم يكن من السهل الحاق الاذى والاضطهاد بشخص ذى عشيرة قوية ضمن النظام القبلى الذى كان سائدا آنذاك، وكان مثل هذا العمل يتطلب مشورة وعونا من اشراف القوم واهل الراى فيهم، والا- فسيهب قوم ذلك الرجل لنصرته والاقتصاص من خصمه، وقد يؤدى الامر الى نزاع دموى لا يعلم احد مداه. وتبدو المسألة فى مكة اكثر تعقيدا، حيث تتجاور بطون قريش المختلفة هناك، ويحتك بعضها ببعض يوميا، فلا مجال لهرب شخص او اختفائه اذا ما ارتكب جرما معيناً، فالخائف عندما يفر يلجا الى قبيلة نائية تسكن فى الصحراء بعيدا عن موطنه الاصلى، وفى مثل هذه الحالة تطول المدّة حتى تهيا القبيلة التى كان قد

اعتدى عليها وتصل الى ملجئه وملاذه عند القبيلة المجيرة، وهذا ما كانت تفتقد اليه مكة المكتنزة ببطون قريش المختلفة والتي تتجاور في مساكنها. فاي نزاع يمكن ان يؤدي الى اشتعال النار في المدينة باكملها ويورث خصومة دائمة، ومثل هذا الوضع كانت تعيشه يثرب هي الاخرى، اضافة الى ذلك كانت الاحلاف، كحلف المطليبين وحلف الفضول، تنقل النزاع من دائرة القبيلتين المتنازعتين الى دائرة اوسع، هي دائرة الاحلاف او القبائل العديدة المتحالفة فيما بينها التي تشهر كل منها سيفها للدفاع عن الجماعة المتحالفة معها ضد الجماعة الاخرى داخل الحلف الاخر، وحين اعلن الرسول (ص) دعوته وافصح عن انتقاده وذمه لاشراف قريش واسلافها وما جروا عليه من سنن الضلال والغى، وهاجم (ص) اصنامهم وتقاليدهم الجاهلية، وسفه احلامهم وآلهتهم واعتقاداتهم، وقفت قريش قلقه على مصيرها، تحاول جاهدة دفع الخطر عن نفسها، ولكنها لم تستطع للاسباب السابقة الانفراد برسول الله (ص) والحق الاذى به، فذهبت مضطرة الى بنى هاشم تعرض الامر عليهم وتطالبهم باقناع الرسول (ص) بالكف عن سب آباءهم ومهاجمة عقائدهم والا فسيستعينوا بهم اي بنى هاشم على ايدائه وطرده او حتى قتله والخلاص منه، وكانت زعامة بنى هاشم منعقدة آنذاك لابي طالب، وقد لمع في بنى هاشم ثلاث شخصيات مرموقة، وهم فيما عدا الرسول (ص) ابوطالب وابولهب وحمزة، وكان ابو طالب اكثرهم وقارا وهيبه لكبر سنه، غير انه كان فقير الحال في حين كان ابو لهب على قدر كبير من الثراء، بشهادة القرآن الكريم: (ما اغنى عنه ماله وما كسب) «المسد: ٢»، وكان يعرف المقاييس الجاهلية من اجله القوم واشرافهم. اما زوجته ام جميل فكانت من عائلة بنى امية ذات القوة والنفوذ، وامتاز حمزة بشجاعة خاصة جعلت الجميع يهابونه ويقدرونه، رغم انه كان بعيدا على ما يبدو عن الشؤون السياسية والاجتماعية لمدينته، حيث كان يقضى اكثر اوقاته بالصيد ولم يعر في البداية اهتماما خاصا لابن اخيه ورسالته. لقد ناصب ابولهب رسول الله (ص) العدا منذ البداية، واعلن حربه على الدعوة الاسلامية منذ اللحظات الاولى، وبناء على هذا كان ابو طالب هو الرجل الوحيد من بنى هاشم الذي كان بإمكانه توفير الحماية لرسول الله (ص)، او تركه بيد المعارضين والتخلي عنه. لقد اختار ابوطالب الموقف الاول، ووقف بكل شهامة الى جانب ابن اخيه، الامر الذي جعل اشراف قريش يرجعون اليه في امر محمد (ص) ويجلسون معه للتحدث بهذا الشأن، حيث قائلين: «يا ابا طالب، ان ابن اخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه احلامنا، وضلل آباءنا، فاما ان تكفه عنا، واما ان تخلى بيننا وبينه، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه». فقال لهم ابوطالب قولاً رقيقاً ورددهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله (ص) على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو اليه. ثم شرى الامر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، واكثرت قريش ذكر رسول الله (ص) بينها وتذامروا فيه، وحض بعضهم بعضا عليه، ثم انهم مشوا الى ابي طالب مرة اخرى، فقالوا: «يا ابا طالب، ان لك سنا وشرفا و منزلة فينا، وانا قد استهينناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آباءنا وتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا، او ننزله وياك في ذلك حتى يهلك احد الفريقين»، ثم انصرفوا عنه. فعظم على ابي طالب فراق قومه وعداوتهم له، ولم يطب نفسا باسلام رسول الله (ص) لهم ولا خذلانه. وقدمت [٢٢٠] كرر هذا الجدل وتلك المناظرات مرات ومرات، يذكرها الطبري في تاريخه في الموضوع السابق، الى الحد الذي طلب معه ابوطالب الى ابن اخيه ان يلاحظ حاله وما هو عليه من الحرج، قائلا له: «يا ابن اخي، ان قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فابق على وعلى نفسك، ولا تحملني من الامر ما لا اطيق». فظن رسول الله (ص) انه بدالعمه فيه بداء، وانه خاذله ومسلمه، وانه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال رسول الله (ص): «يا عماء، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته». ثم استعبر رسول الله (ص) فبكى، ثم قام، فلما ذهب ناداه ابوطالب، فقال: «اقبل يا ابن اخي». فاقبل عليه رسول الله (ص) فقال: «اذهب يا ابن اخي فقل ما احببت، فوالله لا اسلمك لشيء ابدأ». ثم ان قريشا لما عرفت ان اباطالب ابي خذلان رسول الله (ص) واسلامه، واجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم مشوا اليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: «يا اباطالب، هذا عمارة بن الوليد انه فتي في قريش واشعره واجمله، فخذته فلك عقله ونصرته، واتخذته ولدا فهو لك، واسلم لنا ابن اخيك، هذا الذي قد خالف دينك ودين آباءك، وفرق جماعة قومك، وسفه احلامهم، فنقتله، فانما رجل كرجل». فقال: «والله لبئس ما تسومونني، اتعطوني ابنكم اغذوه

لكم، واعطيكم ابني تقتلونهم؟! هذا والله ما لا يكون ابدا». فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف: «والله يا ابا طالب، لقد انصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما اراك تريد ان تقبل منهم شيئا». فقال ابوطالب للمطعم: «والله ما انصفوني، ولكنك قد اجمعت خذلاني ومظاهرة القوم على، فاصنع ما بدا لك». فحقب الامر عند ذلك، وحميت الحرب، وتنازعت القوم، وبأدىء بعضهم بعضا، ثم ان قريشا تذا مروا على من في القبائل من اصحاب رسول الله (ص) الذين اسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله (ص) منهم بعمه ابي طالب، فقد قام ابو طالب حين راي قريشا تصنع ما تصنع في بني هاشم، فدعاهم الى الزود عن رسول الله (ص) والقيام دونه، فاجتمعوا اليه وقاموا معه، واجابوه الى ما دعاهم اليه من الدفاع عن رسول الله (ص) الا ما كان من ابي لهب، فلما راي ابوطالب من قومه ما سره من وقوفهم معه وحذبهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر فضل رسول الله (ص) فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رايبهم. [٢٢١].

رواية عروة بن الزبير

هناك رواية لعروة بن الزبير الذي يعتقد انه اقدم مدون لسيرة الرسول (ص)، ينقلها الطبري في تاريخه، [٢٢٢] قال عروة في رسالة بعثها الى عبد الملك بن مروان حول سيرة الرسول (ص): «اما بعد، فانه (يعني رسول الله (ص)) لما دعا قومه، لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي انزل عليه، لم يبعدهوا منه اول ما دعاهم وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطوائف من قريش لهم اموال انكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، واغروا به من اطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه الى من حفظه الله منهم وهم قليل، فمكث بذلك ما قدر الله ان يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بان يفتنوا من تبعه عن دين الله من ابنائهم واخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله (ص) من اهل الاسلام، فافتتن من افتتن، وعصم الله منهم من شاء، فلما فعل ذلك بالمسلمين امرهم رسول الله (ص) ان يخرجوا الى ارض الحبشة». وسياتي الحديث عن بقية الرواية في قصة الهجرة الى الحبشة، غير ان الذي نراه مهما هنا هو ذلك المقطع من الرواية الذي يقول: «حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطوائف من قريش لهم اموال، انكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، واغروا به من اطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس». تشير هذه الرواية الى ان اثرياء قريش وتجارها الذين لم تذكر الرواية اسماءهم كانوا يوظفون اموالهم ويستثمرونها في اعمال تجارية في الطوائف، ويعتقد ان هؤلاء التجار كانوا اثري اهل مكة. والمقطع الاخر من الرواية الذي يؤكد عدم ارتياح هؤلاء لدعوة الرسول (ص)، وخوفهم من تفرق الناس عنهم، وذهاب مكائنتهم، وتزلزل موقعهم، بتحول عامة الناس الى الرسول (ص) وانجذابها الى حديثه وحسن خطابه، وفيما لو انتشرت هذه الدعوة واشتد عودها وقويت شوكة الدين الجديد فلن يكون بمقدورهم بعد هذا استغلال المستضعفين. ويؤيد هذا المقطع من رواية عروة الكلام الذي سقناه في الاستدلال بالايات القرآنية الشريفة وبموجب ذلك قال الكفار (ان تتبع الهدى معك تتخطف من ارضنا).

قريش تناظر و تطلب الدلائل والمعجزات

تصور الايات (٩٠-٩٦) من سورة الاسراء قصة حوار قريش وعنادها ومناظراتها مع رسول الله (ص): (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا، او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفيجرا، او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تاتي بالله والملائكة قبيلا، او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا، وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا ابعث الله بشرا رسولا، قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا، قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم انه كان بعباده خيرا بصيرا). وقد كان جوابا منطقيا... (هل كنت الا بشرا رسولا..) ولو (كان في الارض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) اي ينبغي ان يكون الرسل من جنس من ارسلوا اليهم المرسل اليهم، ولو ان الله ارسل للكافرين ملائكة لقالوا لا نؤمن لهؤلاء الملائكة حتى يرسل

لنا الله بشرا مثلنا. وعلى اية حال فان جواب الرسول عن حقيقة ان الانبياء والرسول يرجعون الى عقول الناس ووجدانهم في تمييز العالم من الجاهل والمسيء من المحسن، والا- لن يكون هناك اى معنى للاختبار والامتحان اذا كانت الامور كلها تجرى بالايات والمعجزات. ان طبيعة الانسان تقتضى انذاره وتحذيره، فان استجاب لهذا التحذير وانتصر على هواه ونزعاته الذاتية، فسيكون قد اثبت انسانيته وكتب له الفوز والنجاح في هذا الامتحان، والافعالعلامات والمعجزات لا تتوافق مع الامتحان والابتلاء. وعلى كل حال، فكما ان عقل الانسان وضميره بمثابة الرسول والمبعوث الالهى الذى اودعه الله داخل النفس الانسانية، كذلك الانبياء والرسول ما هم الا بمثابة وجدان اخلاقى على مستوى المجتمع والامة، فان غلب العقل الفردى وهزم امام الهوى والنزعات النفسية، فسيكون من وظيفة العقل الاجتماعى، الذى هو الرسول، تربيته وايقاظه من غفلته، وذلك بارشاده الى الصواب، وتحذيره من الركون الى هوى النفس ووساوسها الشيطانية، ولو استجاب قوم عاد وثمود وصالح ولوط الذين ذكرهم القرآن الكريم لدعوة انبياء الله ورسله لما هلكوا، فارسال الرياح وتسخير العواصف وانزال المطر ورميهم بالحجارة واخذهم بالطوفان والسيول وتدمير منازلهم، كل ذلك لا يراد به المعانى الحرفية التى تحمل عادة على انها آفات وكوارث دنيوية، بل المراد بها والحق المفسد والمهالك بالمجتمع نتيجة عدم استجابة هؤلاء الاقوام لنداء العقل والوجدان الذى هتف به انبياء الله ورسله، وقد وردت في القرآن الكريم امثلة كثيرة على ذلك، كما ان هناك آلاف الادلة التاريخية التى تثبت هذا المعنى.

ذيل رواية عروة بن الزبير

كتب عروة في رسالته الى الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان يقول: «اثمرت رؤوسهم بان يفتنوا من تبعه عن دين الله من ابنائهم واخوانهم وقبائلهم.. فلما فعل ذلك بالمسلمين امرهم رسول الله (ص) ان يخرجوا الى ارض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشى، لا- يظلم احد بارضه، وكان يثنى عليه مع ذلك صلاح، وكانت ارض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغا من الرزق وامنا ومتجرا حسنا، فامرهم بها رسول الله (ص)، فذهب اليها عامتهم لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن، فمكث هو فلم يبرح، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من اسلم منهم، ثم فشا الاسلام فيها، ودخل فيها رجال من اشرافهم».

الهجرة الى الحبشة واسبابها

اشاره

يتضح من رواية عروة بن الزبير، التى تتجلى فيها آثار الاصاله، ان كفار قريش كانوا قد عقدوا العزم على ان يثنوا المسلمين عن اسلامهم ويردوهم الى دين آباؤهم باى شكل من الاشكال، وقد سلكوا السلوك نفسه الذى سلكه ابو جهل. قال ابن هشام في سيرته: [٢٢٣] «كان ابو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال قريش، اذا سمع بالرجل قد اسلم، وله شرف ومنعة، انه واخزاه، وقال: تركت دين ابيك وهو خير منك، لنسفن حلمك، ولنفيلن رايك، ولنضعن شرفك، وان كان تاجرا قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وان كان ضعيفا ضربه واغرى به»، وبذلك اضطر الرسول (ص) الى ان يامر بعضا من اتباعه بالهجرة الى الحبشة لينجوا من اذى قريش، ويكونوا فى مامن من ذلك. يطرح مونتغمري وات فى كتابه (محمد فى مكة) آراء ل (كايتانى) وآخرين غيره حول هجرة المسلمين الى الحبشة، احد هذه الآراء ما ينقله (وات) عن (كايتانى) من ان: السبب الاول لعدم قبول الهجرتين ان ابن اسحاق، كما يقول ابن هشام والطبرى، لا- يقول صراحة بوجود هجرتين. فهو يقول: وكان اول من خرج من المسلمين. ثم يذكر قائمة صغيرة ويردف قائلا: ثم خرج جعفر بن ابى طالب وتتابع المسلمون. لانلاحظ ذكر اى جماعة عادت لتهاجر من جديد مرة ثانية، ونلاحظ من ناحية ثانية ان القوائم لا تتبع نظام الرحيل الى الحبشة، بل تتبع تنظيميا يقوم على المكانة، حيث نجد ذكر الاسم حسب سجل الخلافة

الذي اخذت منه، نقرأ فيها ان اول من وصل الى الحبشة هو (ابو سبرة) وان (عمر بن سعيد بن العاص) هاجر بعد سنتين من هجرة اخيه خالد. تدل هذه الامثلة كما تدل كلمة «تتابع» انه لم يكن هناك جماعتان كبيرتان بل جماعات صغيرة. ويضيف وات انه بعد ان اصبحت الهجرة احد الامتيازات المهمة للحصول على اعطيات اكثر، فقد كثر من ادعاها، يقول: «عدل الخليفة عمر في السنة ١٥ للهجرة النظام الذي كان المسلمون يتقاضون بموجبه اعطيات سنوية من بيت المال تقديرا لخدماتهم في القتال او في الادارة، وهذه الاعطيات تختلف باختلاف تاريخ اعتناق الاسلام، ذلك لان المسلمين الاوائل كانوا يتقاضون اكبر الاعطيات، وقد اصبحت حسب النظام الجديد في ارفع الطبقات بعد زوجات الرسول واقربائه... وكل من برهن على قيامه بهجرة او هجرتين ينال شرفا رفيعا يؤهله لاحتلال ارفع درجات النبيل في الاسلام. ويضيف وات قائلا: قرر محمد في السنة السابعة للهجرة ان يقوى مركزه بالاعتماد على تأييد الجماعة الصغيرة في الحبشة، فارسل اليهم رسولا- يعدهم بالاستقبال الحار ويصحبهم في طريق العودة، فعادوا او عاد قسم منهم فاستقبلوا استقبالا حافلا ونالوا جزءا من فيء خيبر التي استولى عليها محمدتوه». ويتابع قائلا: ولربما اطلق لفظ الهجرة على مغامرة الحبشة في هذا الوقت على يد محمد نفسه اعترافا بموقف جعفر الكريم وصحبه، واصبح يحق لهم بسبب هجرتهم الى الحبشة ان يعاملوا كمهاجرين، وان يكونوا اندادا للذين اعطوا هذا اللقب. [٢٢٤]. غير انني لا اعتقد بصحة ذلك، لان سورة النحل وهي سورة مكية تقول: (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبئتهم في الدنيا حسنة ولا اجر الاخرة اكبر لو كانوا يعلمون) «النحل: ٤١». ومعلوم ان الهجرة المشار اليها ليس الهجرة الى المدينة، وانما الهجرة الى الحبشة لان الاية مكية، (وقد اشير الى هذا المعنى ايضا في تفسير الطبري، وبناء على هذا فان السفر الى الحبشة قد اطلق عليه في مكة (الهجرة) وقد ذكر هذا المعنى ايضا في القرآن الكريم). اما بشأن الهجرتين الى الحبشة، فيجب القول ان هذا صحيح خلافا لما يرى (كايتاني). يقول (كايتاني) و (وات): «ان هذا المعنى لم يذكر صراحة في سيرة ابن هشام»، بمعنى ان محمد بن اسحاق لم يذكره، لكنهما كانا لا يملكان طبعه القرويين (سيرة محمد بن اسحاق). وقد لخص ابن هشام السيرة المذكورة وحررها طبقا لرواية زياد بن عبدالله البهائي، اما نسخة القرويين فكانت طبقا لرواية يونس بن بكير عن محمد بن اسحاق، كما ان رواية الطبري لسيرة محمد بن اسحاق كانت بطريق (ابن حميد وسلمة). جاء في سيرة محمد بن اسحاق برواية يونس (نسخة القرويين) عند ذكره لاسماء من هاجر الى الحبشة: «وكان ممن هاجر من مكة الى ارض الحبشة قبل هجرة جعفر واصحابه..». ويتضح من العبارة السابقة ان هناك مجموعتين مستقلتين هاجرتا الى الحبشة، كانت الثانية بقيادة جعفر بن ابي طالب. وجاء في سيرة ابن هشام بعد استعراضه لاسماء المهاجرين الاوائل قوله: «فكان هؤلاء العشرة اول من خرج من المسلمين الى ارض الحبشة فيما بلغني» ويضيف ابن هشام قائلا: «وكان عليهم عثمان بن مظعون فيما ذكر لي ب عض اهل العلم». ومن هنا يتضح ان هناك مجموعتين منفصلتين هاجرتا الى ارض الحبشة، كانت الاولى بقيادة عثمان بن مظعون، بينما اسندت قيادة المجموعة الثانية الى جعفر بن ابي طالب اخي امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع). فضلا عن هذا، كان هناك من عاد من ارض الحبشة الى مكة بعد ان سمع الاخبار الكاذبة عن ايمان كفار قريش، ثم ما لبث ان رجع الى الحبشة حين اكتشف عدم صدق تلك الاخبار، وقد اطلق على هذه العودة الهجرة الثانية. لكن التحقيق في الروايات يظهر ان المقصود بالهجرة الثانية انما هو هجرة مجموعة ثانية بقيادة جعفر بن ابي طالب وقد انضمت اليها تلك الجماعة العائدة، والدليل على هذا ما رواه ابن سعد [٢٢٥] عن ام خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص، قالت: «كان ابي خامسا في الاسلام، قلت: فمن تقدمه؟ قالت: ابن ابي طالب، وابن ابي قحافة، وزيد بن حارثة، وسعد بن ابوقاص، واسلم ابي قبل الهجرة الاولى الى ارض الحبشة، وهاجر في المرة الثانية، واقام فيها بضع عشرة سنة». وعند مراجعة سيرة ابن هشام لا نجد اسم خالد بن سعيد بين اسماء المهاجرين العشرة الاوائل في الهجرة الاولى بينما ورد اسمه في قائمة اصحاب الهجرة الثانية. [٢٢٦]. وورد اسم عثمان بن عفان مرتين: مرة مع المهاجرين في الهجرة الاولى، ومرة مع المهاجرين في الهجرة الثانية. وقد صرح ابن سعد في طبقاته [٢٢٧] عند ذكره الهجرة الاولى، والهجرة الثانية قائلا: «لما قدم اصحاب النبي (ص) مكة من الهجرة الاولى اشتد عليهم قومهم، وسطت بهم عشائهم، ولقوا منهم اذى شديدا، فاذن لهم رسول الله (ص) في الخروج الى ارض

الحبشة مرة ثانية، فكانت خرجتهم الاخرة اعظمها مشقة»، ثم يقول: «قال عثمان بن عفان: يا رسول الله، هجرتنا الاولى وهذه الاخرة الى النجاشي، ولست معنا؟ فقال رسول الله (ص): انتم مهاجرون الى الله والى، لكم هاتان الهجرتان جميعا. قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله». وقد سبقت الاشارة الى ان ابن هشام ذكر الهجرة الى الحبشة كما ذكر الاحداث الاخرى بتلخيصه لسيرة ابن اسحاق، ولم يستطع اعطاء صورة كاملة عن الهجرة الى الحبشة واسماء المهاجرين في الهجرتين، كما ان نسخة القرويين ناقصة ايضا فهي لا تحتوى على تفاصيل الهجرتين، ولكننا نعلم من مصادر اخرى ان ابن اسحاق ذكر الهجرتين بشكل صريح، فمن المحتمل جدا ان يكون المهاجرون في الهجرة الاولى هم العشرة الواردة اسمائهم في قائمة ابن هشام، وكانوا طبقا لروايته بقيادة عثمان بن مظعون. اما القائمة الثانية الطويلة التي وردت في سيرة ابن هشام، فانها متضمنة اسماء المهاجرين في الهجرة الثانية الى ارض الحبشة، وقد كان عثمان بن مظعون، الذي قاد المهاجرين في الهجرة الاولى، حاضرا ايضا في الهجرة الثانية التي كانت بقيادة جعفر بن ابي طالب. اما المصدر الاخر الذي ينقل عن سيرة ابن اسحاق فهو طبقات ابن سعد، وبناء عليه فان ابن اسحاق اشار بشكل صريح الى الهجرة الاولى والثانية. يقول ابن سعد في ترجمته عبد الله بن مسعود: [٢٢٨] «هاجر عبدالله بن مسعود الى ارض الحبشة الهجرتين جميعا في رواية ابي معشر ومحمد بن عمر، ولم يذكره محمد بن اسحاق في الهجرة الاولى، وذكره في الهجرة الثانية». وهكذا فانه لم يرد في سيرة ابن هشام اسم (المقداد بن عمر) او (المقداد بن الاسود) في قائمة العشرة ممن هاجروا الى ارض الحبشة، بينما ورد في القائمة الثانية الطويلة. وجاء في طبقات ابن سعد: [٢٢٩] «هاجر المقداد الى ارض الحبشة الهجرة الثانية في رواية محمد بن اسحاق ومحمد بن عمر، ولم يذكره موسى بن عقبه ولا ابو معشر». وما ذلك الا دليل على ان نسخة سيرة محمد بن اسحاق كانت قد ذكرت (الهجرة الاولى) و (الهجرة الثانية) صراحة غير ان ابن هشام اسقطها في تلخيصه، او انه لم يصرح بها في روايته. على اية حال فان (الهجرة الاولى) و (الهجرة الثانية) كانتا قد ذكرتا منذ القدم حتى في رواية محمد بن اسحاق. يقول ابن سعد في ترجمته لعثمان بن مظعون: [٢٣٠] «قالوا: وهاجر عثمان بن مظعون الى ارض الحبشة الهجرتين جميعا في رواية محمد بن اسحاق ومحمد بن عمر». ولا تعني كلمة (قالوا) التي وردت في الرواية ان ابن سعد سمع رواية محمد بن اسحاق او نقلها عن الاخرين، بل تعني ان القول قطعي ومحقق. فمن المسلم به ان ابن سعد كان قد سمع سيرة محمد بن اسحاق وكانت تحت يده. فقد روى ابن سعد سيرة محمد بن اسحاق عن طريق ابراهيم بن سعد بن ابراهيم الزهري. وبناء على هذا، فان كلام مونتغمري وات [٢٣١] الذي يقول: «ونشر من قراءة سيرة ابن اسحاق انه وجد، لبعض الوقت، قائمتان باسماء المهاجرين للحبشة، وانه هو نفسه لم يكن واثقا من صحة القائمتين». وقد راينا نحن عن طريق رواية محمد بن سعد كاتب الواقدي ان ابن اسحاق كان قد صرح بالحقيقة، لكن ابن هشام حذف ذلك ولخصه، وكذلك الطبري فانه بعد ان ذكر اسماء المهاجرين العشرة الاولى (اول من خرج من المسلمين) عن طريق محمد بن اسحاق قال: قال محمد بن اسحاق: ثم خرج جعفر بن ابي طالب وتتابع المسلمون..» ومن هنا يتضح ان الطبري قام هو الاخر باختصار كلام ابن اسحاق، والا لم يقل: «قال». واساسا لا مبرر لقوله: «ثم خرج جعفر بن ابي طالب» بعد ذكره لاسماء المهاجرين العشرة الاوائل. وقال بعد ذلك: «ثم عد اي ابن اسحاق بعد ذلك تمام اثنين وثمانين رجلا بالعشرة الذين ذكرت اسماءهم». ويمثل هؤلاء ال (٨٢) رجلا مجموع المهاجرين في الهجرة الثانية، وكان من ضمنهم العشرة الاوائل اصحاب الهجرة الاولى التي كانت بقيادة عثمان بن مظعون، فانهم كانوا قد عادوا الى مكة بعد ان سمعوا خبر اسلام اهل مكة الكاذب، ثم رجعوا مع من هاجر الى الحبشة، وكان جعفر بن ابي طالب هو قائد المهاجرين هذه المرة. وجاء في طبعه (نسخة القرويين) البند (٢٨١) ما نصه: «فلما اشتد البلاء وعظمت الفتنة، توثبوا على اصحاب رسول الله (ص) وكانت الفتنة الاخيرة التي اخرجت من كان هاجر من المسلمين بعد الذين كانوا خرجوا قبلهم الى ارض الحبشة..» ولم يوضع البند (٢٨١) في موضعه الواقعي في طبعه نسخة القرويين، فقد كان عنوانه (حديث الهجرة الاولى الى الحبشة) في حين ان الموضوع مرتبط بالهجرة الثانية.

وردت اشارة فى رواية عروة بن الزبير التى نقلناها فيما سبق الى ان الحبشة كانت واحدة من البلدان التى تعاملت معها قريش فى التجارة، وقصدها القرشيون لهذا الغرض. اذا كان المهاجرون على معرفة باوضاع الحبشة، ولهذا كانت انطب من غيرها لان تنتخب مكانا للهجرة، ولم تكن مدينة يثرب حينذاك قد بلغت الاوضاع فيها تلك الدرجة من الاطمئنان التى كانت قد بلغت بعد عدة سنوات حين قصدها الرسول (ص) والمسلمون عند الهجرة، ولم يكن باستطاعتهم ان ينعموا بالامن هناك. وكانت الطائف مدينة تربطها علاقات وثيقة جدامع اثرياء قريش، كما ان آلهتها قد تعرضت للهجوم والاستهزاء من قبل الرسول (ص). اضيف الى ذلك ان الهجرة الى بلاد الامبراطورية الفارسية او الرومانية لم تكن مناسبة باى وجه من الوجوه. فكانت الحبشة فضلا عما ذكرنا اقرب من غيرها الى مكة عن طريق البحر من جانب، ومن جانب آخر يحتمل ان لا يكون ملك الحبشة واهلها على قدر كبير من التعصب الدينى، ولهذا كله كانت انطب للهجرة من اى مكان آخر. وقد جاء فى سيرة ابن اسحاق ان الرسول (ص) قال: «لو خرجتم الى ارض الحبشة، فان فيها ملكا لا يظلم احد عنده، وهى ارض صدق».

سبب الهجرة

اعتقد ان اسباب الهجرة هى نفسها الاسباب التى ذكرتها الروايات، والتى تتلخص فى سعى الرسول (ص) الى تجنب اصحابه الاذى والاستهزاء والملاحقة من قبل قريش ولو لفترة معينة، ريثما يتكاثر عددهم ويصبح الوضع اكثر امنا وسلاما للقيام بالنشاطات الاسلامية المطلوبة فى الدعوة والتبليغ للرسالة الجديدة. وذهب (مونتغمري وات) الى الاعتقاد بان سبب الهجرة الحقيقى هو محاولة الرسول (ص) رفع الاختلاف الذى حصل بين مجموعتين من المسلمين، يتزعم احدهما عثمان بن مظعون، بينما يتزعم الثانية ابوبكر، فامر رسول الله (ص) المجموعة الاولى بالهجرة الى الحبشة. ان سببا كهذا الذى يراه (وات) يحتاج الى مزيد من الادلة، اذ انه من المحال ان ينشأ مثل هذا النزاع الذى يقسم المسلمين الى مجموعتين فى ظل زعامة الرسول (ص) التى ليس لها منازع، ولو فرضنا حصول مثل هذا الانقسام بين تلك الجماعة الصغيرة التى تعرضت لشتى صنوف التعذيب من التنكيل والحق الاذى والتهم والملاحقة من قبل كفار قريش، فسيكون من السهل معالجة ذلك بآية قرآنية تحذر من الانقسام وتدين الجهة المخالفة للرسول (ص)، وليس ثمة آية فى القرآن الكريم تتحدث حول هذا الموضوع. وربما اراد الرسول (ص) من الهجرة الى الحبشة امورا اخرى غير الابتعاد عن اذى كفار قريش، كايجاد قاعدة للنموذ الاسلامى هناك واستخدامها ضد الاعداء كما يرى بعض المستشرقين والعمل على تهديد تجارة قريش الحيوية والمهمة جدا مع الحبشة، وتحويل مخاوف قريش وهو اجسها التى تتحدث عنها الاية الشريفة: (نتخطف من ارضنا) الى واقع عملى. اما السؤال عن الاسباب التى دعت الى هجرة جماعة من المسلمين وبقاء جماعة اخرى، فلا- نملك له جوابا ناجعا، سوى ان ذلك من المسائل المرتبطة بظروف المسلمين واوضاعهم الخاصة، وهذا ما لا تتحدث عنه الروايات ولم تات على ذكره، على ان المسلمين لا- يمكنهم الهجرة جميعا وترك الرسول (ص) وحده، وليس بمقدورهم مخالفة رغبته فى بقاء مجموعة منهم معه، رغم جهلنا بالاسباب التى اوجدت عنده مثل هذه الرغبة. واذا ما تابعنا المهاجرين الى الحبشة لتقصى اخبارهم والاطلاع على سبل معاشهم والطرق التى كانوا يؤمنون بواسطتها نفقات حياتهم اليومية خلال تلك المدد الطويلة التى قضوها هناك، فاننا نجد فى رواية عروة اشارة الى ذلك اثناء الحديث عن تجارة قريش مع الحبشة، بحيث يمكن القول ان تمس القرشيين بالتجارة واضطلاعهم بها، جعلهم قادرين على تامين حياتهم حتى فى المهجر من خلال المتاجرة والكسب. وربما كان المهاجرون الذين قضوا فترة اطول فى المهجر اكثر نجاحا فى تجارتهم من اولئك الذين عادوا قبلهم. هناك رواية اوردها البلاذرى [٢٣٢] تقول: «ان ابا طالب كان يمول جعفر بن ابي طالب بالمال اللازم حتى وفاته». وحتى مع صدق هذه الرواية فانه كان لابد لجعفر من مصدر يدر عليه ما يؤمن نفقاته خلال الفترة التى قضاها هناك بعد وفاة ابيه. ويحتمل ان يكون ملك الحبشة هو الممول والمسؤول عن حياة المهاجرين طيلة وجودهم فى مملكته

وتحت حكمه باعتبارهم في حكم اللاجئيين السياسيين. ويفهم من روايات عروة ومحمد بن اسحاق ان الحبشيين لم يظهروا خلال تعاملهم مع الاديان الاخرى نوعا من الشدة والتعصب الديني، فقد عاشت تلك المجموعة الصغيرة المهاجرة الى هناك في امن وسلام. دامت هذه الهجرة من ثلاثة الى اربعة اشهر، فقد جاء في رواية محمد بن اسحاق عن محمد بن عمر ان المسلمين كانوا قد هاجروا الى الحبشة في رجب من السنة الخامسة للبعثة (في حدود سنة ٦١٤م) وامضوا هناك شهرين وثمانين يوما، ولم يعودوا الى مكة الا في شهر شوال من العام نفسه، لسماعهم بسجدة قريش، التي وقعت بموجب هذه الرواية في شهر رمضان. [٢٣٣].

قصة السجدة والغرائق

اشاره

روى ابن سعد في طبقاته عن محمد بن عمر، قال: «حدثني يونس بن محمد بن فضالة الظفري، عن ابيه، قال: وحدثني كثير بن زيد، عن المطلب بن عبدالله بن حنطب، قال: راى رسول الله (ص) من قومه كفا عنه فجلس طالبا فتمنى فقال: ليته لا ينزل على شىء ينفرهم عنى! وقارب رسول الله (ص) قومه، فمدنا منهم ودنوا منه، فجلس يوما مجلسا في ناد من تلك الاندية حول الكعبة، فقرأ عليهم: (والنجم اذا هوى) «النجم: ١» حتى اذا بلغ (افرايمم اللات والعزى، ومنوه الثالثة الاخرى) «النجم: ١٩ - ٢٠» القى الشيطان كلمتين على لسانه: «تلك الغرائق العلى وان شفاعتهن لترتجى» فتكلم رسول الله (ص) بهما، ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعا، ورفع الوليد بن المغيرة ترابا الى جبهته فسجد، وكان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود، ويقال: ان ابا احيحة سعيد بن العاص اخذ ترابا فسجد عليه رفعه الى جبهته وكان شيخا كبيرا، فبعض الناس يقول: انما الذى رفع التراب الوليد، وبعضهم يقول: ابواحيحة، وبعضهم يقول: كلاهما جميعا فعل ذلك. فرضوا بما تكلم به رسول الله (ص)، وقالوا: قد عرفنا ان الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، اما اذا جعلت لها نصيبا فنحن معك، فكبر ذلك على رسول الله (ص) من قولهم حتى جلس فى البيت، فلما امسى اتاه جبريل (ع) فعرض عليه السورة، فقال جبريل: جئتكم بهاتين الكلمتين، فقال رسول الله (ص): قلت على الله ما لم يقل، فاوحى الله اليه: (وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا) الى قوله: (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) «الاسراء: ٧٣-٧٥». ويضيف ابن سعد الى ذلك قائلا: «اخبرنا ابن عمر قال: حدثني محمد بن عبدالله، عن الزهري، عن ابي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، قال: فشت تلك السجدة فى الناس حتى بلغت ارض الحبشة، فبلغ اصحاب رسول الله (ص) ان اهل مكة قد سجدوا واسلموا حتى ان الوليد بن المغيرة و ابا احيحة قد سجدا خلف النبي (ص) فقال القوم: فمن بقى بمكة اذا اسلم هؤلاء؟ وقالوا: عشائرتنا احب الينا. فخرجوا راجعين حتى اذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقواركبا من كنانة فسالوهم عن قريش وعن حالهم، فقال الركب: ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملا، ثم ارتد عنها فعاد لشتهم آلهتهم وعادوا له بالشر. فتر كناهم على ذلك، فائتمر القوم فى الرجوع الى ارض الحبشة، ثم قالوا: قد بلغنا ندخل فننظر مافيه قريش، ويحدث عهدا من اراد باهله ثم يرجع». ثم يضيف: «اخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثني محمد بن عبدالله، عن الزهري، عن ابي بكر بن عبد الرحمن، قال: دخلوا مكة ولم يدخل احد منهم الا بجوار، الا ابن مسعود فانه مكث يسيرا ثم رجع الى ارض الحبشة». وقد روى الرواية السابقة نفسها اهل السير المعترفون عن ابي معشر بن عبد الرحمن السندى المدنى عن محمد بن كعب القرظى، وجاءت فى الطبرى مع اختلاف بسيط عن رواية محمد بن اسحاق، وقد ذكرناها فى اسباب نزول الايتين (٧٣، ٧٤) من سورة الاسراء: (وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا، ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا). وقد اورد محمد بن اسحاق نحوها فى نسخة (القروين) برواية يونس بن بكير بن واصل الشيبانى بصورة موجزة، حيث قال: «فاقاموا حتى بلغهم ان اهل مكة قد اسلموا وسجدوا، وذلك ان سورة النجم انزلت على رسول الله (ص) فقرأها (ص) فانصت لها كل مسلم ومشرك، حتى انتهى الى قوله: (افرايمم اللات والعزى) فاصغوا

له والمؤمنون مصدقون، وارتد ناس حين سمعوا سجع شيطان فقالوا: والله لنعبدن ليقربونا الى الله زلفى. وعلم الشيطان بتلك الايتين كل مشرك وتكلمت بها سنتهم، وكبر ذلك على رسول الله (ص) حتى اتاه جبريل (ع) فشكا اليه هاتين الايتين، وما لقي من الناس بسببهما، ففبرا جبريل (ع) منهما، وقال: لقد تلوت على الناس ما لم آتكم به عن الله عز وجل، وقلت ما لم يقل لك، فحزن رسول الله حزنا شديدا وخاف، فانزل الله عز وجل تعزية له: (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته) الى قوله: (عليم حكيم).

نقد قصة الغرائق

هناك اختلاف فى قصة الغرائق بين تلك التى اوردها الطبرى عن طريق سلمة برواية يونس بن بكير، وتلك التى وردت فى سيرة ابن اسحاق (نسخة القرويين)، اذ يبدو ان يونس بن بكير قد لخصها ورواها مختصرة. اما ابن هشام فقد حذف القصة تماما، ولم يات على ذكرها، وكان ذلك كما يبدو فى وقت بدا فيه المحدثون وعلماء الدين يشككون فى مضمون الرواية، ويترددون فى نقلها. فقد جاء فى صحيح البخارى تحت عنوان (ما جاء فى سجود القرآن وسنتها) نص مقتضب جدا لهذه القصة نوره فيما يلى: «... قال: قرا النبى (ص) النجم بمكة فسجد فيها وسجد من معه غير شيخ اخذ كفا من حصى او تراب فرفعه الى جبهته، وقال: يكفينى هذا، فرايته بعد ذلك قتل كافرا» وجاء فى رواية اخرى فى نفس الباب: «ان النبى (ص) سجد معه بالنجم المسلمون والمشركون والجن والانس..». ورد القاضى عياض فى كتاب الشفاء الرواية نقلًا وعقلا، كما ردها الفخر الرازى فى تفسيره تفصيلا، بينما قال ابن حجر العسقلانى فى شرح صحيح البخارى: ان اختلاف الطرق فى نقل الرواية دليل على اصالة الرواية، وقد وردت هذه الرواية بثلاث طرق تتوفر فيها الشروط المذكورة فى تصحيح السند. لهذا لا بد من الركون الى تاويل ندفع به ما يظهر فيها من سوء وتقصير فى جلال الرسول (ص) وهذا يعنى عدم رده لاصل الرواية. ومن استبعد قصة الغرائق وردها انما اعتمد فى رده لها على اصول العقائد والكلام، اذ التسليم بالقصة كما نقلت وبالتفاصيل التى وردت فيها، قد يؤدى الى تجويز السهو والخطا فى اداء الرسول (ص) للرسالة لا قدر الله حيث تقول ان هناك جملتين نطق بهما الرسول (ص) وقد القاها الشيطان على لسانه، ومن ثم نسخهما الله فيما بعد. والتسليم بهذه يؤدى كما قلنا الى تجويز صدور الخطا عن الرسول (ص) معاذ الله وهذا بدوره يؤدى الى نتائج خطيرة تمس اركان الدين والقرآن الكريم. اعتقد ان قصة الغرائق كما وردت فى الطبرى تنطوى على شىء من التناقض، ومن ناحية اخرى قال ابن حجر: «ان لها اساسا من الصحة والاصالة»، ولكن لا بمعنى تصحيح ما جاء فى الرواية والعياد بالله من نسبة الاشتباه والسهو الى الرسول (ص) الذى نفاه القرآن بشدة واعتبر انه من المستحيل ان يتقول الرسول (ص) على الله شيئا او ان يوسوس له الشيطان فى تبليغ كلام الله، ويبدو ان رواة هذه الرواية لم يلتفتوا الى النتائج الخطيرة المترتبة عليها، ولم يدركوا ما يمكن ان تتيح لاعداء الاسلام من فرص للطعن فى دين الله. اما الذين عرضوا الرواية بهذا الشكل فيبدو انهم كانوا ينساقون وراء دوافع معادية للاسلام، ويحاولون هز قواعد وزعزعة بنيانه من الاساس. ونعود الان الى التناقض والتضاد المشار اليه سابقا، والذى يعترى الرواية فقد جاء فى رواية الطبرى التى ينقلها عن محمد بن اسحاق عن محمد بن كعب القرظى «ان الله انزل على رسوله (ص) سورة النجم، وكان الرسول (ص) قد تلا هذه السورة المباركة على جمع من المسلمين والمشركين حتى وصل الى قوله تعالى: (افرايتم اللات والعزى، ومنوة الثالثة الاخرى) وهنا القى الشيطان على لسانه (ص): «تلك الغرائق العلى، وان شفاعتهن لترتجى» ويبدو ان رواة هذه القصة لم يلتفتوا الى الايتين الثالثة والرابعة من السورة المباركة ذاتها (سورة النجم) التى تقول (وما ينطق عن الهوى، ان هو الاوحى يوحى). وتمضى السورة الى ان تقول: (علمه شديد القوى) «النجم: ٥» فكيف يمكن للشيطان ان يلقي على لسان الرسول (ص) وان ينطق الرسول (ص) بغير ما انزل عليه من القرآن مع وجود هذه التاكيدات القرآنية الشديدة والصريحة النافية لاي نوع من الاشتباه والسهو مهما صغر وتضاءل؟! ان من شان هذه الرواية ان تجيز استيلاء الشيطان على الوحي الالهى فضلا عن تجويزها وقوع الرسول (ص) فى الخطا والاشتباه معاذ الله. وهذا امر منكر يرفضه القرآن ويشجبه

بشدة (ان هو الا وحى يوحى). وهذه نقطة لم يلتفت اليها حتى اولئك الذين ردوا هذه الرواية، فقد اعتمدوا في رفضها على امر واحد فحسب الا وهو انها تؤدي الى اقرار وقوع الرسول (ص) في الخطا والاشتباه. جاء في رواية الطبري عن محمد بن اسحاق: «ان قريشا كانوا قد فرحوا وسرهم واعجبهم ما ذكر به آلهتهم، فاصاخوا له، والمؤمنون مصدقون نبينهم فيما جاءهم به عن ربهم، ولا يهتمونه على خطا ولا وهم ولا زلل، فلما انتهى الى السجدة منها وختم السورة سجد فيها فسجد المسلمون بسجود نبينهم تصديقا لما جاء به واتباعا لامره، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد. ان الايات (٢١، ٢٢، ٢٣) من سورة النجم والتي يفترض انها جاءت بعد هاتين العبارتين الشيطانيتين كانت: (الكلم الذكر وله الاثني، تلك اذا قسمة ضيزى، ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم). وهذا سؤال استنكارى يستبطن الطعن بقريش ويقول: بعد ان جعلتم اللات ومناة والعزى بناتا لله، فتلك اذا قسمة ضيزى، غير عادلة ولا متوازنة، لادن وجوهكم كانت تسود من الحزن لمجرد سماعكم بخبر ولادة بنت لكم، بينما تجعلون ذرية الله من البنات فقط! فهل ستفرح قريش وتبهج لهذا الطعن والقده الذي كالتهما لها السورة المباركة هل تسر قريش وتقول: ان محمدا ذكر آلهتها بخير؟! وهى تسمع القرآن الكريم ياتى على ذكر آلهتها ثم لا يعتبرها اكثر من اسماء ليس الا: (ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم)؟! جاء في هذه الرواية ايضا: ان الرسول (ص) كان قد حزن عند ذلك حزنا شديدا، او خاف من الله خوفا كثيرا، فانزل الله عز وجل، وكان به رحيمًا، يعزيه ويخفف عنه، ويخبره انه لم يك قبله نبي ولا رسول تمنى كما تمنى ولا احب كما احب، الا والشيطان قد القى فى امينته كما القى على لسانه (ص)، فنسخ الله ما القى الشيطان واحكم آياته (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان فى امينته). يبدو ان راوى هذه الرواية نسي ان هذه الاية هي من سورة الحج، وسورة الحج مدينة، او على الاقل انها نزلت على رسول الله (ص) بين مكة والمدينة طبقا لبعض المصاحف واذا فهناك فترة زمنية مقدارها على الاقل خمس او ست سنين بين قصة الغرانيق ونزول سورة النجم. ويلاحظ فى الايتين السابقتين من سورة الحج الطول المعهود فى الايات المدنية، اذن كيف يترك الله تعالى رسوله (ص) فى حزن واسى طيلة خمس او ست سنوات، ثم ينزل عليه ما يعالج به مسأله قد عفا عليها الزمن؟! وكلمة النسخ التى وردت فى الاية لا يقصد بها النسخ المصطلح عليه، من تبديل حكم مكان حكم وآية بدل آية، اذلم تكن الجملتان الشيطانيتان آيتين حتى يقال انهما قد نسختا. فصريح الاية الشريفة ان الشيطان يحاول ان يدخل على امانى الرسل ويتسلل عبرها الى ساحتهم المقدسة، فيتدخل البارى جل شاناه فوراً ليرفع هذه الوسوسة وينسخها قبل ان تخرج من عالم النفس على شكل قول او حديث. وعلى هذا فسوف لن يكون لهذه الاية من سورة الحج اى ارتباط بتلك العبارتين الشيطانيتين، حيث تدعى الروايات ان الرسول (ص) كان قد اعتبر الاية الشريفة من الايات التى نزلت بحق كفار قريش. وبهذا صار من السهل رد الرواية وتفنيدها بناء على تلك الصورة التى نقلت فيها دون حاجة الى البراهين الكلامية والمسائل الاعتقادية، وذلك بالاشارة الى تناقضاتها الداخلية وما تضمنه منها من تضاد وتهافت. ولكن كما اشرنا سابقا فان ابن حجر قال فى شرح صحيح البخارى: ان الرواية طبقا لقواعد الحديث يجب ان تكون قد استندت الى اصل ما او حادثه ما، ولهذا حاول توجيهها وتاويلها تبعاً لذلك. وفى الحقيقة ان رواية صحيح البخارى تنص على ان المسلمين والمشركين كانوا قد سجدوا جميعا مع الرسول (ص) حين تلا آية السجدة من سورة النجم. وهنا يطرح السؤال التالى: ما الذى جعل المشركين يسجدون؟ او ما الذى دعا ذلك الرجل المشرك الى السجود؟، والذى تنقل رواية اخرى فى صحيح البخارى انه اخذ قبضة من التراب ووضع عليها جبهته علامة على السجود. لم تكن الاجوبة التى نقلت خالية من التكلف. منها مثلاً ما نقله (الكرمانى) فى شرح صحيح البخارى، [٢٣٤] حيث قال: لانها كانت اول سجدة نزلت، فانهم لم يشاءوا اظهار المعارضة للمسلمين فى السجود لمعبودهم، او انهم سجدوا بدون قصد و ارادة». وروى العلامة المجلسى [٢٣٥] عن الطبري انه روى عن البلخى المتكلم قوله: «انه من الممكن ان يكون الرسول (ص) قد سبقه لسانه ونطق بهاتين الكلمتين اللتين حفظهما عن قومه بعد ان ذكره الشيطان بهما اثناء تلاوته لسورة النجم، ولكن الله منعه من ذلك». ونحن نعتقد ان كلام البلخى ينطوى على شىء من الحقيقة، فان الرسول (ص) كان قد سمع هاتين العبارتين من قومه، يقول الكلبي: «ان قريش

كانت تطوف حول الكعبة وتردد شعارها المعروف: واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى، فانهن الغرائق العلى، وان شفاعتهن لترتجى». [٢٣٦]. اذن كانت قريش تهتف بهاتين العبارتين حول اللات والعزى ومناة عند طوافها حول البيت، وحين تلا الرسول (ص) الوحي الالهى من سورة النجم حتى وصل الى الاية (١٨) (لقد راى من آيات ربه الكبرى) فوحي اليه الاية التى تليها (افرايم اللات والعزى) يعنى ان الرسول (ص) قد راى من آيات ربه العظمى، فهل رايتم شيئا من اربابكم؟ وهنا ذكر الرسول (ص) هاتين الجملتين اللتين تلهج بذكرهما قريش فى الطواف لاعلى انهما من القرآن، بل للطعن بمعتقدات قريش والاستخفاف باربابهم، واطهار عجز هذه الاسماء (اللات والعزى ومناة)، التى كانت تحتل مقام الربوبية عند العرب، وكانوا يعتبرونهم آلهتهم العليا. ثم سخر القرآن منهم بقوله: (الكم الذكر وله الانثى، تلك اذا قسمة ضيزى)، اى لم تروا انكم زعمتم ان اللات والعزى ومناة هى بنات الله، فى الوقت الذى تكرهون ذلك لانفسكم وتودون ان ترزقوا ذكورا؟! وهنا ظنت قريش ان الرسول (ص) اقر بتلفه بهاتين العبارتين بالهتفا، وانه ايد مقولتها بكلام الله، ولهذا سجدت لالهتها حينما سجد رسول الله (ص). وبهذا التفسير نكون قد حافظنا على اصل رواية الطبرى بدون تجزئتها او تقطيعها، ودون الحاجة الى القول بان الشيطان القى هاتين العبارتين على لسان النبى (ص) وهو يتلو سورة النجم. وكذلك اصبح من المعلوم والمسلم به وفقا لهذا التفسير ان الرسول لم يات بهاتين الجملتين ان كان قد نطق بهما على انهما جزء من القرآن الموحى، وانما للاستخفاف والاستهزاء، فكرر اقوالهم وما يدعونهم عن آلهتهم، فلما سمعت قريش منه ذلك وشاهدته وهو يسجد سجدت معه. وقد نتج عن هذه الحادثة الصغيرة شائعات ترددت فى مكة وخارجها، بان مشركى قريش قد اسلموا، وبوصول هذه الشائعة الى ارض الحبشة قرر المسلمون المهاجرون العودة من هناك الى مكة. اما اولئك الذين يحاولون النيل من كلام الله والنزول بالوحي الالهى الى مستوى البشر وجعله كالسجع الذى كان يتداوله المشركون، فقد وجدوا فى هذه الرواية عونا على تاييد ما ذهبوا اليه من تدخل الشيطان فى الوحي نعوذ بالله من ذلك وتشبثوا بالاية الشريفة من سورة الحج كذريعة لاثبات صحة ما ذهبوا اليه.

قريش تتابع المهاجرين الى الحبشة

والاين لندع الحديث عن الغرائق جانبا ونعود الى المهاجرين الى الحبشة، اذ تقول الروايات ان قريش بعثت باثنين من انشط واشد رجالها الى ملك الحبشة، وحملتهم بمختلف الهدايا الثمينة، فى محاولة لاقتناع ملك الحبشة بضرورة حمل المسلمين المهاجرين على ترك الحبشة والعودة الى مكة. وهنا يطرح تساؤل حول الاسباب التى دعت قريش لتتبع المهاجرين وسعيها لاعادتهم الى مكة فى الوقت الذى تخلصت فيه من ازعاجهم واذيتهم، واصبح بإمكانها التفرغ للرسول (ص) ومن بقى معه من المسلمين فى مكة. علما ان قريش كانت اكثر ما تشكو منه طبقا للروايات هو سب المسلمين لالهتها وتسفيههم لمعتقداتها واحلامها، ففى مثل هذه الحالة تكون قد تخلصت من اذى جماعة كبيرة من المسلمين، او انها على الاقل لم تعد تسمع سبهم لالهتها، اذا لماذا كانت تقلق من بقاء هذه الجماعة من المسلمين فى الحبشة، وتسعى جاهدة لاعادتهم؟ وهنا يتضح السبب الحقيقى وراء مناهضة قريش لرسول الله (ص)، كما اعتقد، ذلك السبب الذى تشير اليه الاية (٥٧) من سورة القصص اذ تقول: (ان تتبع الهدى معك نخطف من ارضنا...). لقد كانت قريش تشعر بمخاوف حقيقية من تاثير المسلمين هناك. وتخشى دخول الاحباش فى الاسلام او دخول ملك الحبشة نفسه فى دين محمد (ص)، وما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة قد تنتهى بقيام الاحباش بالهجوم على مكة وتهديد موقع قريش ومركزها هناك كما جرى فى عهد ابرهة. لهذا سارعت الى تلافى الامر فى بدايته وبعثت كل من عبدالله بن ابى ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل السهمى الى الحبشة، وزودتهم بافخر الهدايا، وخاصة الجلود المكية المعروفة على امل اقتناع ملك الحبشة بطرد المسلمين من هناك. وقد عرف عمرو بن العاص بمكره ودهائه قبل الاسلام وبعده، ولا يخفى دوره فى تثبيت حكم معاوية واستحكامه عندما لجالى حيلته المعروفة فى معركة صفين، ومن ثم مراوغته فى قضية التحكيم وخداعه لابي موسى الاشعري. وطبقا لرواية ام سلمة (زوج الرسول (ص))، التى كانت قد هاجرت مع زوجها ابى سلمة بن الاسد المخزومى [٢٣٧]. قبل زواجها من رسول الله (ص)، فقد جاء فيها انها

قالت: «لما نزلت ارض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشي، امنا على ديننا وعبدنا الله تعالى، لا تؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم على ان يبعثوا الى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وان يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من اعجب ما ياتيها منها الادم، فجمعوا له ادما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقتة بطريقا الا اهدوا اليه هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن ابي ربيعة، وعمرو بن العاص وامروهما بامرهم، وقالوا لهما: ادفعا الى كل بطريق هديته قبل ان تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما الى النجاشي هداياه ثم سلاه ان يسلمهم اليكما قبل ان يكلمهم. فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخيردار عند خير جار، فلم يبق من بطارقتة بطريقا الا دفعا اليه هديته قبل ان يكلمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم انه قد ضوى [٢٣٨] الى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم و جاؤا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا انتم، وقد بعثنا الى الملك فيهم اشراف قومهم ليردهم اليهم، فاذا كلمنا الملك فيهم فاشيروا عليه بان يسلمهم الينا ولا يكلمهم، فان قومهم اعلى بهم عينا، واعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم انهما قدما هدايا هما الى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: ايها الملك، انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا دينك، و جاؤا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا انت، وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشيرتهم، لتردهم اليهم، فهم اعلى بهم عينا، واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه». قالت: «ولم يكن شيء ابغض الى عبدالله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص من ان يسمع كلامهم النجاشي، فقالت بطارقتة حوله: صدقا ايها الملك، قومهم اعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم، فاسلمهم اليهما، فليردهم الى بلادهم وقومهم. فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، اذا لا اسلمهم اليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادى واختاروني على من سواى حتى ادعوهم فاسالهم عما يقول هذان فى امرهم، فان كانوا كما يقولون اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما واحسنت جوارهم ما جاوروني». قالت: «ثم ارسل الى اصحاب رسول الله (ص) فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل اذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما امرنا به نبينا (ص) كائنا فى ذلك ما هو كائن. فلما جاؤا، وقد دعا النجاشي اساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سالهم فقال لهم: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين احد من هذه الملل؟ فكان الذى كلمه جعفر بن ابي طالب، فقال له: ايها الملك، كنا قوما اهل جاهلية، نعبد الاصنام، وناكل الميتة، وناتى الفواحش، ونقطع الارحام، ونسئ الجوار، وياكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثنان، وامرنا بصدق الحديث، واداء الامانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، واكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وامرنا ان نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام» قالت: «فعدد عليه امور الاسلام فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، واحللنا ما احل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا ديننا، ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة الله تعالى، وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا الى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا الا- نظلم عندك ايها الملك! فقال له النجاشي: هل معك مماء جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي فاقراه على. فقرا عليه صدرا من (كهيعص) قالت: «فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت اساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم! ثم قال لهم النجاشي: ان هذا الذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة! انطلقا، فلا والله لا اسلمهم اليكما، ولا يكادون!» قالت: «فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لا يتينه غدا عنهم بما استاصل به خضراءهم. [٢٣٩] فقال له عبدالله بن ابي ربيعة وكان اتقى الرجلين فينا: لا تفعل فان لهم ارحاما، وان كانوا قد خالفونا. فقال: والله لا خبرنه انهم يزعمون ان عيسى ابن مريم عبد! ثم غدا عليه من الغد فقال له: ايها الملك، انهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما، فارسل اليهم فسلمهم عما يقولون فيه. فارسل اليهم ليسالهم عنه». قالت: «ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم؟ فقال جعفر بن ابي طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا، يقول:

هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده الارض فاخذ منها عودا، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود. فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال، فقال: وان نخرتم والله، اذهبوا فانتم شيوم [٢٤٠] بارضى، من سبكم غرم، من سبكم غرم! ما احب ان لى [٢٤١] دبرا من ذهب وانى اذيت رجلا منكم! ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لى بها. فقال: اذهب يا ابن اخى، فقل ما احببت، فوالله لا اسلمك لشيء ابدأ [٢٤٢]. تضمنت رواية ام سلمة بعض النكات التى ينبغى الاشارة اليها، احداها تسمية مبعوثى قريش الى المسلمين المهاجرين ب (غلمان سفهاء) فان ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه سابقا من ان اكثر المسلمين الاوائل كانوا شبانا. والثانية تعريف هذين المبعوثين بانفسهما بانهما رسولا اشراف مكة، وهما صادقان فى ذلك، فان اعداء الرسول الاشداء كانوا كما اشرفنا سابقا اشراف القوم واصحاب النفوذ فيهم. والنكته الثالثة قيام جعفر بن ابى طالب بدور الناطق باسم المهاجرين، مما يعنى ان خطوة قريش هذه، اى ارسالها للمبعوثين (عمرو بن العاص) و (عبدالله بن ابى ربيعة) كانت بعد الهجرة الثانية الى الحبشة، اذ لم يرد اسم جعفر بن ابى طالب فى قائمة المهاجرين فى الهجرة الاولى الى الحبشة، وقد كان جعفر بن ابى طالب قائد المهاجرين فى الهجرة الثانية. اما عن تصديق النجاشي لقول المسلمين: ان عيسى كان عبدالله وكلمة الله وروح الله، فربما يعود الى انسجام ذلك الى حد ما مع عقائد (المونوفيزيين) اى المعتقدين بالطبيعة الواحدة فى عيسى، فقد كان (المونوفيزيت) مذهب النجاشي واهل الحبشة الذى كان يختلف تماما عن مذهب اباطرة بيزنطة وعقيدتهم فى عيسى (المذهب المكابى) وكذلك مع عقائد النسطوريين. ربما اعتبر النجاشي كلمة (عبد) تتطابق مع عقائد (المونوفيزيين) الذين عبروا عن عيسى بما يشبه ذلك التعبير، اذ كانوا يعتبرونه انسانا كاملا وربا فى آن واحد. فاعتبر كلمة (عبد) هنا اشارة الى انسانيته، بينما كانت كلمتا (روح الله) و (كلمة الله) تعبيراً عن ربوبيته، وربما كان ذلك هو السبب وراء تخفيف حدة الاعتراضات التى اثيرت من قبل الاساقفة. لقد كان تاريخ الحبشة فى هذا الوقت اى فى العقد الثانى من القرن السابع مظلما، وكانت الحبشة، وفقا للروايات التى تحدثت عن هجرة المسلمين الى الحبشة، مسرحا للانقلابات الداخلية. هذا وقد وردت بعض القصص عن دخول النجاشي الاسلام واعتناقه الدين الجديد، وربما كانت هذه الروايات غير دقيقة بصورة عامة، غير انها تكشف على اقل تقدير عن ميل النجاشي الى الدين الاسلامى. ونقلت روايات اخرى عن مبعوثى قريش الى ملك الحبشة، منها ما جاء فى (الاجانى)، [٢٤٣] وكانها قصة تدور اكثر فصولها حول الحب والعشاق وما الى ذلك. ويذكر فى هذه الرواية عمارة بن الوليد المخزومى على انه المبعوث الثانى مع عمرو بن العاص بدلا عن عبدالله بن ابى ربيعة، وقد اشتهر عمارة بن الوليد المخزومى فى قريش بشده جماله، وقيل عنه احيانا بانه ارتبط فى هذا السفر بعلاقة حب مع زوجة عمرو بن العاص وزوجة النجاشي، واخيرا صار مع السحرة فى الصحراء، ولا يمكن الاعتماد على هذه الرواية. هذا وقد ورد اسم عمارة بن الوليد فى غير هذه الرواية باعتباره احد مبعوثى قريش، ويعتقد ان اشتهاره بالجمال وحسن الخلقة كان هو السبب وراء افتعال تلك القصص حوله فى (الاجانى).

عودة المهاجرين

هناك اختلاف حول عودة المهاجرين من الحبشة بعد انتشار خبر اسلام اهل مكة، بين روايات ابن اسحاق كما ورد فى الطبرى وسيرة ابن هشام، ورواية الواقدي عن ابن ابى نجيح. فطبقا لرواية ابن هشام عن ابن اسحاق ان العائدين من الحبشة كانوا قد اكتشفوا كذب خبر اسلام اهل مكة قبل دخولهم اليها وعندما كانوا على مقربة منها، فكان دخولهم الى مكة اما بواسطة (الجوار) من قبل احد افراد قريش او بالتخفى والتستر، وذكر اسماء بعض الاشخاص الذين اقاموا فى مكة الى ان هاجروا مع الرسول (ص) الى المدينة وشهدوا بدرأ، اوبقوا محبوسين فى مكة حتى فاتهم المشاركة فى معركة بدر وغيرها، بينما توفى آخرون بمكة، ثم نقلت الرواية قائمة باسماء من عاد الى الحبشة تحتوى على ثلاثة وثلاثين اسما. اما [٢٤٤] الواقدي فقد قال كما مررت الاشارة اليه ان هجرة المسلمين الى الحبشة كانت فى رجب من السنة الخامسة للبعثة، وبقوا هناك شهرى شعبان ورمضان حتى جاءهم خبر السجدة، وكان ذلك فى شهر رمضان، فكانت عودتهم الى مكة فى شوال، وبعد عودتهم لقوا اذى شديدا من قريش وتعاون على ظلمهم البعيد والقريب، الامر الذى

دعا الرسول (ص) الى ان ياذن بالهجرة الثانية الى ارض الحبشة، وكان خروج المسلمين هذه المرة اشد كثيرا من سابقه في الهجرة الاولى حيث ازدادت معاناتهم من قريش سيما بعد ان اصبحت على علم بما وجدته المسلمون من حسن المعاملة وطيب الإقامة عند النجاشي. وقد سال عثمان بن عفان رسول الله (ص): «يا رسول الله، قد هاجرنا ثانية الى الحبشة ولم تكن معنا؟» فقال (ص): «انما هجرتكم الى الله والى، واجر الهجرتين لكم». فقال عثمان: «هذا يكفيني، يا رسول الله». وقد كان عدد المهاجرين في هذه الهجرة (٨٣) رجلا و (١١) امرأة من قريش، و (٨) من سائر الناس، فاقاموا جميعا في الحبشة بامان وسلام واحسان حتى سمعوا بهجرة الرسول (ص) الى المدينة، فهاجر (٣٣) رجلا و (٨) نساء منهم الى مدينة الرسول (ص)، وشهد (١٤) رجلا منهم بدرًا، حتى بعث رسول الله (ص) كتابا الى النجاشي يدعوه فيه الى الاسلام، يحمله عمرو بن امية الضمري في السنة السابعة للهجرة. ويلاحظ، بناء على رواية ابن هشام، ان (٣٣) رجلا، ومن جملتهم عثمان بن عفان، لبثوا في مكة بعد العودة الاولى من الحبشة، ولكن وفق رواية الواقدي فان عثمانا هاجر ثانية الى الحبشة، وكانت هجرته من الحبشة الى المدينة، وبالنظر للترتيب الواقعي والتوالي المنطقي في رواية الواقدي عن ابن نجيح، فاننا نرجحها على رواية ابن هشام الملخصة عن رواية ابن اسحاق والتي تحتل السقط والاختصار، ونقل البلاذري الاحداث وفقا لترتيبها في رواية الواقدي ايضا. وفي هذا المجال كثير من التفصيل، وروايات هذا الباب بحاجة الى مزيد من النقد والتحليل مما لا يتناسب مع حجم كتابنا. وبما ان جعفر بن ابي طالب كان قائد الهجرة الثانية، فان تتبع عمرو بن العاص وعبدالله بن ابي ربيعة للمهاجرين الى الحبشة كان بعد الهجرة الثانية.

ما قامت به قريش ضد الرسول

بعد ان عاد مبعوثا قريش بخفي حنين من الحبشة، تحفرت قريش لانزال مزيد من الاذى والعذاب بالمسلمين داخل مكة وفي مقدمتهم الرسول (ص)، غير انها لم تجد طريقا للاحاق الاذى به غالبا، الا عن طريق المحاربة الكلامية وتوجيه التهم والافتراءات اليه، وذلك لوقوف ابي طالب بصورة خاصة وبني هاشم بصورة عامة الى جانبه (ص) واصرارهم على حمايته والذود عنه (ص). وقد هجموا عليه مرة او مرتين، غير انهم لم يستطيعوا فعل شيء يذكر، بسبب طبيعة النظام القبلي الذي كان سائدا والالتزامات التي يفرضها على الحلفاء في حماية افراد القبيلة، واحيانا كانت تنتهي بنتيجة السب والشتم والتي كان يتعرض لها الرسول (ص) بدلا من الحاق الضرر به، كما في اسلام حمزة بن عبد المطلب الذي كان نتيجة احدى فعال قريش السيئة مع رسول الله (ص).

اسلام حمزة بن عبد المطلب

اشتهر حمزة بشجاعته وجلده وعلو همته، غير انه كان بعيدا عن شؤون مكة السياسية، كما يبدو، ولم يسبق له ان اعار اهتماما خاصا بالدين الجديد الذي جاء به ابن اخيه، لقد كان حمزة صيادا ماهرا، وقد اعتاد على ان يذهب الى البيت الحرام ويطوف حول الكعبة قبل ان يتجه الى منزله في كل مرة يعود بها من الصيد، وفي طريقه الى المنزل كان يمر بتجمعات قريش ويسلم على اهلها ويتبادل الحديث معهم. وبينما كان الرسول يقف يوما قرب جبل الصفا، [٢٤٥] مر به ابو جهل فأذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لامره، فلم يكلمه رسول الله وكان هناك مولاة لعبدالله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك ثم انصرف عنه فعمد الى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم. فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ان اقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص له، وكان اذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش الا- وقف وسلم وتحدث معهم، وكان اعزفتي في قريش واشدهم شكيمه، فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول الله (ص) الى بيته قالت له: «يا ابا عماره، لو رايت ما لقي ابن اخيك محمد آتفا من ابي الحكم بن هشام! وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد (ص)». فاحتمل حمزة الغضب لما اراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على احد معدا لابي جهل اذا لقيه ان يوقع به، فلما دخل المسجد نظر اليه جالسا في القوم، فاقبل نحوه

حتى اذا قام على راسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: «اتشتمه وانا على دينه اقول ما يقول؟ فرد ذلك على ان استطعت». فقام رجال من بنى مخزوم لينصروا ابا جهل، فقال ابو جهل: «دعوا ابا عماره، فاني والله قد سببت ابن اخيه سبا قبيحا. وبقي حمزة على اسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله (ص) فلما اسلم حمزة عرفت قريش ان رسول الله (ص) قد عز وامتنع وان حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا يبالون منه. [٢٤٦].

اسلام عمر بن الخطاب

كان عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى من بنى عدى من قريش، وهو الخليفة الثاني بعد ابي بكر، وفي نظر العلماء والمحدثين من اهل السنة ان عمر افضل الصحابة بعد ابي بكر بن ابي قحافة، وسواء صحت وجهة النظر هذه او لا، فان ذلك لا يؤثر على الحقيقة التاريخية في كون عمر ابن الخطاب كان الخليفة الثاني، ومع هذا المقام الذي كان يحتله عمر يصحح من الضرورى معرفة الاسباب التي جعلته يتاخر اكثر مما يتوقع في اعتناق الاسلام، وبتعبير آخر انه اسلم بعد ان اسلمت شخصيات عديدة اقل منه منزلة بين الصحابة، ولم يحتلوا فيما بعد المقام الذي شغله عمر في الاسلام، لقد اسلم عمر بعد هجرة المسلمين الى الحبشة وفقا لما جاء في الروايات وبالتحديد في السنة السادسة بعد البعثة النبوية، وكان في السادسة والعشرين من عمره، ونظرا لانتمائه الى قريش، ولانه كان من الرجال اللامعين في مكة، فقد اعتبر من شباب المسلمين الاوائل الذين يصنفون عادة الى (احداث، وضعفاء، ومستضعفين). وهنا ينبغي البحث داخل شخصيته لمعرفة السبب وراء تاخره في اعتناق الاسلام، فقد كان عمر كما تؤكد الروايات وكذلك سيرته الشخصية رجلا ذا شكيمة وشدة وصلابة، يصعب اقناعه، ويتعذر تغيير رايه، او تعديل معتقداته. وكان الى جانب ذلك سريع الغضب، عصبى المزاج، خشن الطباع، وقد وصفه الامام على بن ابي طالب (ع) في نهج البلاغة بانه: «حوزة خشاء» ولكنه كان يستسلم للمنطق، وكان مع شدته وخشونته يضعف امام المناظر المؤثرة ويرق قلبه للاحداث المؤلمة، لقد عكست قصة اسلامه هذه الصفات المتضادة والمتناقضة التي انطوت عليها شخصيته. وكان سبب اسلام عمر ان اخته فاطمة بنت الخطاب كانت قد اسلمت واسلم بعلمها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان باسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبدالله النحام رجل من قومه من بنى عدى بن كعب قد اسلم، وكان ايضا يستخفى باسلامه فرقا من قومه، وكان خباب بن الارت يختلف الى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله (ص) ورهطا من اصحابه قد علم انهم اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من الاربعين ما بين رجل وامراه وكان مع رسول الله (ص) عمه حمزة بن عبد المطلب وابو بكر الصديق، وعلى بن ابي طالب، في رجال من المسلمين، ممن كان اقام مع رسول الله (ص) بمكة ولم يخرج الى ارض الحبشة، فلقيه نعيم بن عبدالله، فقال له: «اين تريد، يا عمر؟» فقال: «اريد محمدا هذا الصابي الذي فرق امر قريش، وسفه احلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فاقتله». فقال له نعيم: «والله لقد غرتك نفسك، يا عمر! اترى بنو عبد مناف تاركيك تمشى على الارض وقد قتلت محمدا؟! افلا ترجع الى اهل بيتك فتقيم امرهم؟» قال: «ومن اهل بيتي؟» قال: «ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، واختك فاطمة بنت الخطاب، فوالله لقد اسلما وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما». فرجع عمر الى اخته وختنه، وعندهما خباب بن الارت ومعه صحيفة فيها (طه) يقرئهما اياها. فلما احسوا بقدوم عمر تخبا خباب في مخدع لهم، او في احدى زوايا البيت، واخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب، فلما دخل قال: «ما هذه الهيمنة، [٢٤٧] التي سمعت؟» قالا له: «ما سمعت شيئا». قال: «بلى والله، لقد اخبرت انكما تابعتما محمدا على دينه!» وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت اليه اخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالا له: «نعم، قد اسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدالك»، فلما راي عمر اخته على هذه الحال ندم على ما صنع فارعوى، وقال لاخته: «اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها آنفا، انظر ما هذا الذي جاء به محمد»، وكان عمر كاتبها، فلما قال ذلك، قالت له اخته: «انا نخشاك عليها»، قال: «لاتخافى»، وحلف لها بالهتة ليردنها اذا قرأها اليها، فلما قال ذلك طمعت في اسلامه، فقالت له: «يا اخي،

انك نجس، على شركك، وانه لا يمسه الا الطاهر!» فقام عمر فاغتسل، فاعطته الصحيفة، وفيها (طه) فقرأها، فلما قرأ منها صدرا قال: «ما احسن هذا الكلام واكرمه» فلما سمع ذلك خباب خرج اليه، فقال له: «والله اني لارجو ان يكون الله قد خصك بدعوة نبيه (ص)، فاني سمعته امس وهو يقول: اللهم ايد الاسلام بابي الحكم بن هشام او بعمر بن الخطاب! فآله الله يا عمر!» فقال له عند ذلك عمر: «فدلني يا خباب على محمد حتى آتية فاسلم». فقال له خباب: «هو في بيت عند الصفا في نفر من اصحابه». فاخذ عمر سيفه فتوشمه ثم عمد الى رسول الله (ص) واصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من اصحاب رسول الله (ص) فنظر من خلال الباب فرآه متوشما السيف، فرجع الى رسول الله (ص) وهو فرح فقال: «يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشما السيف»، فقال حمزة بن عبد المطلب: «فأذن له، فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له، وان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه». فقال رسول الله (ص): «أذن له»، فاذن له الرجل ونهض اليه رسول الله حتى لقيه في الحجر، فاخذ حجته [٢٤٨] او بمجمع رداءه، ثم جذب به جذة شديدة، وقال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما ارى ان تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة». فقال عمر: «يا رسول الله، جئتك لاؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله» [٢٤٩]. هذا وقد وردت رواية اخرى عن كيفية اسلام عمر، غير اننا نرى هذه الرواية اكثر انسجاما مع شخصية عمر وخصائصه النفسية، وقد نقلت عن حياته في تاريخ الاسلام تفاصيل كثيرة تشبه ذلك وتؤيده، فخروجه المفاجى من البيت لقتل الرسول تعبير عن تلك الحالة التي كانت تتسم بها شخصيته وهي سرعة غضبه وانفعاله، وكذلك فان حالة الندم وسرعة التأثر والانكسار التي ظهرت عليه بعد فورة الغضب مباشرة والتي نقلت عنه مرارا تعبر ايضا عن تلك الحالة النفسية المشار اليها، ثم تسليمه للمنطق والحجة الاقوى صفة اخرى في شخصية عمر، وميزة ثالثة من مميزاته النفسية، فبمجرد انه قرأ الايات الاولى من سورة (طه) فاذا به يسلم فوراً. كذلك رويت عنه تفاصيل اخرى ايام خلافته اظهرت تسليمه لحكمة علي بن ابي طالب ودرايته بالقضاء، حيث قال مرارا: «لولا علي لهلك عمر». اشتهر عمر بين قومه وعشيرته بصلابته وحدته وشدة تطرفه رغم حداثة سنه، وكان الجميع يحسبون له حسابا، ولهذا نجد الرسول (ص) بناء على صحة الرواية يقرنه بابي جهل على كبرسنه وعلو مقامه في قومه، حيث كان يدعو الله ان يهدي الى الاسلام اباجهل او عمر. وبعد ان اسلم عمر سخر صلابته وشدة لخدمته الاسلام، حتى نقل عن ابن مسعود قوله: «ما كنا نقدر ان نصلي عند الكعبة حتى اسلم عمر بن الخطاب، فلما اسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه». [٢٥٠]. ولكن هناك نوعا من المبالغة في تأثير اسلام عمر وحمزة، فسنرى الرسول (ص) بعد وفاة ابي طالب يبقى دون ناصر ومجير، حيث يضطر بعد عودته من تقيف ان يدخل مكة بجوار احد المشركين، ولم يستطع حمزة او عمر فعل شيء له.

محاصرة بنى هاشم اجتماعيا واقتصاديا

بعدما يستقر قريش من اعادة المسلمين المهاجرين الى الحبشة اليها، وبعدما رفض ابو طالب تسليمها محمدا (ص) ونتيجة لتزايد مخاوفها من انتشار الدعوة الاسلامية بدخول شخصيات مهمة وخطيرة مع مرور الايام في الاسلام، بعد هذا كله جمعت قريش امرها وجلس زعمائها للتشاور في امر محمد (ص) ودينه الجديد، وبعد المداولات توصلوا الى توقيع وثيقة تنص على حرمان بنى هاشم وبنى المطلب من حقوقهم الاجتماعية والمدنية في مكة، لحملهم على التخلي عن محمد (ص)، وكتبوا من اجل هذا كتابا الا يناكحهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم، ثم علقوا هذا الكتاب في جوف الكعبة. وبعد ان فعلت قريش فعلتها تلك، انحاز بنو المطلب اليابي طالب في شعبه مع بنى هاشم. قال ياقوت: [٢٥١]. «شعب ابي يوسف: هو الشعب الذي اوى اليه رسول الله (ص) وبنو هاشم لما تحالفت قريش ضد بنى هاشم وكتبوا الصحيفة، وكان لعبد المطلب فقسم بين بنيه حين ضعف بصره، وكان النبي (ص) اخذ حظ ابيه، وهو كان منزل بنى هاشم ومساكنهم». ولم ينفصل شخص من بنى هاشم سوى ابي لهب عم النبي (ص)، الذي ظاهر قريش على بنى هاشم وبنى المطلب، ومكث بنو هاشم وبنو المطلب في شعب ابي طالب سنتين او ثلاث سنوات وفقا لرواية ابن اسحاق وهم على تلك الحال من الشدة والحصار، لا يصل الى احد منهم شيء الا سرا، وذكروا ان ابا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد ومعه قمح يريد به

عمته خديجة وهي عند رسول الله (ص) في الشعب، فتعلق به، وقال: «والله لا تبرح حتى افضحك»، فجاء ابوالبختري بن هشام، فقال: «مالك وله؟ عنده طعام لعتمته افتمنعه ان يحمله اليها؟ خل سييله». فابى ابوجهل فنال منه، فضربه ابوالبختري بلحى جمل فشجه ووطاه وطاشديدا. [٢٥٢]. وكان احسنهم بلاء في نقض الصحيفة وتوصيل الطعام الى المحاصرين (هشام بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن لؤي)، وهو ابن اخى نضلة بن هشام بن عبد مناف لاهمه وهو احد المحاصرين وكان ياتي بالبعير قد اوقره طعاما ليلا ويستقبل الشعب ويخلع خطامه فيدخل الشعب. [٢٥٣]. وقد كان حصار بنى هاشم وبنى المطلب في الشعب هلال المحرم سنة سبع من تنبى رسول الله. [٢٥٤] وظلوا على هذه الحال مدة ثلاث سنين، لا يخرجون من الشعب الا في موسم الحج، حتى بلغهم الجهد، وسمعت اصوات صبيانهم من وراء الشعب. وعن ابن عباس: «حصرنا في الشعب ثلاث سنين، قطع عنا فيها الطعام، حتى ان الرجل ليخرق من الشعب ليشتري طعاما فلا يبايعه احد، فمات عدد منا». [٢٥٥]. هذه خلاصة عن اخبار الحصار الاقتصادي والاجتماعي الذي فرض على بنى هاشم وبنى المطلب في شعب ابي طالب، كما وردت في تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد، ولنا على ذلك ملاحظات ندرجها فيما يلي: ١- ان الذين حاصرتهم قريش هم وبنو هاشم بنو عبد المطلب ولم تحاصر عامة المسلمين، اي ان ابابكر مثلا الذي هو من بنى تيم، او عمر الذي يعود نسبه الى بنى عدى، او بعض المسلمين الاخرين الذين لم يهاجروا الى الحبشة من غير بنى هاشم، لم يكونوا جزءا من المحاصرين، بقوا في مكة كما كانوا قبل الحصار، ومن جانب آخر نرى بين المحاصرين من لم يدخل الاسلام، فبناء على ما نقله البلاذري ان بنى هاشم دخلوا الحصار اما بسبب اسلامهم او بسبب حميتهم وتعصبهم لعشيرتهم وبنى عمومهم، اذا قامت هذه المحاصرة على اسس قبلية ونعرات عشائرية. والدليل على ذلك موقف بنى هاشم بزعامه ابي طالب عم النبي (ص) المدافع والمحامي ابداعن رسول الله (ص)، ولهذه المسألة ارتباط بالنظام القبلي وكيفية تطبيق العدالة والقانون فيه، اذ لو نهضت قريش لمحاربة بنى هاشم لشب نزاع شامل يجر اليه حلفاء بنى هاشم في حلف الفضول، وقد تحدثت حرب داخلية كذلك الحروب التي تندلع عادة في يثرب، وهذا ما تتجنبه قريش بشدة وتهرب منه لاعتماد اهل مكة، خلافا لاهل يثرب، على التجارة والمتاجرة التي لا تنمو وتزدهر الا في جو من الا من بعيد عن الحروب والمنازعات. ولهذا لم تسفر تلك المحاصرة، وخصوصا الاقتصادية منها، عن نتائج مهمة، فبنو هاشم قوم يصعب عزلهم واحكام الحصار عليهم لكثرة تشعباتهم وارتباطاتهم الاجتماعية مع الاقوام والطوائف الاخرى بواسطة الزواج وغيره، كما ان لبنى هاشم محبين ومناصرين في القبائل الاخرى، وللقبائل الاخرى اقرباء وارحام في بنى هاشم لا يرضون بحرمانهم وتعرضهم للجوع. لقد فرضت هذه المحاصرة بتاثير وقيادة بنى مخزوم الذين كانت لهم الكلمة الاولى واليد الطولى في قريش، وكان زعيمهم ابوجهل كما تشير الروايات اكثر الناس حماسا لها واشدهم تحريضا عليها، كان ابوجهل يدرك تماما خطر انتشار الاسلام في مكة على زعامته وعلى موقع بنى مخزوم في قريش. ٢- يبدو ان فترة ثلاث سنوات او حتى سنتين من المحاصرة فترة طويلة لا يمكن تحملها. اذ لا تستطيع طائفة معينة تحمل مثل هذا الحصار داخل منازلها تلك المدة الطويلة، حتى مع حصول بعض الاختراقات من وصول بعض المساعدات سرا وخفية. ويبدو ان المحاصرة اخذت تشتد فيما بعد، حتى تحدثت الروايات عن انه كانت تسمع صرخات الصبيان المحاصرين في الشعب، ولم يكن الامر كذلك في بدايته، وكان يمكن لبنى هاشم ان يجدوا من يتعامل معهم، اما من قريش نفسها او من خارجها، ولهذا السبب طالت المحاصرة وامتد امدها، وللسبب استطاع بنو هاشم الصبر عليها وتحمل مشاقها، الى ان قررت قريش تشديد الحصار ومراقبة كافة عمليات البيع والشراء مع افراد بنى هاشم داخل الشعب، وقد ادى ذلك الى توقف كافة اشكال المساعدات والعون او ندرتها. وقد ذكر في انساب الاشراف ان العباس بن عبد المطلب، الذي لم يسلم يومئذ، خرج من شعب ابي طالب ليشتري طعاما، فاراد ابوجهل ان يسطو به، فمنعه الله منه، وارسلت خديجة بنت خويلد الى زمعة بن الاسود: ان ابا جهل يمنع من ابتياع ما نريد، فاسمع اباجهل كلاما، فاسمعه فامسك. ويبدو ان هاتين الحادثتين مع واقعة ارسال الطعام من قبل حكيم بن حزام الى عمته خديجة، قد حصلت في مرحلة وصول الحصار الاقتصادي الى الذروة من المضايقة والشدة التي ادت الى الغائه. اذ لو كان الحصار الاقتصادي ومنع وصول الطعام بهذه الدرجة من الشدة والصرامة منذ البداية لما استطاع بنو هاشم الثبات

لستين او ثلاثة من الحصار.

نقض الصحيفة

انتهى الحصار اخيرا، واستطاع بنو هاشم الخروج من شعب ابي طالب، وقد ذكر في اسباب فك الحصار ونقض الصحيفة علتان، تبتنى احدهما على اساس تاريخي، بينما تقوم الثانية على اساس ديني، ولكن لا يوجد تنافى بين الرواية ذات المنحى التاريخي مع الرواية ذات الصبغة الدينية، لذا نحن ننقل الروايتين بدأ بالاولى التي يمكن تلخيصها كالتالي: ان هناك خمسة اشخاص من خمسة بطون مهمة في قريش تعاهدوا سرا على ان يعلنوا يوما، وعندما تجتمع قريش في مسجد مكة عن انهم سينقضون هذه الصحيفة او المعاهدة. ومن الجدير بالذكر ان التعرض لهؤلاء الخمسة قد يؤدي حرب داخلية، لانهم ينتمون الى خمسة بطون مهمة في قريش، ولكل واحد منهم انصار ومؤيدون في قومه، يشدون ازره ويسهلون عليه تنفيذ قراره. كان احد هؤلاء الخمسة هاشم بن عمرو بن ربيعة من بنى عامر بن لؤي، وكان عم امه نضلة بن هاشم بن عبد مناف من بنى هاشم المحاصرين. اما الثاني فهو زهير بن ابي امية المخزومي من بنى مخزوم، وامه عاتكة بنت عبد المطلب، وخاله احد المحاصرين. اما الثلاثة الاخرين فقد كان اثنان منهم من بنى اسد وهما: ابو البختری بن هشام وزمعة بن الاسود، وكان بنو اسد احلاف بنى هاشم في حلف الفضول. اما الخامس فهو مطعم بن عدى، من بنى نوفل، وهم ايضا جزء من حلف الفضول طبقا لرواية اوردتها ابن هشام، [٢٥٦] على ان اخبار حلف الفضول في (المنموق) و (المحبر) و (سيرة ابن هشام) لم تات على ذكر دخول وخروج بنى نوفل وبنى عبد شمس، اذ لا ذكر لهذا الخبر سوى في تلك الرواية المشار اليها التي رواها حفيد مطعم بن عدى لعبد الملك بن مروان وصدقها الاخير، وهناك قرينة اخرى على صحة الخبر المذكور في تلك الرواية، وهي عبارة عن ابيات من الشعر انشدها ابوطالب وهو يشكو قريشا حين شددت من ضغطها على رسول الله (ص) وعمه. احد هذه الابيات كما رواها ابن هشام: [٢٥٧]. فاحص خصوصا عبد شمس ونوفلا هما نبذانا مثل ما ينبذ الجمر ويبدو ان هذا التخصيص في ذكر بنى نوفل وبنى عبد شمس دون باقى الخصوم لارتباطهم بحلف الفضول. ويقول ابوطالب في قصيدة اخرى، يشكو بها ايضا قريش لخذلانها رسول الله (ص)، ويوجه لومه بصورة خاصة الى مطعم بن عدى الذى يقول انه طلب منه العون يوما فلم يبخل عليه فى شىء غير ان مطعم لم يحفظ له ذلك الموقف، حيث يقول: فجزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجلا غير آجل [٢٥٨]. وهذا دليل آخر على خصوصية هاتين الجماعتين (بنى عبد شمس ونوفل)، لذلك خصهما ابوطالب بهذا العتاب، وذكر مطعم بن عدى بما بذله له من عون ومساعدة، وسبب تلك الخصوصية على ما يبدو ارتباطهم بحلف الفضول. على اية حال نفذ هؤلاء الخمسة ما تعاهدوا عليه، فاعلنوا عزمهم على نقض الصحيفة على رؤوس الاشهاد عند الكعبة، ولم يفلح ابوجهل فى صدهم عن ذلك رغم ما بذله من جهود، فقد عمد مطعم بن عدى الى الصحيفة وانتزعها عن جدار الكعبة ثم مزقها. وتقول الرواية الثانية: ان رسول الله (ص) اخبر اباطالب بان الصحيفة قد اكلتها الارضة، فلمست كل ما كان فيها من قطعة غير (باسمك اللهم) فذكر ابوطالب ذلك لكفار قريش وقال لهم: «ان ابن اخى اخبرنى ولم يكذبنى قط ان الله قد سلط على صحيفتكم الارضة، فلمست كل ما كان فيها من جور او ظلم او قطعة رحم، وبقى فيها كل ما ذكر به الله، فان كان ابن اخى صادقا نزعتم من سوء رايتكم، وان كان كاذبا دفعته اليكم فقتلتموه او استحيتتموه»، قالوا: «قد انصفتنا»، فارسلوا الى الصحيفة ففتحوها، فاذا هى كما قال رسول الله (ص)، فسقط فى ايديهم، ونكسوا على رؤوسهم، فقال ابوطالب: «علام نجس ونحصر وقد بان الامر»؟ ثم دخل هو واصحابه بين استار الكعبة، فقال: «اللهم انصرنا ممن ظلمنا وقطع ارحامنا واستحل ما يحرم عليه منا»، ثم انصرفوا الى الشعب. وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببنى هاشم، فيهم: مطعم بن عدى، وعدى بن قيس، وزمعة بن الاسود، وابو البختری بن هاشم، وزهير بن ابي امية، ولبسوا السلاح، ثم خرجوا الى بنى هاشم وبنى المطلب، فامرهم بالخروج الى مساكنهم ففعلوا. [٢٥٩]. وليس هناك من تناقض بين الروايتين، وقد يكون تسلط الارضة على الصحيفة امرا عاديا عندما تكتب الصحيفة على مادة لا يؤمن عليها من الارضة فى ذلك الجو الحار الذى كانت عليه مكة، علما ان التدخلات

الالهية والدعم الرباني عادة ما يتم في اطار القوانين الطبيعية.

وفاة خديجة و ابي طالب

كان خروج بنى هاشم من الشعب في السنة العاشرة من البعثة النبوية طبقا لما ورد في انساب الاشراف. [٢٦٠]. وفي هذه السنة فقد رسول الله (ص) كلا من زوجته خديجة وعمه ابي طالب، وقد اختلف في تحديد اليوم الذي فارق فيه ابوطالب الحياة، فقيل: في الاول من ذي القعدة، وقيل: في النصف من شوال من السنة نفسها (اي العاشرة بعد البعثة). ووقع خلاف ايضا في الفترة الواقعة بين وفاة خديجة ووفاء ابي طالب، فبين قائل انها كانت ثلاثة ايام فقط، وقائل خمسة ايام، وقيل: انها كانت خمسة وعشرين يوما.

اسلام ابي طالب

وردت رواية في سيرة ابن اسحاق [٢٦١] عن وفاة ابي طالب تشعر بان لم يسلم حتى فارق الحياة. وقال عنه الرسول (ص): «هو في ضحضاح من نار». وقد طرحت قضية اسلام ابي طالب كواحدة من الامور التي دار حولها خلاف بين الشيعة ومعارضيه منذ القدم، ففي الوقت الذي يذهب اكثر اهل السنة الى انه مات مشركا، تصر الشيعة على اعتقادها بان مات مسلما موحدا، وقد تطرق ابن ابي الحديد المعتزلي الى هذه المسألة في ج (١٤) من شرح نهج البلاغة بالتفصيل وعرضها على ضوء ادلة الفريقين، غير انه توقف واحجم عن اعطاء الراى فيها. هذا وقد كتبت ابحاث عديدة حول اسلام ابي طالب بعضها مطبوع. ولسنا هنا في معرض اعطاء الراى في هذه الادلة او تلك، لذا نترك الكلام في هذه المسألة، لانها خرجت عن اطارها التاريخي واتخذت طابعا مذهبيا او كلاميا، غير ان ذلك لا يمنعنا من الاشارة الى موقف ابي طالب المحامى ابدا عن ابن اخيه منذ بعثته وحتى السنة العاشرة للبعثة، وهي السنة التي توفي فيها ابوطالب، وهو ما تعكسه سيرة الرسول (ص) خلال تلك الفترة بشكل واضح لا غبار عليه. وبسبب هذه الحماية الشديدة والمستمرة تعرض ابوطالب مع بنى هاشم وبنى المطلب جميعا لحصار مر دام ثلاث سنين في شعب ابي طالب، وقد اجمع اصحاب السيرة على ان حماية ابي طالب وذوده عن ابن اخيه هما اللذان حالوا دون وصول قريش اليه (ص)، وقد حزن الرسول (ص) لوفاته حزنا عميقا، وعادت قريش تحاول الحاق الاذى به، فاضطر الرسول (ص) الى ان يذهب الى الطائف، وعند عودته دخل مكة بجوار مطعم بن عدى. وعلى ضوء هذا الدعم وتلك الحماية، ومع فرض عدم ايمانه، فهل يمكن ان يكون جزاء مثل هذا العم الودود الشهم ان يخلد في ضحضاح من نار؟! اذا فما هو الفرق بينه وبين ابي لهب في هذا المجال؟! والقول: (ان في جهنم ضحضاحا وغمرا، وان مقام ابي طالب في الضحضاح)، لا يحل المشكلة. ولا يمكن ان يكون جزاء من ضحى وتفانى في سبيل الاسلام الضحضاح لا الغمر. نحن نعتقد ان الروايات التي تتحدث عن بقاء ابي طالب على شركه الى ان فارق الحياة روايات موضوعة، وضعها بنو امية لشدة عدائهم لعلى (ع) وابيه وابنائهم، او وضعها بنو العباس لحسدتهم وحقدهم على العلويين بما امتازوا به من فضائل عليهم. وسياتي الحديث عن موقف ابي سفيان بن حرب الذي ظل يناصب الاسلام العداء هو وابناؤه حتى فتح مكة وقتل كل من خال معاوية واخيه في معركة بدر على يد حمزة بن عبد المطلب وعلى بن ابي طالب (ع). ولم تنته هذه العداوة حتى بعد مقتل عثمان ومطالبة معاوية بالخلافة وشهادة على (ع) في السنة الاربعين للهجرة، بل زادت تلك الاحداث حدة واتقادا. فقاد معاوية وبعده خلفاء بنى امية حملة واسعة لتشويه صورة على وابنائهم (ع) واستمرت هذه الحملة الشرسة الى ايام خلافة عمر بن عبد العزيز. لقد كان سبق على (ع) الى الاسلام وتضحياته الجسام من اجله في الغزوات العديدة، وكذلك حماية ابي طالب ودفاعه القوي عن ابن اخيه، من فضائل على واهل بيته (ع) التي لا يتسنى لاحد انكارها، فلم يجد بنو امية مغمزا ولا مطعنا يمكنهم من خلاله الطعن بعلى (ع) غير ادعاء عدم اسلام ابي طالب في الوقت الذي اسلم فيه ابوسفيان والد معاوية! ومن المحتمل جدا ان يكون انصار بنى امية ودعاتهم هم الذين عملوا على اخفاء روايات اسلام ابي طالب ووضعوا مكانها الاخبار التي تتحدث عن حشره في النار، ليمسوا من هذا الباب جلال على وابنائهم بتوجيه الطعن اليهم، وقد وجد من

بين دعاة بني امية من كان ساذجا الى الحد الذي اضحى كل اهتمامه هو نقل الروايات على ظاهرها وسندها، ولم يلتفت الى مدى انسجامها في مضامينها، اذ كيف يبشر الرسول (ص) عمه اباطالب بالنار ويتغاضى عن تضحياته وصبره واخلاصه في حين يامر في معركة بدر ان لا يتعرض احد لحياة المشركين الذين لم يسبق لهم ان آذوه ويطلب احضارهم سالمين اليه؟ وحصلت القضية ذاتها في العهد العباسي، حيث سعى بنو العباس الى ان ينسبوا الى العباس عم النبي، الذي لم يقدم شيئا مهما لصالح ابن اخيه ايام البعثة الشريفة، المزيد من الفضائل والكرامات، وعلى العكس فقد عملوا على ترويح الروايات التي من شانها المساس بمنزلة جد العلويين ابي طالب والحط من شأنه. وبناء على ذلك، فاننا نعتقد ان التعصب العائلي والحمية القبلية لم يكونا السبب الوحيد في دفاع ابي طالب عن ابن اخيه، وانمالا بد ان يكون وراء هذا الدفاع المستميت وتلك الحماية الدائمة، التي لم تفتت ابدا، ايمان بالاسلام واعتقاد برسالته. [٢٦٢].

السفر الى الطائف

تقع الطائف على بعد اثني عشر فرسخا من مكة، وكانت مستوطنا لقبيلة ثقيف، من قبائل هوازن ايام الرسول (ص)، وتكثر فيها الكروم، وكان لا ثرياء قريش بساتين هناك، وقد اشتهر اهلها بالثراء والمراباة. قرر الرسول (ص) السفر اليها بعد ان ضاق عليه الخناق واشتد اذى قومه في الفترة التي تلت وفاة خديجة وعمه ابي طالب، وكان يعزم على دعوة اهلها الى الاسلام عله يجد فيهم عوناً على قريش. وقال بعضهم: «انه كان وحيدا في هذا السفر». بينما قال آخرون: انه ذهب بمعيه مولاة زيد بن حارثة. ولما انتهى رسول الله (ص) الى الطائف، عمد الى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف واشرافها، وكانوا ثلاثة اخوة، فجلس اليهم رسول الله (ص) فدعاهم الى الاسلام وافصح لهم عن رغبته في طلب نصرتهم على من خالفه من قومه، فردوا دعوته وهم من عائلة نيرة بن عوف بن ثقيف فقام رسول الله (ص) من عندهم، قائلا لهم: «اذا فعلتم فاكموا عني». وكره رسول الله (ص) ان يبلغ قومه عنه، فيذئذهم [٢٦٣] ذلك عليه. فلم يفعلوا واغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونهم ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، والجاوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء قريش من كان يتبعه، فعمد الى ظل حبله [٢٦٤] من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما لقي من سفهاء اهل الطائف. فلما رآه ابنا ربيعة: عتبة وشيبة (وهما من بني عبد شمس) وشاهدا ما الم به تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا، يقال له (عداس) فقالا له: «خذ قطفا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به الى ذلك الرجل فقل له ياكل منه». ففعل عداس، ثم اقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله (ص)، ثم قال له: «كل» فلما وضع رسول الله (ص) يده قال: «باسم الله». ثم اكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: «والله ان هذا الكلام ما يقوله اهل هذه البلاد!» فقال له رسول الله: «ومن اي البلاد انت يا عداس، وما دينك؟» قال: «نصراني، وانا رجل من اهل نينوى». [٢٦٥] فقال رسول الله (ص): «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى!» فقال له عداس: «وما يدريك ما يونس بن متى؟» فقال رسول الله: «ذاك اخي، كان نبيا وانا نبي!» فاكب عداس على رسول الله (ص) يقبل راسه ويديه وقدميه. قال: «يقول ابنا ربيعة احدهما لصاحبه: اما غلامك فقد افسده عليك! فلما جاءهما عداس قالوا له: ويلك يا عداس مالك تقبل راس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي، ما في الارض شيء خير من هذا، لقد اخبرني بامر ما يعلمه الانبي! قالوا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فان دينك خير من دينه!» ثم ان رسول الله (ص) انصرف من الطائف راجعا الى مكة، حين يئس من خير ثقيف، حتى اذا كان بنحلة [٢٦٦] قام من جوف الليلي [٢٦٧] صلى. ويقال: ان الايات التي تتحدث عن الجن وكذلك سورة الجن قد نزلت في هذا المكان. كان سفر الرسول (ص) الى الطائف بداية مرحلة جديدة في سياسته (ص) في الدعوة الى الاسلام، فقد قام اولا بدعوة اقاربه وعشيرته كما امر بذلك: (وانذر عشيرتك الاقربين) فكان اكثر همه متجها الى عوائل قريش واشراف مكة، فلما لقي منهم ما لقي من الاعراض عن الاسلام والاصرار على الكفر والضلالة، وبعد ان تضاعف عليه الاذى من قومه بعد وفاة حاميه الاكبر عمه ابي طالب، بدا الرسول (ص) يخطط لدعوة القبائل العربية الاخرى الى رسالته، وبدا باقرب القبائل واكثرها قوة وثراء وهي ثقيف، غير انها رفضت دعوته لما كان لها من علاقات اقتصادية واجتماعية وثيقة مع قريش،

ولشعورها بالخطر المحقق بالههم الاكبر (اللات)، التي كانوا يطلقون عليها (ربة)، من جراء هذه الدعوة، وبانه لو سقطت ربتهم فسوف تكون تبعية ثقيف لمكة وقريش مطلقة. لقد اوصدوا الابواب بوجه الرسول (ص) وقد فاتهم بذلك شرف عظيم. «وفى طريق عودته (ص) الى مكة، مر به بعض اهل مكة، فقال له رسول الله (ص): هل انت مبلغ عنى رساله ارسلك بها؟ قال: «نعم»، قال: «انت «الاخنس بن شريق» فقل له: يقول لك محمد: هل انت مجيرى حتى ابلي رساله ربي؟ قال: فاتاه، فقال له ذلك، فقال له الاخنس: ان الحليف لا- يجير على الصريح. قال: فاتى النبى (ص) فاخبره، قال: تعود. قال: نعم، قال: انت سهيل بن عمر فقل له: ان محمدا يقول لك: هل انت مجيرى حتى ابلي رسالات ربي؟ فاتاه فقال له ذلك قال: فقال ان بنى عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب. قال: فرجع الى النبى (ص) قال: تعود، قال: نعم، قال: انت المطعم بن عدى، فقل له: ان محمدا يقول لك: هل انت مجيرى حتى ابلي رسالات ربي؟ قال: نعم فليدخل، قال: فرجع الرجل اليه فاخبره، واصبح المطعم بن عدى قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو اخيه فدخلوا المسجد، فلما رآه ابو جهل قال: امجير ام متابع؟ قال: بل مجير. قال: فقال: قد اجرنا من اجرت، فدخل النبى (ص) مكة». [٢٤٨]. والمهم فى هذه الرواية انها تكشف عن ان الرسول (ص) لم يعد يملك بعد وفاء عمه ابى طالب من يدافع عنه من انصاره، ومن له القدرة على مواجهه قريش، بما فيهم حمزة وابوبكر وعمر، الامر الذى اضطره الى طلب جوار مشرك من مشركى مكة.

الرسول يعرض دعوته على القبائل

بعد عودة الرسول (ص) من الطائف عزم على اجراء تغيير شامل فى سياسته الخاصة بالدعوة لرسالته، فقد يش بعد سفره هذا من مكة وقريش واهل الطائف المرتبطين باهل مكة بعلاقات وثيقة جدا، وقد شكل هذا التغيير الذى من المؤكده حدث بامر وهداية الهية منعظا كبيرا فى تاريخ الدعوة الاسلامية واتساع رقعة الاسلام، حيث ادى ذلك الى خروج الاسلام من دائرة مكة وانتشاره فى شبه الجزيرة العربية بصورة عامه، ومن ثم فى انحاء العالم المتحضر آنذاك. لقد كان الامر الالهى يتركز فى البداية على دعوة الاقربين الى الدين الجديد: (وانذر عشيرتكم الاقربين) «الشعراء: ٢١٤». وبعد ان اعرض هؤلاء الاقربون عن هذه النعمة الالهية وواجهوا صاحبها بالاذى والتنكيل وعملوا على محاربه ومحاصرته مع بنى هاشم اقتصاديا واجتماعيا فى شعب ابى طالب، وتجاوزوا الحدود فى ظلمه واضطهاده. بعد هذا كله لم يبق امامهم عذر يعتذرون به، وتمت الحجة عليهم فآن الاوان لان يكسر الاسلام هذا الطوق وينطلق خارج حدود المدينة الواحدة والقبيلة الواحدة. لقد قرر الرسول (ص) بعد عودته من الطائف دعوة القبائل الاخرى الى الاسلام. ومن الجدير بالذكر ان هناك من بين المسلمين الاوائل من كان يرجع فى انتمائه القبلى الى قبائل اخرى غير قبيلة قريش، لكنه كان يقيم فى مكة اما بالجوار او بالتحالف او بامور اخرى، وكان اسلام هؤلاء الافراد اسلما فرديا وكان جزءا من اسلام قريش نفسها لارتباطهم بها بالتحالف او الجوار او ما الى ذلك. فاسلام ابى ذر الغفارى مثلا لا يعنى اسلام قبيلة غفار باكملها او انضمامها الى معسكر الاسلام واعلان حمايتها له والدفاع عنه. ولا ينبغى ان يفهم من هذا الكلام ان الرسول (ص) كان يخصص فى دعوته القرشيين داخل مكة ولم يدع غيرهم خارجها، بل ما نريد قوله هنا ان دعوة هؤلاء الى الاسلام ان حصلت فى السابق فقد حصلت بصفة فردية ولم يخاطبهم الرسول (ص) بصفته ممثلين عن قبائلهم التى ينتسبون اليها. اما سفر الرسول (ص) الى الطائف ودعوته لقبيلة ثقيف، فيبدو انها كانت تندرج فى محاولاته (ص) لادخال قريش فى الاسلام دون اراقة دماء، وذلك لشدة ارتباط ثقيف بقريش وكثرة الوشائج بينهما. لم يبق امام الرسول (ص) بد من التحرك لدعوة القبائل الاخرى بعد ان ينس من الطائف واهلها. وقد اختار الرسول (ص) ان يبقى فى مكة يدعوه هذه القبائل اثناء قدومها فى مواسم الحج، بدلا من الذهاب اليها، لما كان ينطوى عليه ذلك العمل من خطر جدى على حياته (ص)، اما بقاؤه فى مكة فقد كان يوفر له حماية بنى هاشم وحلفائهم. وهكذا كان الرسول (ص) يدعوه هؤلاء القادمين فى مواسم الحج الى الدين الجديد، ويوصى من يسلم منهم ان يكون داعية لقومه وعشيرته بعد عودته، وبهذه الطريقة فشا امر الاسلام وانتشرت اخباره فى انحاء شبه الجزيرة العربية، وقد تحدثت كتب السيرة عن دعوة الرسول (ص) لقبائل كنده وبنى كلب وبنى حنيفه

وبني عامر بن صعصعة وبني عبس وغسان وبنيالمحارب وشيبان بن ثعلبة. [٢٦٩]. وقد وردت رواية في عيون الاثر [٢٧٠] تؤيد ما ذهبنا اليه من ان الرسول (ص) توجه في دعوته الى القبائل الاخرى بعد ان يئس من قريش، وجاء في الرواية عن جابر بن عبد الله الانصاري، انه قال: «كان النبي (ص) يعرض نفسه على الناس في الموقف، ويقول: الا رجل يعرض على قومه، فان قريشا قد منعوني ان ابلغ كلام ربي». وقد ردت بعض هذه القبائل دعوة الرسول (ص) بلطف ولين، بينما جابتهها قبائل اخرى بخشونة وعنف، حتى فعلت الرعاية واللطف الالهيان فعلهما، فلبى اهل يثرب نداء الرسول (ص) ودعوه الى مدينتهم، وكان ذلك اهم منعطف في تاريخ الدعوة الاسلامية.

باورقي

[١] شد مبدل اين جو چند بار عكس ماه وعكس اختر بر قرار.

[٢] الموققيات، طبعه بغداد، ص ٣٣١ الى ٣٣٤.

[٣] خلافته بين عامي (٩٦ الى ٩٩هـ).

[٤] ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٨ / ٢، ٩.

[٥] الاغانى: ٣٣ / ٣١.

[٦] المصدر نفسه: ص ١١.

[٧] مقدمة ابن خلدون: فصل (في ان الصريح من النسبانما يوجد للمتوحشين).

[٨] مقدمة ابن خلدون: فصل (في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب).

[٩] الاغانى، ١٤ / ١٤٤.]

[١٠] المصدر نفسه: ٢٢ / ١٤٧.

[١١] نهاية الارب: ج ٢.

[١٢] سيرة ابن هشام: ١ / ١٢.

[١٣] البلاذري، فتوح البلدان، طبعه مصر، ١٣١٧ هـ، ص ٤٥٤.

[١٤] ابن حزم، جمهرة انساب العرب: ص ١٥.

[١٥] سيرة ابن هشام، ١ / ١١٧.

[١٦] المصدر نفسه: ١ / ١٨.

[١٧] ابن حزم، الملل والنحل، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

[١٨] سيرة ابن هشام، ١ / ٨٠.

[١٩] المسعودي، مروج الذهب، ٢ / ١٧٥.

[٢٠] الازرقى: ص ٦٣، ٦٤.

[٢١] ابن سعد، الطبقات: ١ / ٣٨، سيرة ابن هشام: ١ / ١٣٢.

[٢٢] السهيلي، روض الانف: ٢ / ٥٣، ٥٤.

[٢٣] ابن سعد، الطبقات، ١ / ٧٠.

[٢٤] المصدر نفسه: ١ / ٢٣٩.

[٢٥] سيرة ابن هشام، ١ / ١٣٦، ١٣٧.

[٢٦] ابن هشام، المصدر نفسه: ١ / ١٤٠.

- [٢٧] العقد الفريد، ٣/ ٣١٢، ٣١٤.
- [٢٨] جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام، ٣/ ٤٧٢.
- [٢٩] جواد علي، المصدر نفسه: ٣/ ٤٨٣ فما بعد.
- [٣٠] الكامل في التاريخ، ١/ ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥.
- [٣١] سنك وكل: كلمتان فارسيتان، معناهما: الحجر والطين.
- [٣٢] البلاذري، انساب الاشراف: ص ٥٥، ٥٦.
- [٣٣] ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١/ ٧٨.
- [٣٤] البلاذري، انساب الاشراف، ١/ ٥٧.
- [٣٥] الانساب، ١/ ٢٦٥.
- [٣٦] الازرقى، اخبار مكة: ص ٢٨١.
- [٣٧] وردت تفاصيل ذلك في الدر المنمق ص ٨٨ وما بعدها.
- [٣٨] المصدر نفسه: ص ٩٢.
- [٣٩] المصدر نفسه: ص ٩٠.
- [٤٠] مستشرق بلجيكي، وراهب يسوعي، شديد التعصب ضد الاسلام، ويفتقر افتقارا تاما الى النزاهة في البحث، والامانة في نقل النصوص وفهمها. ولد في بلجيكا عام ١٨٦٢ وجاء الى بيروت في صباه وتعلم في الكلية اليسوعية ببيروت. عمل استاذا في (معهد الدروس الشرقية) لمادة التاريخ الاسلامي، كتب في السيرة النبوية ما لا يقل عن عشرة كتب مليئة بالافتراءات والاستنتاجات الذوقية وتعتمد في بعضها الاشارة الى مصادر ليس لها وجود. كما دافع في كتابه (دراسات عن حكم الخليفة الاموي معاوية الاول) عن الامويين دفاعا مستميتا وبرر لهم كل افعالهم الشنيعة، وخاصة ما ارتكبه يزيد بن معاوية. راجع موسوعه المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوي. (المترجم).
- [٤١] سيرة ابن هشام: ص ٦٤.
- [٤٢] سيرة ابن هشام: ص ٧١.
- [٤٣] سيرة ابن هشام: ص ١٣٨، ١٣٩.
- [٤٤] سيرة ابن هشام، ٣/ ١٤١.
- [٤٥] الاغانى، ٢٢/ ٥٩: بنو لحيان.
- [٤٦] الدر المنمق: ص ٢٧٥.
- [٤٧] البلاذري، انساب الاشراف: ص ٧٦، ابن الاثير: ص ٥٨٧.
- [٤٨] الاغانى، ٢٢/ ٥٤، ٧٥.
- [٤٩] ابن الاثير: ١/ ٥٩٤، النهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٣٠، طبعه الدار الاسلاميه بيروت.
- [٥٠] من الواضح ان المؤلف يشير في بحثه هذا الى نظرية (التطور التقدمي او التصاعدي) التي سادت في اوربا في القرن التاسع عشر، ونادى بها فريق من العلماء، وحاول تطبيقها على تاريخ الاديان منهم سبنسر وتيلور دوركيم وغيرهم، حيث ذهب هذا الفريق الى ان الدين بدا في صورة الخرافة والوثنية وان الانسان اخذ يترقى في دينه على مدى الاجيال حتى وصل الى الكمال فيه بالتوحيد، كما تدرج نحو الكمال في علومه وصناعاته، حتى زعم بعضهم ان عقيدة (الاله الاحد) عقيدة حديثة للغاية، بل قال بعضهم: انها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامي. غير ان هذه النظرية واجهت اعتراضات اساسية، وعجزت عن الاجابة على الاسئلة التي اثارها بوجهها

النظرية المقابلة، وهي نظرية (اصالة التوحيد) او (فطرة التوحيد) التي انتصر لها جمهور من علماء الاجناس وعلماء النفس، ومن اشهرهم لانج وشريدن وبروكلمان ولروا وكاترفاج وغيرهم. ومن الاعتراضات التي اثيرت بوجه النظرية الاولى: اولاً: ان مؤرخو الاديان يعترفون بصورة صريحة ان الديانات الخاصة بالعصر الحجري وما قبله لا تزال مجهولة لدينا جهلاً تاماً ولا سبيل للخوض بها الا على سبيل التكهن والرجم بالغيب، اما الاستدلال على ديانة الانسانية في مراحلها الاولى بديانة الامم الحالية المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية، فانه مبنى على افتراض ان هذه الامم كانت منذ بدايتها على الحالة التي وصل اليها البحث، وانها لم تمر بادوار متقلبة، وذلك افتراض لم يقيم عليه دليل، بل الذي اثبتته التاريخ واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية، هو ان فترات الركود والتقهقر التي سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة، وهذه بدورها قامت على انقاض مدنيات بائدة، وهكذا في ادوار تتعاقب على البشرية بحيث يصبح من العسير ان نحكم بصفة قاطعة بايهما بدأت دورة الزمان، ولقد انصف العلامة هوفدنج حين قال: ((انه يبعد كل البعد ان ينجح تاريخ الاديان في حل مشكلة بزوغ الدين في النوع الانساني.. فان التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الاولى في موضع ما، وكل مانجده انما هو سلسلة من صور مختلفة لديانات متقدمة قليلاً او كثيراً حتى ان احط القبائل الهمجية التي نعرفها قد مرت بادوار شتى وتطورت تطوراً بعيداً» اقتباس عن (الدين.. بحوث تمهيدية لدراسة تاريخ الاديان) عبدالله دراز. وثانياً: ان نظرية (التطور التقدمي او التصاعدي) قائمة على افتراض ان الملكات والاحاسيس الروحية يمكن قياسها على القوى البدنية والمكتسبات العقلية والتجريبية، فكما ان الانسان ينتقل في نموه البدني من الضعف الى القوة، وفي نموه العقلي من الجهل وعدم العلم الى المعرفة والعلم، فانه كذلك على الصعيد الروحي قد بدا حياته بالسخف والخرافة، ولم يصل الى العقيدة السليمة الا بعد جهد وعناء، ولكن من اين جاء هذا الافتراض؟ وما هو الدليل عليه؟ وهل ان الواقع يؤيده ام يعاكسه؟! كل هذه التساؤلات من شأنها ان تززع الاساس الذي اقامت عليه هذه النظرية بنائها. بعد هذا كله نتجه الى النصوص الدينية، فنجدها تذهب الى غير الجهة التي يتجه اليها ذلك المذهب التطوري، فانها اى النصوص الدينية تقرر ان (العقيدة الالهية الصحيحة) مغروسة في ذات الانسان (فطرة الله التي فطر الناس عليها).. ثم تقرر الايات القرآنية حقيقة اخرى وهي ان الانسان بدا حياته بالعقيدة الصحيحة، ثم طرا الانحراف والاختلاف (وما كان الناس الا امة واحدة فاختلّفوا) «يونس: ١٩». وهنا انتهى البعض الى نظرية ثالثة تقول: ان الهدى والضلال ليسا ظاهرتين متعاقبتين فقط في المسألة الدينية صعوداً او انحداراً، بل هما ظاهرتان متعاصرتان تتواجدان في كل امة، اذلا يخلو جيل من نفوس نقية تدرك الحقيقة، واخرى دون ذلك تخطئها وتتجه الى الخرافة والشعوذة وما الى ذلك (المترجم). وليرجع من اراد التفصيل الى كتاب (الدين.. بحوث تمهيدية لدراسة تاريخ الاديان) للدكتور عبدالله دراز.

[٥١] الاصنام: ص ١٤.

[٥٢] الاصنام: ص ٢٨٠.

[٥٣] المصدر نفسه: ص ٩ الى ٢١.

[٥٤] الاصنام: ص ٦٠، ٦١.

[٥٥] لسان العرب، ذيل الشمس.

[٥٦] الازرقى، تاريخ مكة: ص ١٨٩.

[٥٧] تاريخ اليعقوبي: ٢٥٦/١.

[٥٨] الازرقى: ص ١٣٢، لسان العرب، مادة حرر.

[٥٩] صبح الاعشى، ٤١٠، ٤١١.

[٦٠] الوكاء: الخيط الذي تشد به الصرة او الكيس وغيرهما.

[٦١] المسير: ثوب فيه خيوط من القز والحريز ونحوه كالسيور.

- [٦٢] العدنى: كل ما ينسب الى عدن من ثياب وغيرها. الاغانى: ٥٧ / ٢٢.
- [٦٣] دائرة المعارف بريتانيكا، ذيل اليمن.
- [٦٤] البيرونى، الاثار الباقية، ص ١١.
- [٦٥] القلمس: البحر الزخار.
- [٦٦] الاثار الباقية: ص ٦٢.
- [٦٧] تاريخ اليعقوبى: ج ١.
- [٦٨] المحبر: ص ١٦١.
- [٦٩] المعارف: ص ٦٢١.
- [٧٠] المنمق: ص ٥٠٦.
- [٧١] المحبر: ص ٣٤٠.
- [٧٢] المحبر: ص ٣١٠ و ٣١١.
- [٧٣] المحبر: ص ٣٠٩.
- [٧٤] المحبر: ص ٣٣٨.
- [٧٥] المصدر نفسه: ص ٢٢٥.
- [٧٦] المصدر نفسه: ص ٣٢٦.
- [٧٧] لسان العرب، مادة سعى.
- [٧٨] المحبر: ص ٣٤٠.
- [٧٩] صحيح البخارى، باب النكاح، حديث رقم ٤٧٩٠.
- [٨٠] المحبر: ص ٣٣٠.
- [٨١] المحبر: ص ٣٣١.
- [٨٢] لسان العرب، مادة حما.
- [٨٣] تاريخ اليعقوبى: ١ / ٢٥٩.
- [٨٤] المصدر نفسه، المحبر: ص ٢٢٣ الى ٢٢٥.
- [٨٥] صحيح البخارى (باب ثمن الكلب من كتاب البيع).
- [٨٦] لسان العرب، مادة سجع.
- [٨٧] لسان العرب، ذيل كهن.
- [٨٨] تاريخ اليعقوبى: ١ / ٢٥٨.
- [٨٩] راجع المنمق ص ١٩٦، وتاريخ اليعقوبى فيالموضع المذكور.
- [٩٠] المطالعات الاسلامية: ج ١.
- [٩١] المفصل: ١ / ٣٩ الى ٤٢.
- [٩٢] روض الانف: ٢ / ١٥٨.
- [٩٣] تاريخ الطبرى، احداث سنة ١١ هجرية.
- [٩٤] نولدكهرتاريخ ساسانيان.

- [٩٥] يبدأ التاريخ السلوكى من عام ٣١٢ قبل الميلاد وليس كما ورد خطأ فى حاشية مروج الذهب بانه العام ٣٢٤ قبل الميلاد.
- [٩٦] مروج الذهب: ١٢ / ٢.
- [٩٧] روض الانف: ١٥٩ / ٢.
- [٩٨] طبقات ابن سعد: ١ / ٦٠، ٦١.
- [٩٩] الطبقات: ١ / ١١٢.
- [١٠٠] الطبقات: ١ / ٧٣.
- [١٠١] المعارف: ص ٥٧٥.
- [١٠٢] المنمق حريره: ص ٢١٣.
- [١٠٣] الاغانى: ٥٤ / ٢٢.
- [١٠٤] الاغانى: ٥٦ / ٢٢.
- [١٠٥] الكامل فى التاريخ: ١ / ٥٩٢.
- [١٠٦] الاغانى: ٧٨ / ٢٢.
- [١٠٧] المحبر، يظهر منه ذلك ص ١٨٤ الى ١٧٢.
- [١٠٨] المنمق: ص ٧٧٩.
- [١٠٩] المصدر نفسه: ص ٢٢٠.
- [١١٠] الطبقات: ١ / ١٢٩.
- [١١١] الطبقات: ١ / ١٣٣.
- [١١٢] اخبار مكة: ص ١٥٩.
- [١١٣] المصدر نفسه: ص ١٦١.
- [١١٤] السيرة: ١ / ٢٠٤.
- [١١٥] الطبقات: ص ١٤٥.
- [١١٦] سيرة ابن هشام: ١ / ٢٠٥.
- [١١٧] المصدر نفسه.
- [١١٨] تاريخ مكة: ١ / ١٦٠.
- [١١٩] المصدر نفسه: ١ / ١٦٢.
- [١٢٠] المصدر نفسه: ١ / ١٥٩.
- [١٢١] المصدر نفسه: ١ / ١٦٣.
- [١٢٢] تاريخ مكة: ١٦٣ و ١٦٦.
- [١٢٣] سيرة ابن هشام: ١ / ٢٥٢.
- [١٢٤] الميل العربى يساوى ثلاثة آلاف ذراع.
- [١٢٥] سيرة ابن هشام: ١ / ٢٥١.
- [١٢٦] لسان العرب، مادة حنث.
- [١٢٧] سيرة ابن هشام: ١ / ٢٥١، ٢٥٢.

- [١٢٨] سيرة ابن هشام: رقم ١٤٠ ص ١٠٠.
- [١٢٩] تاريخ الطبري: ١/ ١١٤٨.
- [١٣٠] الطبري: ١١٤٩-١١٥٢.
- [١٣١] سيرة ابن هشام، ١/ ٢٥١ الى ٢٥٤.
- [١٣٢] سيرة ابن هشام: ٢٥٢.
- [١٣٣] هذه الفقرة اسقطها ابن هشام في سيرته (المترجم).
- [١٣٤] جاء في رواية ابن سعد: «انى اخشى ان اكون كاهنا» وفي رواية اخرى: «انى اخشى ان يكون فى جنن» طبقات ابن سعد، ١/ ١٩٤، ١٩٥.
- [١٣٥] من الواضح ان المؤلف حاول تفسير الروايات من خلال مقارنتها مع بعضها البعض، وبالاستعانة بما ينسجم وتلك المعانى من القرآن الكريم، وبعبارة اخرى انه بذل جهدا للوصول الى بعض النتائج من خلال الاعتماد على النصوص وحدها بعيدا عن احتمالات التشكيك بصدق مثل هذه الروايات وما يمكن ان يكون قد داخلها من تحريف وتشويه، بل وحتى دون الزام نفسه بمسبقات اعتقادية تخالف ما انتهى اليه الاستاذ المؤلف من نتائج مهمة، وربما كانت هذه المسبقات هي التي دعت ابن هشام الى اسقاط تلك الفقرة من روايته. (المترجم).
- [١٣٦] طبقات ابن سعد: ١/ ١٩٨.
- [١٣٧] سيرة ابن هشام، ١/ ٢٦٤.
- [١٣٨] الطبقات: ابن سعد: القسم ١، ص ٢٧، ٢٨.
- [١٣٩] الطبري، ص ١١٦٨.
- [١٤٠] الطبقات: القسم ١، ص ١٢٢.
- [١٤١] الطبري: ١/ ١١٦٧.
- [١٤٢] ابن هشام، ١/ ٢٦٧، ٢٦٩.
- [١٤٣] الطبقات، ج ٣، القسم ١، ص ١٧٣.
- [١٤٤] الطبقات، ١/ ١٩٩.
- [١٤٥] انساب الاشراف: ص ٢٢٩.
- [١٤٦] الطبقات: ١/ ٢١٢.
- [١٤٧] انساب الاشراف: ص ١٢٨.
- [١٤٨] طبقات ابن سعد، ص ٧١، ١٢٣.
- [١٤٩] الطبقات: ص ٨٨، ١٢٣.
- [١٥٠] الطبقات: ٣/ ٩٨.
- [١٥١] الطبقات: ص ١٢٣ الى ١٧٧.
- [١٥٢] انساب الاشراف: ص ١٦٣.
- [١٥٣] تفسير الطبري: ج ١٧، سورة الحج، الاية: ٥٢.
- [١٥٤] تفسير الطبري، ج ١٧، سورة الحج، الاية: ٥٢.
- [١٥٥] انساب الاشراف: ص ١٥٦ فما بعد.

- [١٥٦] سيرة ابن هشام: ١ / ٣٤٢.
- [١٥٧] انساب الاشراف: ١ / ١٥٨.
- [١٥٨] المصدر نفسه: ١ / ١٥٩.
- [١٥٩] انساب الاشراف: ١ / ١٧٦.
- [١٦٠] الطبقات ج ٢، القسم ١، ص ١١٦.
- [١٦١] انساب الاشراف: ١ / ١٧٦.
- [١٦٢] انساب الاشراف: ص ١٧٦.
- [١٦٣] المصدر نفسه: ص ١٨٠.
- [١٦٤] انساب الاشراف: ص ١٨١.
- [١٦٥] انساب الاشراف: ص ١٨٥.
- [١٦٦] المصدر نفسه: ص ١٨٦.
- [١٦٧] انساب الاشراف: ص ١٨٤.
- [١٦٨] انساب الاشراف: ص ١٨٦.
- [١٦٩] انساب الاشراف: ص ١٩١.
- [١٧٠] انساب الاشراف: ص ٨٩.
- [١٧١] الطبقات: ٣ / ٢٣٤.
- [١٧٢] الطبقات: ٤ / ٢١٤، ٢١٥.
- [١٧٣] الجمهرة: ص ١٨٦.
- [١٧٤] طبقات ابن سعد: ٤ / ٢١٩ الى ٢٢٢.
- [١٧٥] الصرمة: القطعة من الابل.
- [١٧٦] الخفاء: خرقة توضع على السقاء.
- [١٧٧] سخفه الجوع: رفته وهزاله.
- [١٧٨] طبقات ابن سعد، ٤ / ٢١٩ الى ٢٢٢.
- [١٧٩] طبقات ابن سعد، ح ٢، القسم ١، ص ٢٧٨، انساب الاشراف: ص ١١٦.
- [١٨٠] المنمق: ص ١٠٤.
- [١٨١] المنمق: ص ١٠٠، ١٠١.
- [١٨٢] المنمق: ص ١٠٦.
- [١٨٣] انساب ابن حزم: ص ١٤٤.
- [١٨٤] المحبر: ص ١٣٩، ١٤٠.
- [١٨٥] القرى: ما يقدم للضيف من الطعام.
- [١٨٦] سيرة ابن اسحاق، نسخة القرويين، سيرة ابن هشام: ١ / ٣٣٧ الى ٣٣٨.
- [١٨٧] سيرة ابن هشام: ١ / ٣٤٢.
- [١٨٨] الانساب، ص ١٣٣.

[١٨٩] تفسير الطبري، ذيل الآية.

[١٩٠] المنمق: ص ٤٨٨، ٤٨٩.

[١٩١] انساب الاشراف: ص ١٣٤.

[١٩٢] راجع تفسير الطبري: ج ٢٥.

[١٩٣] انساب الاشراف: ص ١٤١، المحبر: ص ١٦٥.

[١٩٤] انساب الاشراف: ص ١٤١.

[١٩٥] الطبقات، ج ٤، القسم ١، ص ٧٠ الى ٧٢.

[١٩٦] انساب الاشراف: ص ١٥١.

[١٩٧] هكذا عرض المؤلف موقف الرسول (ص) من عقبه بن ابي المعيط، كما ورد في النص الفارسي، وقد ظهر من خلال هذا العرض وكان الرسول (ص) يريد في موقفه هذا الانتقام والثار لذاته، ورغم ان المؤلف استند في عرضه هذا الى روايتين وردتا في انساب الاشراف ص ١٤٧ الى ١٤٨ غير انه لفق بين الرويتين بطريقة اسهمت الى حد ما في ابراز ذلك العنصر الذاتي الغير معروف عن الرسول (ص)، وها نحن نورد نص الرويتين كما جاء في انساب الاشراف (ص ١٤٧ الى ١٤٨): عن محمد بن عمر الواقدي، باسناده: «ان عقبه بن ابي معيط عمد الى مكنتل، فجعل فيه عذرة ثم القاه على باب رسول الله (ص). فبصر له طليب بن عمير بن وهب بن عبد بن قصي بن كلاب وامه اروى بنت عبد المطلب فاخذ المكنتل منه، وضرب به راسه، واخذ باذنيه، ونشب به عقبه، فذهب به الى امه، فقال لها: الا- ترين الى ابنك قد صار غرضا دون محمد؟ فقالت: ومن اولى منه بذلك؟ هو ابن خاله، اموالنا وانفسنا دون محمد. وجعلت تقول: فان طليبا نصر ابن خاله آساه في ذى دمه وماله فلما كان يوم بدر، اتى بعقبه اسيرا. وكان الذى اسره عبدالله بن سلمة بن مالك العجلاني، من بلي، وعداده في الانصار، جمع به فرسه، فاخذه. فامر رسول الله (ص) عاصم بن ثابت بن ابي الاقح الاوسى من الانصار بضرب عنقه، فجعل عقبه يقول: ياويلتى علام اقتل يا معشر قريش! اقتل من بين هؤلاء؟ فقال رسول الله (ص): لعداوتك لله ولرسوله. قال: يا محمد، منك افضل فاجعلنى كرجل ممن هاهنا من قومك وقومى. ويا محمد من اللصبي؟ قال رسول الله (ص): النار. وكان قتله بعرق الظبية. وقال الواقدي: قتل بالصفراء. وقيل: ان رسول الله (ص) اسر به فصلب. فكان اول مصلوب صلب في الاسلام». الرواية الثانية: عن عامر الشعبي: «ان رسول الله (ص) قال لعقبه يوم بدر: والله لاقتلنك. فقيل: اتقتله من بين قريش؟ قال: نعم، انه وطىء على عنقى وانا ساجد، فما رفع حتى ظننت ان عينى قد سقطتا، وجاء يوما وانا ساجد بسلى شاء فالقاه على راسى، فانا قاتله»، هذا ويلاحظ قول الرسول (ص) في الرواية الاولى «لعداوتك لله ورسوله» فالعداوة لله وللرسالة هي التي تحدد موقف الرسول لا الثار والانتقام لاغراض شخصية (المترجم).

[١٩٨] المنمق: ص ٤٨٨.

[١٩٩] لا ينطلق الرسول (ص) في موقفه من اعدائه عن (دوافع شخصية)، ولا اعتقد ان المؤلف يقصد ذلك رغم كون العبارة توحى بذلك (المترجم).

[٢٠٠] المنمق، ص ٤٨٨.

[٢٠١] الانساب، ص ١٣٩، ١٤٠.

[٢٠٢] سيرة ابن هشام: ٣٣/٢.

[٢٠٣] سيرة ابن هشام: ٣٨٥، ٣٨٦/١.

[٢٠٤] الانساب: ص ١٤٠.

[٢٠٥] لا ينبغي ان يفهم من عبارة المؤلف ان الامر بقتل النضر بن الحارث كان لدوافع شخصية، فهذا ما لا يمكن ان يقع بحق رسول

الله (ص) الذي كان على خلق عظيم والذي ارسل رحمة للعالمين. (المترجم).

[٢٠٦] المحبر: ص ١٦١.

[٢٠٧] المحبر: ص ١٦١.

[٢٠٨] الانساب: ١٢٨.

[٢٠٩] المنمق.

[٢١٠] سيرة ابن هشام: ٣/٤٦.

[٢١١] الانساب: ص ١٣١.

[٢١٢] انساب الاشراف: ص ١٠.

[٢١٣] الطبقات، ١/١٩٩.

[٢١٤] راجع تفصيل ذلك في الطبقات: ٣/٢٤٣.

[٢١٥] الطبقات، ١/٢٠٠.

[٢١٦] تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون: ص ٤٩.

[٢١٧] الطبقات: ١/١٩٩.

[٢١٨] لا- نشارك المؤلف رايه في ان الهدف من تكثيف الانذار والتهديد والوعيد بيوم القيامة انما هو ردع كفار قريش عن غيهم وصددهم عن ارتكاب القتل والظلم والشرك والنهب وعبادة الاصنام فحسب، بل نعتقد ان السور المكية كانت لها اهداف ومقاصد ابعد من معالجة حالة انحراف مؤقتة ومحدودة، فقد كانت في صدد معالجة حالة انحراف عامة وشاملة كان الناس يعيشونها، وتتجسد في قضيتين اساسيتين هما: الشرك، ونكران الآخرة ويوم القيامة، ولم تكن هذه المسألة موضع اهتمام الرسالة الاسلامية فقط بل هي محور اهتمام الرسالات جميعا. (انا ارسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما ارسلنا الى فرعون رسولا، فعصى فرعون الرسول فاخذنه اخذا ويلا، فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا) «المزمل: ١٥ - ١٧». فقد اراد القرآن الكريم عبر هذه السور ايجاد نظام جديد من شأنه ان يهذب الانسان اى انسان كان ضعيفا او قويا ويحرره من قيود الذات واغلال الشرك واثقال الارض. بعبارة اخرى حاول القرآن الكريم معالجة حالة انسانية عامة، وليست مقصورة باهل الجاهلية فقط. (المترجم).

[٢١٩] لقد تقدم من الاستاذ المؤلف ما يخالف ذلك فقد قال في ص ٦٥: «ان اعمال السلب والتجاوز والاعتداء كان يرفضها الوجدان العام للعرب منذ القدم، ولا يقرها الضمير الباطنى لهم، لهذا كانوا يمتنعون عنها عند دخولهم حالات دينية كالاحرام». وفي معرض حديثه عن مراعاة الرسول (ص) لقومه وعدم استفزازه لهم حيث قال في ص ٩٩: «ويبدو انه (اي الرسول ص) كان يحترم طقوسهم الدينية الى الحد الذي لا يجعله مرتبطا باخلاقهم وآدابهم الفاسدة». ثم يضيف: «فان تلك الاخلاق القبيحة، قبيحة في نظرهم ايضا، من قبيل ارتكاب القتل والزنا والسرقه وقطع الطريق». هذا اضافة الى ان التاريخ حدثنا عن وجود بعض القيم التي كانت تحترمها العرب على جاهليتها وتسعى للالتزام بها، بينما كان هناك افعال اخرى ترفضها ولا تقرها وهي قبيحة ومدانة في وجدانها العام وضميرها الباطن، وان اقترفها الكثيرون منهم. مثال ذلك ادانة الظلم واغاثة المظلوم، فقد جاء في اسباب حلف الفضول: «ان رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، وكان ذا قدر بمكة وشرف، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الاحلاف.. فابوا ان يعينوه على العاص وزجروه، فلما راي الزبيدي الشر اوفى على ابي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في انديتهم حول الكعبة فصاح بالعلی صوتة: يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر ومحرم اشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر ان الحرام لمن تمت كرامته ولا- حرام لثوب الفاجر الغدر فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة.. وتعاقدوا وتحالفوا على ان ترد الفضول الى اهلها وان لا يغزو ظالم مظلوما، وكان حلف الفضول. كما نرى احترام

قريش لبعض القيم من خلال حديث خديجة مع رسول الله (ص) يوم نزل عليه الوحي حيث قالت: «اعيدك بالله يا ابا القاسم من ذلك، ما كان الله عز وجل ليفعل بك ذلك، مع ما اعلم من صدق حديثك، وعظم امانتك، وحسن خلقك، وصله رحمك». سيرة ابن اسحاق نسخة بقرابين ص ١٣٢، وحديث خديجة هذا يدل على ان هناك قيما كانت تحترمها العرب وتعدّها من الفضائل كالتي ذكرتها خديجة (المترجم).

[٢٢٠] الطبرى: ٢/ ٢١٨، ٢١٩.

[٢٢١] الطبرى: ص ٢١٩، ٢٢٠.

[٢٢٢] المصدر نفسه: ص ٢٢١.

[٢٢٣] سيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٢.

[٢٢٤] مونتغمري وات، محمد في مكة: ص ١٧٩، ١٨١، ١٨٠.

[٢٢٥] الطبقات: ٤/ ٩٦.

[٢٢٦] سيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٤ الى ٣٤٦.

[٢٢٧] الطبقات: ١/ ١٣٦ الى ١٣٨.

[٢٢٨] الطبقات: ج ٣، القسم ١، ص ١٠٧.

[٢٢٩] الطبقات: ٣/ ١٦١.

[٢٣٠] المصدر نفسه: ٣/ ٣٩٣.

[٢٣١] محمد في مكة: ص ١١١.

[٢٣٢] انساب الاشراف: ١/ ١٩٨.

[٢٣٣] طبقات ابن سعد: ج ١، القسم ١، ص ١٣٨.

[٢٣٤] كتاب التفسير، سورة النجم.

[٢٣٥] بحار الانوار: ٦/ ٢١٠ (الطبعة الحجرية).

[٢٣٦] الاصنام: ص ١٩.

[٢٣٧] ورد اسمه في طبقات ابن سعد: ١/ ٢٠٤، كالتالى: ابوسلمة بن عبد الاسد المخزومي (المترجم).

[٢٣٨] ضوى: اى انضم واوى.

[٢٣٩] خضراؤهم: شجرتهم التى منها تفرعوا.

[٢٤٠] شيوم: آمنون.

[٢٤١] الدبر: الجبل، بلغة الحبشة.

[٢٤٢] تهذيب سيرة ابن هشام (عبد السلام هارون): ص ٦١ الى ٦٣.

[٢٤٣] الاغانى: ٩/ ٥٥، وما بعدها، طبعه دار الكتب.

[٢٤٤] سيرة ابن هشام: ٢/ ٣ الى ٨.

[٢٤٥] يبدو انه كان قرب دار الارقم المجاورة للصفاء، والتي حولها الرسول (ص) الى منطلق لدعوته المباركة.

[٢٤٦] سيرة ابن هشام، (تهذيب عبد السلام هارون): ص ٥٣.

[٢٤٧] الهينمة: الصوت الخفى الذى لا يفهم.

[٢٤٨] الحجزة: موضع شد الازار.

[٢٤٩] سيرة ابن هشام، (تهذيب عبد السلام هارون): ص ٦٤ الى ٦٦.

[٢٥٠] تهذيب سيرة ابن هشام (تهذيب عبد السلام هارون): ص ٦٤.

[٢٥١] معجم البلدان: ٣/ ٢٩٤.

[٢٥٢] الكامل فى التاريخ: ١/ ٦٠٤.

[٢٥٣] الكامل فى التاريخ: ١/ ٦٠٤.

[٢٥٤] انساب الاشراف: ١/ ٢٣٤، سيرة ابن اسحاق، الرباط، ص ١٤٠.

[٢٥٥] طبقات ابن سعد: ١/ ٢٠٩.

[٢٥٦] سيرة ابن هشام: ١/ ١٤٢، ١٤٣.

[٢٥٧] سيرة ابن هشام: ١/ ٢٨٧.

[٢٥٨] المصدر نفسه: ١/ ٢٩٦.

[٢٥٩] طبقات ابن سعد: ١/ ٢٠٩، ٢١٠.

[٢٦٠] انساب الاشراف: ١/ ٢٣٦.

[٢٦١] سيرة ابن اسحاق: ص ٢٢٠، ٢٢٣.

[٢٦٢] صدرت بحوث ودراسات كثيرة حول ايمان ابى طالب، منها ما صدر اخيرا بعنوان (ابو طالب مؤمن قريش) للشيخ عبد الله الخنزرى (المترجم).

[٢٦٣] يذئهم: يثيرهم ويجرئهم.

[٢٦٤] الحبله: شجرة العنب او قضبانها.

[٢٦٥] مدينة فى شمال العراق.

[٢٦٦] احد واديين على ليله من مكة، يقال لاحدهما نخلة شامية وللآخر نخلة يمانية.

[٢٦٧] سيرة ابن هشام: (تهذيب عبد السلام هارون): ص ٦٣.

[٢٦٨] تاريخ الطبرى: ٢/ ٢٣١.

[٢٦٩] عيون الاثر: ١/ ١٥٣.

[٢٧٠] المصدر نفسه: ١/ ١٥٢.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم و أنفُسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام على بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - فى تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافية بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادى" - "رَحِمَهُ اللهُ" - كان أحدًا من جهايزة هذه المدينة، الذى قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبى (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام على بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، فى سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفئ مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمة" للتحرى الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامى - دام عزه - ومع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالات شتى: دينيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرى الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المبتدله أو الرديئه - فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءة و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلاميه، إناله منابع اللازمه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة فى الجامعه، و...

- منها العداة الاجتماعيه: التى يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - فى آكناف البلد - و نشر الثقافه الإسلاميه و الإيرانية - فى أنحاء العالم - من جهه أخرى.
- من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتى "القائمة" www.Ghaemiyeh.com و عدة مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية

(و) الإطلاع و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين فى الجلسة

(ى) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسى: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / "ما بين شارع "پنج رمضان" و "مفترق" و فائى" / "بنايه" القائمية"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهويه الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجاريه و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينية و العلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حدّ التمكن لكلّ احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله وليّ التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

